اشارات الاعجاز فی مظان الایجاز

لبديع الزمان



ناشری

عبد الرحمن

اوقاف اسلامیه مطبعه‌سی

١٣٣٤

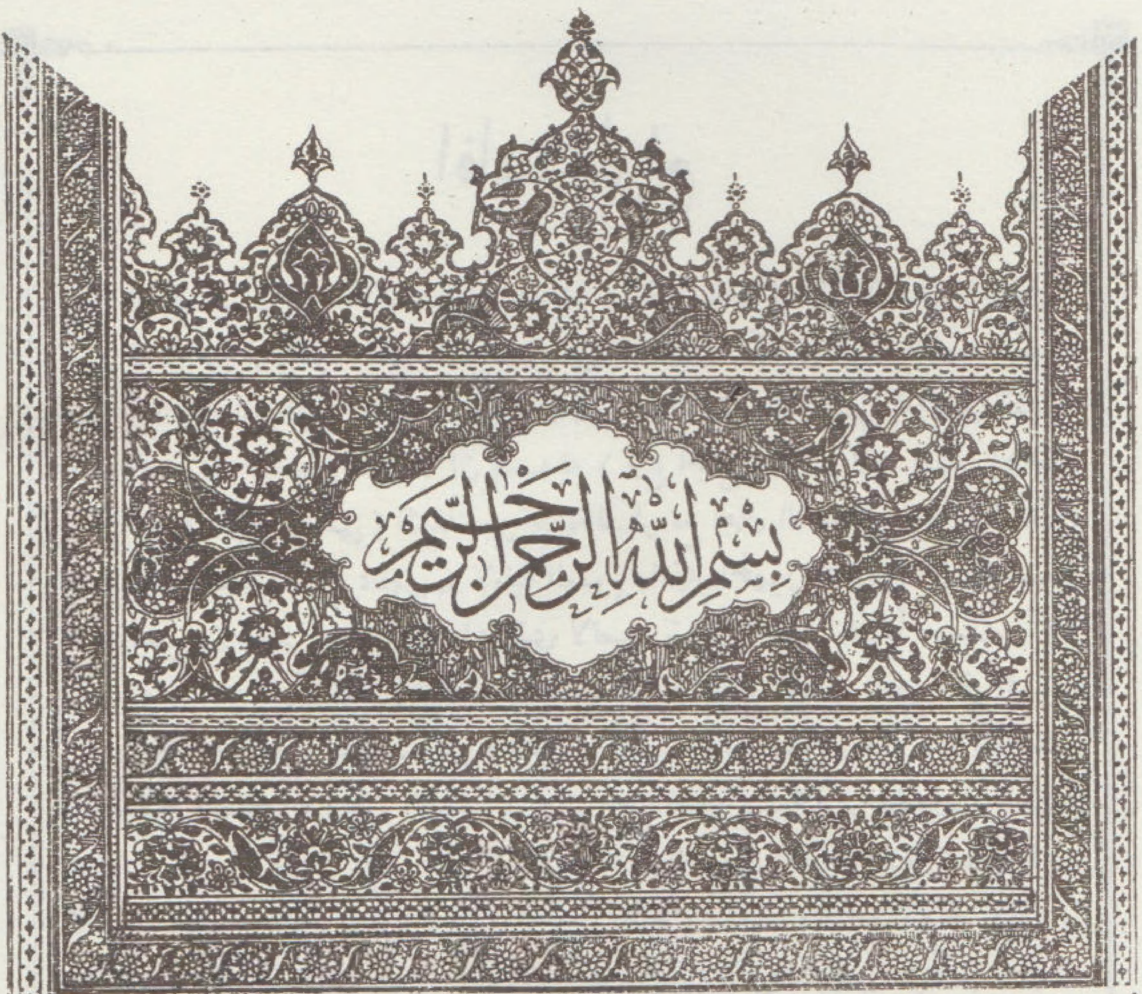
افادة المرام

اقول لما كان القرآن جامعا لاشتات العلوم وخطبة لعامة الطبقات فى كل الاعصار لا تحصل له تفسير لائق من فهم الفرد الذى قلما يخلص من التعصب لمسلكه ومشربه اذ فهمه يخصه ليس له دعوة الغير اليه الاان يعديه قبول الجمهور . واستنباطه لابالتشهى له العمل لنفسه فقط ولايكون حجة على الغير الا ان يصدقه (نوع اجماع) فكما لابد لتنظيم الاحكام واطرادها ورفع (الفوضى) الناشأة من حرية الفكر مع اهمال الاجماع وجود (هيئة عالية) من العلماء المحققين الذين بمظهريتهم لامنية العموم واعتماد الجمهور يتقلدون كفالة ضمنية للامة فيصيرون مظهر سر حجية الاجماع الذى لاتصير نتيجة الاجتهاد شرعاً ودستوراً الا بتصديقه وسكته . وكذلك لابد لكشف معان القرآن وجمع المحاسن المتفرقة فى التفاسير وتثبيت حقائقه المتجلية بكشف الفن وتمخيض الزمان — من انتهاض هيئة عالية من العلماء المتخصصين المختلفين فى وجوه الاختصاص ولهم مع دقة نظر وسعة فكر لتفسيره — نتيجة المرام انه لابد ان يكون مفسر القرآن ذادهاء عال واجتهاد نافذ و ولاية كاملة وما هو الآن الا الشخص المعنوى المتولد من امتزاج الارواح وتساندها وتلاحق الافكار وتعاونها وتظافر القلوب واخلاصها وصميميتها من بين تلك الهيئة فبسر «للكل حكم ليس لكل» كثيرا مايرى آثار الاجتهاد وخاصة الولاية ونوره وضيائها من جماعة خلت منها افرادها ثم انى بينما كنت منتظرا ومتوجها لهذا المقصد بتظاهر هيئة كذلك وقد كان هذا غاية خيالى من زمان مديد اذسنح لقلبى من قبيل الحس قبل الوقوع تقرب[1] زلزلة عظيمة فشرعت مع عجزى وقصورى والاغلاق فى كلامى فى تقييد ماسنح لى من اشارات اعجاز القرآن فى نظمه وبيان بعض حقائقه ولم يتيسر لى مراجعة التفاسير فان وافقها فبها ونعمت والا فالعهدة علىّ فوقعت هذه الطامة الكبرى ففى أثناء اداء فريضة الجهاد كلما انتهزت فرصة فى خط الحرب قيدت مالاح لى فى الاودية والجبال بعبارات متفاوتة باختلاف الحالات . فمع احتياجها الى التصحيح والاصلاح لايرضى قلبى بتغييرها وتبديلها اذظهرت فى حالة من خلوص النية لاتوجد الآن فاعرضها لانظار اهل الكمال لا لانه تفسير للتنزيل بل ليصير لوظفر بالقبول نوع مأخذ لبعض وجوه التفسير . وقد ساقنى شوقى الى ما هو فوق طوقى فان استحسنوه شجعونى على الدوام . ومن الله التوفيق .

---

[1] وقد اخبرنا مرارا فى أثناء الدرس وقوع زلزلة عظيمة فوقعت كما اخبر

حمزه محمد شفيق محمد مهرى



الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان فنحمده مصليا على نبيه محمد الذى ارسله رحمة للعالمين وجعل معجزته الكبرى الجامعة برموزها واشاراتها لحقائق الكائنات باقية على مر الدهور الى يوم الدين وعلى آله عامة واصحابه كافة

امابعد فاعلم اولا انمقصدنا من هذه الاشارات تفسيرجملة من رموز نظم القرآن لان الاعجاز يتجلى من نظمه وماالاعجاز الزاهر الانقش النظم * وثانيا ان المقاصد الاساسية من القرآن وعناصره الاصلية اربعة التوحيد والنبوة والحشر والعدالة لانه لما كان بنو آدم كركب وقافلة متسلسلة راحلة من اودية الماضى و بلاده سافرة فى صحراء الوجود والحيات ذاهبة الى شواهق الاستقبال متوجهة الى جنانه فتهتزبهم المناسبات وتتوجه اليهم الكائنات كأنه ارسلت حكومة الخلقة فن الحكمة مستنطقا وسائلا منهم بيابنى آدم من اين الى اين ماتصعون من سلطانكم من خطيبكم فينما المحاورة اذقام من بين بنى آدم كامثاله الاماثل من الرسل اولى العزائم سيد نوع البشر محمد الهاشمى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بلسان القرآن ايها الحكمة نحن معاشر الموجودات نجئ بارزين من ظلمات العدم بقدرة سلطان الازل الى ضياء الوجود ونحن معاشر بنى آدم بعثنا بصفة المأمورية ممتازين من بين اخواننا الموجودات بحمل الامانة ونحن على جناح السفر من طريق الحشر الى السعادة الابدية ونشتغل الآن بتدارك تلك السعادة وتنمية الاستعدادات

التى هى رأس مالنا * وانا سيدهم وخطيبهم فها دونكم منشورى وهو كلام ذلك السلطان الازلى يتلألأ عليه سكة الاعجاز ــ والمجيب عن هذه الاسئلة الجواب الصواب ليس الا القرآن ذلك الكتاب ــ كان [١] هذه الاربعة عناصره الاساسية فكما تتراآ هذه المقاصد الاربعة فى كله كذلك قد تتجلى فى سورة سورة بل قد يلمح بها فى كلام كلام بل قد يرمز اليها فى كلمة كلمة لان كل جزء لجزء كالمرآة لكل فكل متصاعدا كما ان الكل يتراآ فى جزء فجزء متسلسلا ولهذه النكتة اعنى اشتراك الجزء مع الكل يعرّف القرآن المشخص كالكلى ذى الجزئيات ﴿ان قلت﴾ ارنى هذه المقاصد الاربعة فى بسم الله وفى الحمد لله ﴿قلت﴾ لما انزل بسم الله لتعليم العباد كان قل مقدرا فيه وهو الام فى تقدير الاقوال القرآنية فعلى هذا يكون فى قل اشارة الى الرسالة وفى بسم الله رمز الى الالوهية * وفى تقديم الباء تلويح الى التوحيد * وفى الرحمن تلميح الى نظام العدالة والاحسان * وفى الرحيم ايماء الى الحشر وكذلك فى الحمد لله اشارة الى الالوهية وفى لام الاختصاص رمز الى التوحيد وفى رب العالمين ايماء الى العدالة والنبوة ايضا لان بالرسل تربية نوع البشر وفى مالك يوم الدين تصريح بالحشر حتى ان صدف انا اعطيناك الكوثر يتضمن هذه الجواهر هذا مثالا فانسج على منواله (بسم الله) كالشمس يضئ نفسه كغيره فاستغنى حتى ان بائه متعلقة بالفعل المفهوم من معناها اى استعين به او المفهوم عرفا اى اتيمن به او بما يستلزمه قل المقدر من اقرأ المؤخر للاخلاص والتوحيد

اما الاسم: فاعلم ان لله اسماء ذاتية واسماء فعلية متنوعة كالغفار والرزاق والمحى والمميت وامثالها وتنوعها وتكثرها بسبب تعدد نسبة القدرة الازلية الى انواع الكائنات فكأن بسم الله استنزال لتأثير وتعلق القدرة ليكون ذلك التعلق روحا ممدا لكسب العبد * الله لفظة الجلال نسخة جامعة لجميع الصفات الكمالية لدلالتها التزاما عليه بسر استلزام ذاته تعالى لصفاته بخلاف سائر الاعلام لعدم الاستلزام (الرحمن الرحيم) وجه النظم ان لفظ الجلال كما يتجلى منه الجلال بسلسلته كذلك يتراآ الجمال بسلسلته من الرحمن الرحيم اذ الجلال والجمال اصلان تسلسل منهما بتجليهما فى كل عالم فروع كالامر والنهى والثواب والعذاب والترغيب والترهيب والتسبيح والتحميد والخوف والرجاء الى آخره * وايضا كما ان لفظ الجلال اشارة الى الصفات العينية والتنزيهية كذلك الرحيم ايماء الى الصفات الغيرية الفعلية والرحمن رمز الى الصفات السبع التى هى لاعين ولاغير اذ الرحمن بمعنى الرزاق وهو عبارة عن اعطاء البقاء والبقاء تكرر الوجود والوجود يستلزم صفة مميزة وصفة مخصصة وصفة مؤثرة وهى العلم والارادة والقدرة والبقاء الذى هو ثمرة اعطاء الرزق يقتضى عرفا ثبوت البصر والسمع والكلام اذ لابد للرازق من البصر ليرى حاجة المرزوق ان لم يطلب ومن السمع ليستمع كلامه ان طلب ومن الكلام ليتكلم مع الواسطة ان كانت وهذه الست تستلزم السابعة التى هى الحياة ﴿ان قلت﴾ تذييل الرحمن الدال على النعم العظيمة بالرحيم الدال على النعم الدقيقة يكون

[١] جواب لما

صنعة التدلى والبلاغة فى صنعة الترقى من الادنى الى الاعلا ﴿قلت﴾ تذييل للتتميم كالاهداب للعين واللجام للفرس وايضا لما توقفت العظيمة على الدقيقة كانت الدقيقة ارقى كالمفتاح للقفل واللسان للروح وايضا لما كان هذا المقام مقام التنبيه على مواقع النعم كان الاخفى اجدر بالتنبيه فيكون صنعة التدلى فى مقام الامتنان والتعداد صنعة الترقى فى مقام التنبيه ﴿ان قلت﴾ الرحمن والرحيم كامثالهما بمباديها محال فى حقه تعالى كرقة القلب وان اريد منها النهايات فما حكمة المجاز ﴿قلت﴾ هى حكمة المتشابهات وهى التنزلات الالهية الى عقول البشر لتأنيس الاذهان وتفهيمها كمن تكلم مع صبى بما يألفه ويأنس به فان الجمهور من الناس يجتنون معلوماتهم عن محسوساتهم ولاينظرون الى الحقائق المحضة الا فى مرآة متخيلاتهم ومن جانب مألوفاتهم وايضا المقصود من الكلام افادة المعنى وهى لاتتم الا بالتأثير فى القلب والحس وهو لايحصل الا بألباس الحقيقة اسلوب مألوف المخاطب وبه يستعد القلب للقبول (الحمد) وجه النظم مع ماقبله ان الرحمن والرحيم لما دلتا على النعم استوجبتا تعقيب الحمد ثم ان الحمد لله قد كررت فى اربع سور من القرآن كل واحدة منها ناظرة الى نعمة من النعم الاساسية التى هى النشأة الاولى والبقاء فيها والنشأة الاخرى والبقاء بعدها ثم وجه نظمه فى هذا المقام اى جعله فاتحة فاتحة القرآن هو انه كتصور العلة الغائية المقدم فى الذهن لان الحمد صورة اجمالية للعبادة التى هى نتيجة للخلقة والمعرفة التى هى حكمة وغاية للكائنات فكأن ذكره تصور للعلة الغائية * وقد قال عزوجل (ماخلقت الجن والانس الاليعبدونى) ثم ان المشهور من معانى الحمد اظهار الصفات الكمالية وتحقيقه ان الله سبحانه خلق الانسان وجعله نسخة جامعة للكائنات وفهرستة لكتاب العالم المشتمل على ثمانية عشر الف عالم واودع فى جوهره انموزجا من كل عالم تجلى فيه اسم من اسمائه تعالى فاذا صرف الانسان كل ما انعم عليه الى ماخلق لاجله ايفاءً للشكر العرفى الداخل تحت الحمد وامتثالاً للشريعة التى هى جلاء لصداء الطبيعة يصير كل انموزج مشكاةً لعالمه ومرآةً له وللصفة المتجلية فيه والاسم المتظاهر منه فيكون الانسان بروحه وجسمه خلاصة عالمى الغيب والشهادة ويتجلى فيه ماتجلى فيهما فبالحمد يصير الانسان مظهرا للصفات الكمالية الالهية يدل على هذا قول محى الدين العربى فى بيان حديث (كنت كنزا مخفيا فخلقت الخلق ليعرفونى) اى فخلقت الخلق ليكون مرآةً اشاهد فيها جمالى ﴿لله﴾ اى الحمد مختص ومستحق للذات الاقدس المشخص الذى يلاحظ بمفهوم الواجب الوجود اذ قد يلاحظ المشخص بأمر عام وهذه اللام متعلقة بمعنى نفسها كانها تشربت معنى متعلقها وفى اللام اشارة الى الاخلاص والتوحيد ﴿رب﴾ اى الذى يربى العالم بجميع اجزائه التى كل منها كالعالم عالم وذراته كنجومه متفرقة متحركة بالانتظام * واعلم ان الله عزوجل عين لكل شئ نقطة كمال واودع فيه ميلا اليها كأنه امره امرا معنويا ان يتحرك به اليها وفى سفره يحتاج الى مايمده ودفع مايعوقه وذلك بتربيته عز وجل لوتأملت فى الكائنات لرأيتها كبنى آدم طوائف وقبائل يشتغل كل منفرداً ومجتمعاً بوظيفته التى عينها له صانعه ساعيا مجداً مطيعا لقانون

خالقه فما اعجب الانسان كيف يشذ ﴿ العالمين ﴾ الياء والنون اما علامة للاعراب فقط كعشرين وثلاثين اوللجمعية لان اجزاء العالم عوالم اوالعالم ليس منحصراً فى المنظومة الشمسية قال الشاعر

الحمد لله كم لله من فلك * تجرى النجوم به والشمس والقمر

وآثر جمع العقلاء مثل رأيتهم لى ساجدين اشارةً الى ان نظر البلاغة يصور كل جزء من اجزاء العالم بصورة حى عاقل متكلم بلسان الحال اذالعالم اسم مايعلم به الصانع ويشهد عليه ويشير اليه فالتربية والاعلام يؤميان كالسجود الى انها كالعقلاء ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ وجه النظم انهما اشارتان الى اساسى التربية اذالرحمن لكونه بمعنى الرزاق يلائم جلب المنافع والرحيم لكونه بمعنى الغفار يناسب دفع المضار وهما الاساسان للتربية ﴿مالك يوم الدين﴾ اى يوم الحشر والجزاء وجه النظم انه كالنتيجة لسابقه اذالرحمة من ادلة القيامة والسعادة الابدية لان الرحمة انما تكون رحمةً والنعمة نعمةً اذا جائت القيامة وحصلت السعادة الابدية والا فالعقل الذى هومن اعظم النعم يكون مصيبة على الانسان والمحبة والشفقة اللتان هما من الطف انواع الرحمة تحولان المآ شديداً بملاحظة الفراق الابدى ﴿ان قلت﴾ ان الله تعالى مالك لكل شئ دائما فما وجه الاختصاص ﴿قلت﴾ للاشارة الى ان الاسباب الظاهرية التى وضعها الله تعالى فى عالم الكون والفساد لاظهار عظمته اى لئلا يرى فى ظاهر نظر العقل مباشرة يد القدرة بالامور الخسيسة فى جهة ملك الاشياء ترتفع فى ذلك اليوم وتجلى ملكوتية كل شئ صافية شفافة بحيث يرى ويعرف كل شئ سيده وصانعه بلاواسطة وفى التعبير بلفظ اليوم اشارة الى امارة حدسية من امارات الحشر بناءً على التناسب البين بين اليوم والسنة وعمر البشر ودوران الدنيا كالكائن بين اميال الساعة العادة للثوانى والدقائق والساعات والايام فكما ان من يرى ميلا اتم دوره يحدس فى نفسه ان من شأن الآخر ايضاً ان يتم دوره وان كان بمهلة كذلك ان من يرى القيامة النوعية المكررة فى امثال اليوم والسنة يحدس بتولد ربيع السعادة الابدية فى صبح يوم الحشر للانسان الذى شخصه كنوع والمراد من الدين اما الجزاء اى يوم جزاء الاعمال الخيرية والشرية اوالحقائق الدينية اى يوم طلوعها وظهورها وغلبة دائرة الاعتقاد على دائرة الاسباب لان الله عزوجل اودع بمشيئته فى الكائنات نظاما بربط الاسباب بالمسببات والجأ الانسان بطبيعته ووهمه وخياله الى ان يراعى ذلك النظام ويرتبط به وكذا وجه كل شئ اليه وتنزه عن تأثير الاسباب فى ملكه وكلف الانسان اعتقادا وايمانا بان يراعى تلك الدائرة بوجدانه وروحه ويرتبط بها ففى الدنيا دائرة الاسباب غالبة على دائرة الاعتقاد وفى الاخرى تجلى حقائق العقائد غالبة على دائرة الاسباب * واعلم ان لكل من هاتين الدائرتين مقاما معينا واحكاما مخصوصة فلابد ان يعطى كل حقه فمن نظر فى مقام دائرة الاسباب بطبيعته ووهمه وخياله ومقائيس الاسباب الى دائرة الاعتقاد اضطر الى الاعتزال ومن نظر فى مقام الاعتقاد ومقايسه

بروحه ووجدانه الى دائرة الاسباب انتج له توكلا تنبليا وتمردا فى مقابلة المشية النظامة
﴿ اياك نعبد ﴾ فى الكاف نكتتان احديهما تضمن الخطاب بسر الالتفات للاوصاف الكمالية
المذكورة اذ ذكرها شيأ شيأ يحرك الذهن ويعده ويملئه شوقا ويهزه للتوجه الى الموصوف
* فاياك اى يامن هوموصوف بهذه الصفات* والاخرى ان الخطاب يشير الى وجوب ملاحظة
المعانى فى مذهب البلاغة ليكون المقرؤ كالمنزل فينجر طبعا وذوقا الى الخطاب * فاياك يتضمن
الامتثال باعبد ربك كأنك تراه * والتكلم مع الغير فى نعبد لوجوه ثلاثة اى نعبد نحن
معاشر اعضاء وذرات هذا العالم الصغير ـ وهو انا ـ بالشكر العرفى الذى هو اطاعة كل لما امر به
* ونحن معاشر الموحدين نعبدك باطاعة شريعتك * ونحن معاشر الكائنات نعبد شريعتك
الكبرى الفطرية ونسجد بالحيرة والمحبة تحت عرش عظمتك وقدرتك * وجه النظم ان نعبد
بيان وتفسير لالحمد ونتيجة ولازم لمالك يوم الدين * واعلم ان تقديم اياك للاخلاص الذى
هو روح العبادة وان فى خطاب الكاف رمزا الى علة العبادة لان من اتصف بتلك الاوصاف
الداعية الى الخطاب استحق العبادة ﴿ واياك نستعين ﴾ هذه كاياك نعبد باعتبار الجماعات الثلاث
اى نحن معاشر الاعضاء ومعاشر الموحدين ومعاشر الكائنات نطلب منك التوفيق والاعانة
على كل الحاجات والمقاصد التى اهمها عبادتك كرر اياك لتزييد لذة الخطاب والحضور ولان
مقام العيان اعلى واجل من مقام البرهان ولان الحضور ادعى الى الصدق وبان لايكذب
ولاستقلال كل من المقصدين * واعلم ان نظم نستعين مع نعبد كنظم الاجرة مع الخدمة لان
العبادة حق الله على العبد والاعانة احسانه تعالى لعبده * وفى حصر اياك اشارة الى ان بهذه
النسبة الشريفة التى هى العبادة والخدمة له تعالى يترفع العبد عن التذلل للاسباب والوسائط
بل تصير الوسائط خادمة له وهو لايعرف الاواحدا فيتجلى حكم دائرة الاعتقاد والوجدان
كامر ومن لم يكن خادما له تعالى بحق يصير خادما للاسباب ومتذللا للوسائط لكن يلزم
على العبد وهو فى دائرة الاسباب ان لايهمل الاسباب بالمرة لئلا يكون متمردا فى مقابلة النظام
المودع بحكمته ومشيئته تعالى لان التوكل فى تلك الدائرة عطالة كامر وكنظم المقدمة مع
المقصود لان الاعانة والتوفيق مقدمة العبادة ﴿اهدنا﴾ وجه النظم انه جواب العبد عن سؤاله
تعالى كأنه يسئل أى مقاصدك اعلق بقلبك فيقول العبد اهدنا * واعلم ان اهدنا بسبب تعدد
مراتب معانيه بناء على تنوع مفعوله الى الهادين والمستهدين والمستزيدين وغيرهم كأنه مشتق
من المصادر الاربعة لفعل الهداية * فاهدنا باعتبار معشر نحن ثبتنا وبالنظر الى جماعة زدنا وبالقياس
الى طائفة وفقنا والى فرقة اعطنا وايضا ان الله تعالى بحكم خلق كل شئ وهدى هدانا باعطاء
الحواس الظاهرة والباطنة ثم هدانا بنصب الدلائل الآفاقية والانفسية ثم هدانا بارسال الرسل
وانزال الكتب ثم هدانا اعظم الهداية بكشف الحجاب عن الحق فظهر الحق حقا والباطل
باطلا اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه * ﴿الصراط المستقيم﴾
اعلم ان الصراط المستقيم هو العدل الذى هو ملخص الحكمة والعفة والشجاعة اللاتى هى

اوساط للمراتب الثلاث للقوى الثلاث * توضيحه ان الله عزوجل لما اسكن الروح فى البدن المتحول المحتاج المعروض للمهالك اودع لادامتها فيه قوى ثلاثا * احديها القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع * وثانيتها القوة الغضبية السبعية الدافعة للمضرات والمخربات * وثالثتها القوة العقلية الملكية المميزة بين النفع والضر لكنه تعالى بحكمته المقتضية لتكمل البشر بسر المسابقة لم يحدد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات وان حددها بالشريعة لانها تنهى عن الافراط والتفريط وتأمر بالوسط يصدع عن هذا فاستقم كما امرت * وبعدم التحديد الفطرى يحصل مراتب ثلاث مرتبة النقصان وهى التفريط والزيادة وهى الافراط والوسط وهى العدل * فتفريط القوة العقلية الغباوة والبلادة وافراطها الجربزة الخادعة والتدقيق فى سفاسف الامور ووسطها الحكمة ومن اوتى الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا * اعلم انه كما تنوع اصل هذه القوة الى تلك المراتب كذلك كل فرع من فروعها يتنوع الى هذه الثلاث * مثلا فى مسئلة خلق الافعال مذهب اهل السنة وسط الجبر والاعتزال وفى الاعتقاد مذهب التوحيد وسط التعطيل والتشبيه وعلى هذه القياس * وتفريط القوة الشهوية الخمودة وعدم الاشتياق الى شئ وافراطها الفجور بان يشتهى ماصادف حل اوحرم ووسطها العفة بان يرغب فى الحلال ويهرب عن الحرام وقس على الاصل كل فرع من فروعاته من الاكل والشرب واللبس وامثالها • وتفريط القوة الغضبية الجبانة اى الخوف مما لايخاف منه والتوهم وافراطها التهور الذى هو والد الاستبداد والتحكم والظلم ووسطها الشجاعة اى بذل الروح بعشق وشوق لحماية ناموس الاسلامية واعلاء كلمة التوحيد وقس عليها فروعها فالاطراف الستة ظلم والاوساط الثلاثة هى العدل الذى هو الصراط المستقيم اى العمل بفاستقم كما امرت ومن مر على هذا الصراط يمر على الصراط الممتد على النار ﴿ صراط الذين انعمت عليهم ﴾ اعلم ان نظم درر القرآن ليس بخيط واحد بل النظم فى كثير نقوش تحصل من نسج خطوط نسب متفاوتة قربا وبعدا ظهورا وخفاء لان اساس الاعجاز بعد الايجاز هذا النقش * مثلا صراط الذين انعمت عليهم يناسب * الحمد لله لان النعمة قرينة الحمد * ورب العالمين لان كمال التربية بترادف النعم * والرحمن الرحيم لان المنعم عليهم اعنى الانبياء والشهداء والصالحين رحمة للعالمين ومثال ظاهر للرحمة * ومالك يوم الدين لان الدين هو النعمة الكاملة * ونعبد لانهم الائمة * ونستعين لانهم الموفقون * واهدنا لانهم الاسوة بسر فبهداهم اقتده * وصراط المستقيم لظهور انحصار الطريق المستقيم فى مسلكهم هذا مثال لك فقس عليه * وفى لفظ الصراط اشارة الى ان طريقهم مسلوكة محدودة الاطراف من سلكها لايخرج عنها * وفى لفظ الذين بناء على انه موصول ومن شأن الموصول ان يكون معهودا نصب العين للسامع اشارة الى علو شأنهم وتلألؤهم فى ظلمات البشر كأنهم معهودون نصب العين لكل سامع وان لم تحر ولم يطلب * وفى جمعيته رمز الى امكان الاقتداء وحقانية مسلكهم بسر التواتر اذ يد الله مع الجماعة * وفى صيغة انعمت اشارة الى وسيلة طلب النعمة * وفى نسبتها شافع له كأنه يقول ياالهى

من شأنك الانعام وقد انعمت بفضلك فانعم على وان لم استحق * وفى عليهم اشارة الى شدة اعباء الرسالة وحمل التكليف وايماء الى انهم كالجبال العالية تتلقى شدائد المطر لافاضة الصحارى * وما اجمل فى الذين انعمت عليهم يفسره اولئك الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اذ القرآن يفسر بعضه بعضا ﴿ان قلت﴾ مسالك الانبياء متفاوتة وعباداتهم مختلفة ﴿قيل لك﴾ ان التبعية فى اصول العقائد والاحكام لانها مستمرة ثابتة دون الفروعات التى من شأنها التغير بتبدل الزمان فكما ان الفصول الاربعة ومراتب عمر الانسان تؤثر فى تفاوت الادوية والتلبس فكم من دواء فى وقت يكون داء فى آخر كذلك مراتب عمر نوع البشر تؤثر فى اختلاف فروعات الاحكام التى هى دواء الارواح وغداء القلوب ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ وجه النظم اعلم ان هذا المقام لكونه مقام الخوف والتخلية يناسب المقامات السابقة فينظر بنظر الحيرة والدهشة الى مقام توصيف الربوبية بالجلال والجمال وبنظر التجاء الى مقام العبودية فى نعبد وبنظر العجز الى مقام التوكل فى نستعين وبنظر التسلى الى رفيقه الدائمى اعنى مقام الرجاء والتحلية اذ اول مايتولد فى قلب من يرى امرا هائلا حس الحيرة ثم ميل الفرار ثم التوكل عند العجز ثم التسلى بعد ذلك الامر ﴿ان قلت﴾ ان الله عزوجل حكيم غنى فما الحكمة فى خلق الشر والقبح والضلالة فى العالم ﴿قيل لك﴾ اعلم ان الكمال والخير والحسن فى الكائنات هى المقصودة بالذات وهى الكليات وان الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة قليلة تبعية مغمورة فى الخلقة خلقها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال لالذاتها بل لتكون مقدمة وواحدا قياسيا لظهور بل لوجود الحقائق النسبية للخير والكمال ﴿ان قلت﴾ فما قيمة الحقائق النسبية حتى استحسن لاجلها الشر الجزئى ﴿ قيل لك ﴾ ان الحقائق النسبية هى الروابط بين الكائنات وهى الخطوط المنسوج منها نظامها وهى الاشعة المنعكس منها وجود واحد لانواعها وان الحقائق النسبية ازيد بالوف من الحقائق الحقيقية اذ الصفات الحقيقية لذات لوكانت سبعة كانت الحقائق النسبية سبعمائة فالشر القليل يغتفر بل يستحسن لاجل الخير الكثير لان فى ترك الخير الكثير لان فيه شرا قليلا شر كثير وفى نظر الحكمة اذا قابل الشر القليل شرا كثيرا صار الشر القليل حسنا بالغير كما تقرر فى الاصول فى الزكاة والجهاد وما اشتهر من ان الاشياء انما تعرف باضدادها معناه ان وجود الضد سبب لظهور ووجود الحقائق النسبية للشئ مثلا لولم يوجد القبح ولم يتخلل بين الحسن لما تظاهر وجود الحسن بمراتبها الغير المتناهية ﴿ ان قلت ﴾ ماوجه تفاوت هذه الكلمات الثلاث فعلا واسم مفعول واسم فاعل فى انعمت والمغضوب والضالين وايضا ماوجه التفاوت فى ذكر صفة الفرقة الثالثة وعاقبة الصفة فى الفرقة الثانية وعنوان صفة الفرقة الاولى باعتبار المال ﴿قيل لك﴾ اختار عنوان النعمة لان النعمة لذة تميل النفس اليها وفعلا ماضيا للاشارة الى ان الكريم المطلق شأنه ان لايسترد مايعطى وايضا رمز الى وسيلة المطلوب باظهار عادة المنعم كأنه يقول لان من شأنك الانعام وقد انعمت

فانعم على * اما غير المغضوب فالمراد منه الذين تجاوزوا القوة الغضبية فظلموا وفسقوا بترك الاحكام كتمرد اليهود ولما كان فى نفس الفسق والظلم لذة منحوسة وعزة خبيثة لا تنفر منه النفس ذكر القرآن عاقبته التى تنفر كل نفس وهى نزول غضبه تعالى واختار الاسم الذى من شأنه الاستمرار اشارة الى ان العصيان والشر انما يكون سُمة اذا لم ينقطع بالتوبة والعفو * اما ولا الضالين فالمراد منه الذين ضلوا عن الطريق بسبب غلبة الوهم والهواء على العقل والوجدان ووقعوا فى النفاق بالاعتقاد الباطل كسفسطة النصارى اختار القرآن نفس صفتهم لان نفس الضلالة «الم» ينفر النفس ويجتنب منه الروح وان لم ير النتيجة * واسما لان الضلالة انما تكون ضلالة اذا لم تنقطع * واعلم ان كل الالم فى الضلالة وكل اللذة فى الايمان * فان شئت تأمل فى حال شخص بينما اخرجته يد القدرة من ظلمات العدم والقته فى الدنيا تلك الصحراء الهائلة اذ يفتح عينه مستعطفا * فيرى البليات والعلل كالاعداء تهاجم عليه * فينظر مسترحما الى العناصر والطبائع فيريها غليظة القلب بلا رحمة قد كشرت عليه الاسنان * فيرفع رأسه مستمدا الى الاجرام العلوية فيريها مهيبة ومدهشة تهدده كأنها مرامى نارية من افواه هائلة تمر حواليه * فيتحير ويخفض رأسه متسترا ويطالع نفسه * فيسمع الوف صيحات حاجاته وانين فاقاته * فيتوحش فينظر الى وجدانه ملتجأ * فيرى فيه الوفا من آمال متهيجة ممتدة لا تشبعها الدنيا * فبالله عليك كيف حال هذا الشخص ان لم يعتقد بالمبدأ والمعاد والصانع والحشر أتظن جهنم اشد عليه من حاله واحرق لروحه فان له حالة تركبت من الخوف والهيبة والعجز والرعشة والقلق والوحشة واليتم واليأس لانه اذا راجع قدرته يريها عاجزة ضعيفة * واذا توجه الى تسكين حاجاته يريها لا تسكت * واذا صاح واستغاث لا يسمع ولا يغاث فيظن كل شئ عدوا ويتخيل كل شئ غريبا فلا يستأنس بشئ ولا ينظر الى دوران الاجرام الا بنظر الخوف والدهشة والتوحش المزعجة للوجدان * ثم تأمل فى حال ذلك الشخص اذا كان على الصراط المستقيم واستضاء وجدانه وروحه بنور الايمان كيف ترى انه اذا وضع قدمه فى الدنيا وفتح عينيه فرأى تهاجم العاديات الخارجية * يرى اذا ـ نقطة استناد ـ يستند اليها فى مقابلة تلك العاديات وهى معرفة الصانع فيستريح * ثم اذا فتش عن استعداداته وآماله الممتدة الى الابد يرى ـ نقطة استمداد ـ يستمدنها آماله وتتشرب منها ماء الحياة وهى معرفة السعادة الابدية * واذا يرفع رأسه وينظر فى الكائنات يستأنس بكل شئ ويجتنى عيناه من كل زهرة انسية وتحبا ويرى فى حركات الاجرام حكمة خالقها ويتنزه بسيرها وينظر نظر العبرة والتفكر كأن الشمس تناديه ايها الاخ لا تتوحش منى فمرحبا بقدومك نحن كلانا خادمان لذات واحد مطيعان لامره والقمر والنجوم والبحر واخواتها يناجيه كل منها بلسانها الخاص وترمز اليه باهلا وسهلا اما تعرفنا كلنا مشغولون بخدمة مالكك فلا تضجر ولا تتوحش ولا تخف من تهديد البلايا بنعراتها فان لجام كل بيد خالقك * فذلك الشخص فى الحالة الاولى يحس فى اعماق وجدانه الما شديدا فيضطر للتخلص منه وتهوينه وابطال حسه بالتسلى

بالتغافل بالاشتغال بسفاسف الامور ليخادع وجدانه وينام روحه والا احس بالم عميق يحرق اعماق وجدانه فبنسبة البعد عن الطريق الحق يتظاهر تأثير ذلك الالم * واما فى الحالة الثانية فهو يحس فى قعر روحه لذة عالية وسعادة عاجلة كلما ايقظ قلبه وحرك وجدانه واحسّ روحه استذاد سعادة واستبشر بفتح ابواب جنات روحانية له اللهم بحرمة هذه السورة اجعلنا من اهل الصراط المستقيم

السورة الاولى من الزهراوين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ان قلت﴾ ان فى القرآن الموجز المعجز اشياء مكررة تكرارا كثيرا فى الظاهر كالبسملة وفبأى آلاء الخ وويل يومئذ الخ وقصة موسى وامثالها مع ان التكرار يمل وينافى البلاغة ﴿قيل لك﴾ « ما كل مايتلألأ يحرق » فان التكرار قد يمل لامطلقا بل قد يستحسن وقد يسأم * فكما ان فى غذاء الانسان ماهو قوت كلما تكرر حلى وكان آنس * وماهو تفكه ان تكرر مل وان تجدد استلذ * كذلك فى الكلام ماهو حقيقة وقوت وقوة للافكار وغذاء للارواح كلما استعيد استحسن واستأنس بمألوفه كضياء الشمس * وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكه لذته فى تجدد صورته وتلون لباسه * اذا عرفت هذا فاعلم انه كما ان القرآن بمجموعه قوت وقوة للقلوب لايمل على التكرار بل يستحلى على الاكثار منه كذلك فى القرآن ماهو روح لذلك القوت كلما تكرر تلألأ وفارت اشعة الحق والحقيقة من اطرافه وفى ذلك البعض ماهو اس الاساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسد سرمدى كبسم الله الرحمن الرحيم فيا هذا شاور مذاقك ان كنت ذا مذاق هذا بناء على تسليم التكرار والا فيجوز ان تكون قصة موسى مثلا مذكورة فى كل مقام لوجه مناسب من الوجوه المشتملة هى عليها فان قصة موسى اجدى من تقاريق العصا اخذها القرآن بيده البيضاء فضة فصاغها ذهبا فخرت سحرة البيان ساجدين لبلاغته وكذا فى البسملة جهات من الاستعانة والتبرك والموضوعية بل الغائية والفهرستية للنقط الاساسية فى القرآن * وايضا فيها مقامات كمقام التوحيد ومقام التنزيه ومقام الثناء ومقام الجلال والجمال ومقام الاحسان وغيرها * وايضا فيها احكام ضمنية كالاشارة الى التوحيد والنبوة والحشر والعدل اعنى المقاصد الاربعة المشهورة مع ان فى اكثر السور يكون المقصود بالذات واحدا منها والباقى استطراديا فلم لايجوز ان يكون لجهة اوحكم اومقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكون موضوعا للمقام بل فهرستة اجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات ﴿الم﴾ * اعلم ان ههنا مباحث اربعة ﴿المبحث الاول﴾ ان الاعجاز قد تنفس من افق الم لان الاعجاز نور تجلى من امتزاج لمعات لطائف البلاغة وفى هذا المبحث لطائف كل منها وان دق لكن الكل فجر صادق * منها ان الم مع سائر اخواتها فى اوائل السور تنصف كل الحروف الهجائية التى هى عناصر كل الكلمات فتأمل * ومنها

ان النصف المأخوذ اكثر استعمالا من المتروك * ومنها ان القرآن كرر من المأخوذ ماهو اسير على الالسنة كالالف واللام * ومنها انه ذكر المقطعات فى رأس تسع وعشرين سورة عدة الحروف الهجائية * ومنها ان النصف المأخوذ ينصف كل ازواج اجناس طبائع الحروف من المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة والمستعلية والمنخفضة والمنفتحة وغيرها * واما الاوتار فمن الثقيل القليل كالقلقلة ومن الخفيف الكثير كالذلاقة * ومنها ان النصف المأخوذ من طبائعها الطف سجية * ومنها ان القرآن اختار طريقا فى المقطعات من بين اربعة وخمسمائة احتمال لايمكن تنصيف طبائع الحروف الابتلك الطريق لان التقسيمات الكثيرة متداخلة ومشتبكة ومتفاوتة ففى تنصيف كل غرابة عجيبة فمن لم يجتن نور الاعجاز من مزج تلك اللمعات فلايلومن الا ذوقه ﴿المبحث الثانى﴾ اعلم ان الم كقرع العصا يوقظ السامع ويهز عطفه بانه بغرابته طليعة غريب وعجيب وفى هذا المبحث ايضا لطائف * منها ان التهجى وتقطيع الحروف فى الاسم اشارة الى جنس ما يتولد منه المسمى * ومنها ان التقطيع اشارة الى ان المسمى واحد اعتبارى لامركب مزجى * ومنها ان التهجى بالتقطيع تلميح الى ارائة مادة الصنعة كالقاء القلم والقرطاس لمن يعارضك فى الكتابة كأن القرآن يقول ايها المعاندون المدعون انكم امراء الكلام هذه المادة التى بين ايديكم هى التى اصنع فيها ما اصنع * ومنها ان التقطيع المرمز الى الاهمال عن المعنى يشير الى قطع حجتهم بانا لانعرف الحقائق والقصص والاحكام حتى نقابلك فكأن القرآن يقول لا اطلب منكم الانظم البلاغة فجيؤابه ولومفتريات * ومنها ان التعبير عن الحروف باسمائها من رسوم اهل القرائة والكتابة ومن يسمعون منه الكلام امى مع محيطه فنظرا الى السجية مع ان اول مايتلقاهم خلاف المنتظر يرمز الى ان هذا الكلام لايتولد منه بل يلقى اليه * ومنها ان التهجى اساس القرائة ومبدأها فيؤمى الى ان القرآن مؤسس لطريق خاص ومعلم لاميين ومن لم ير نقشا عاليا من انتساج هذه الخيوط وان دق البعض فهو دخيل فى صنعة البلاغة فليقلد فتاوى اهلها ﴿المبحث الثالث﴾ ان الم اشارة الى نهاية الايجاز الذى هو ثانى اساسى الاعجاز وفيه لطائف * منها ان الم يرمز ويشير ويؤمى ويلوح ويلمح بالقياس التمثيلى المتسلسل الى ان هذا كلام الله الازلى نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام لانه كما ان الاحكام المفصلة فى مجموع القرآن قد ترتسم فى سورة طويلة اجمالا * وقد تتمثل سورة طويلة فى قصيرة اشارة * وقد تندرج سورة قصيرة فى آية رمزا * وقد تندمج آية فى كلام واحد تلويحا وقد يتداخل كلام فى كلمة تلميحا * وقد تترآآ تلك الكلمة الجامعة فى حروف مقطعة كسين لام ميم كالقرآن فى البقرة والبقرة فى الفاتحة والفاتحة فى بسم الله الرحمن الرحيم وبسم الله الرحمن الرحيم فى البسملة المنحوتة كذلك يجوز ذلك فى الم ايضا فبالاستناد الى هذا القياس التمثيلى المتسلسل وباشارة اشارة ذلك الكتاب يتجلى من «الم» هذا كلام الله الازلى نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام * ومنها ان الحروف المقطعة كالشفرة الالهية ابرقها الى رسوله الذى عنده مفتاحها ولم يتطاول يد فكر البشر اليه بعد * ومنها ان الم اشارة الى شدة ذكاوة

المنزل عليه ومنزا الى ان الرمزله كالتصريح * ومنها ان التقطيع اشارة الى ان قيمة الحروف ليست فى معانيها فقط بل بينها مناسبات فطرية كمناسبة الاعداد كشفها علم اسرار الحروف * ومنها ان الم خاصة اشارة بالتقطيع الى المخارج الثلاثة من الحلق والوسط والشفة وترمز تلك الاشارة الى اجبار الذهن للدقة وشق حجاب الالفة ليلجأ الى مطالعة عجائب الوان نقش خلقة الحروف فيامن صبغ يده بصنعة البلاغة ركب قطعات هذه اللطائف وانظرها واحدة واستمع لتقرأ عليك هذا كلام الله ﴿ المبحث الرابع ﴾ ان الم مع اخواتها لمابرزت بتلك الصورة كانت كأنها تنادى نحن الائمة لانقلد احدا ومااتبعنا اماما واسلوبنا بديع وطرزنا غريب * وفيه لطائف * منها ان من ديدن الخطباء والفصحاء التأسى بمثال * والنسج على منوال والتمشى فى طريق مسلوكة مع انها لم يطمسهن قبله انس ولاجان * ومنها ان القرآن بفواتحه ومقاطعه بقى بعد كما كان قبل لم يماثل ولم يقلد مع تآخذ اسباب التقليد * والتأسى من شوق الاوداء وتحدى الاعداء * ان شئت شاهدا فهذه ملايين من الكتب العربية هل ترى واحدا منها يوازيه اويقع قريبا منه كلا بل الجاهل العامى ايضا اذاقاسها معه وقابله بهانادا ه نظره بان هذاليس فى مرتبتها فاما هو تحت الكل وهومحال بالضرورة واما هوفوق الكل وهوالمطلوب فهونصيبه من درك الاعجاز * ومنها ان من شأن صنعة البشر انها تظهر اول ماتظهر خشنة ناقصة من وجوه يابسة من الطلاوة ثم تتكمل وتحلو مع ان اسلوب القرآن لما ظهر ظهر بطلاوة وطراوة وشبابية وتحدى مع الافكار المعمرين بتلاحق الافكار وسرقة البعض عن البعض وغلبهم فاعلن بالغلبة انه من صنع خالق القوى والقدر فيا من استنشق نسيم البلاغة أفلايجتنى نحل ذهنك عن ازهار تلك المباحث الاربعة شهد اشهد ان هذا كلام الله (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) مقدمة اعلم ان من اساس البلاغة الذى به يبرق حسن الكلام تجاوب الهيآت وتداع القيود وتآخذها على المقصد الاصلى وامداد كل بقدر الطاقة للمقصد الذى هو كمجمع الاودية اوالحوض المتشرب من الجوانب بان تكون مصداقا وتمثالا لما قيل

عباراتنا شتى وحسنك واحد * وكل الى ذاك الجمال يشير

مثلا تأمل فى آية (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) المسوقة للتهويل المستفاد من التقليل بسر انعكاس الضد من الضد أفلاترى التشكيك * فى «ان» كيف يمد التقليل * والمس بدل الاصابة فى مست كيف يشير الى القلة * والتروح فقط * والمرتبة * و التحقير فى جوهر وصيغة وتنوين نفحة كيف تلوح بالقلة * والبعضية فى من كيف تؤمى اليها * وتبديل النكال بالعذاب كيف يرمز اليها * والشفقة المستفادة من الرب كيف تشير اليها وقس فكل يمد المقصد بجهته الخاصة وقس على هذه الآية اخواتها * وبالخاصة (المذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) لان هذه الآية ذكرت لمدح القرآن واثبات الكمال له ولقد تجاوب وتآخذ على هذا المقصد * القسم بالم على وجه * وتوجيه اثباته بلاريب فيه * واشارة ذلك * ومحسوسيته * وبعديته * والالف واللام فى الكتاب * ولاريب فيه فكل كما يمد المقصد ويلقى اليه حصته يرمز ويشف

من تحته عن مايستند اليه من الدليل وان دق * فان شئت تأمل فى القسم بالم اذ انه كما يؤكد كذلك يشعر بالتعظيم الموجه للنظر الموجب لانكشاف ماتحته من اللطائف المذكورة ليبرهن على الدعوى المرموز اليها * وانظر الاشارة فى ذلك المختصة بالرجوع الى الذات مع الصفات لتعلم انها كما تفيد التعظيم لانها اما اشارة الى المشـار اليه بالم اوالمبشر به فى التوراة والانجيل كذلك تلوح بدليلها اذما اعظم ماااقسم به وما اكمل ما بشربه التوراة والانجيل ثم امعن النظر فى الاشارة الحسية الى الامر المعقول لترى انها كما تفيد التعظيم والاهمية كذلك تشير الى ان القرآن كالمغناطيس المنجذب اليه الاذهان والمتزاحم عليه الانظار المجبر لحيال كل على الاشتغال به فتظاهر بدرجة تراه العيون من خلفها اذا راجعت الخيال يرمز بلسان الحال الى وثوقه بصدقه وتبريه عن الضعف والحيلة الداعيين الى التستر * ثم تفكر فى البعدية المستفادة من ذلك اذ انها كما تفيد علوالرتبة المفيد لكماله كذلك تومى الى دليله بانه بعيد عن ماسلك عليه امثاله * فاما تحت كل وهو باطل بالاتفاق فهو فوق الكل * ثم تدبر فى «ال» الكتاب لانها كما تفيد الحصر العرفى المفيد للكمال تفتح باب الموازنة وتلمح بها الى ان القرآن كجامع محاسن الكتب قد زاد عليها فهو اكملها * ثم قف على التعبير بالكتـاب كيف يلوح بان الكتاب لايكون من مصنوع الامى الذى ليس من اهل القرائة والكتابة * اما لاريب فيه ففيه وجهان ارجاع الضمير الى الحكم اوالى الكتاب فعلى الاول كما عليه المفتاح يكون بمعنى يقينا و بلاشك فيكون جهة وتحقيقا لاثبات كماله وعلى الثانى كما عليه الكشاف يكون تأكيداً لثبوت كماله وعلى الكل يناجى من تحت لاريب بـ (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) ويرمز الى دليله الخاص * والاستغراق فى «لا» بسبب اعدام الريوب الموجودة ينشد

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

ويشير الى ان المحل ليس بقابل لتولد الشكوك اذا قام على الثغور امارات تنادى من الجوانب وتطرد الريوب المتهاجمة عليه * وفى ظرفية «فيه» والتعبير بفى بدل اخواتها اشارة الى انفاذ النظر فى الباطن والى ان حقائقه تطرد وتطير الاوهام المتوضعة على سطحه بالنظر الظاهر فيامن آنس قيمة التركيب من جانب التحليل وادرك فرق الكل عن كل انظر نظرة واحدة الى تلك القيود والهيآت لترى كيف يلق كل حصته الى المقصد المشترك مع دليله الخاص وكيف يفور نور البلاغة من الجواب * اعلم انه لم يربط بين جمل (الم . ذلك الكتاب . لاريب فيه . هدى للمتقين) بحلقات العطف لشدة الاتصال والتعانق بينها واخذ كل بحجز سابقتها وذيل لاحقتها فان كل واحدة كما انها دليل لكل بجهة كذلك نتيجة لكل واحدة بجهة اخرى ولقد انتقش الاعجاز على هذه الآية بنسج اثنى عشر من خطوط المناسبات المتشابكة المتداخلة * ان شئت التفصيل تأمل فى (هذا الم) فانها تؤمى بالمآل الى «هذا متحدى به » ومن يبرز الى الميدان ثم تلوح بانه معجز * وتفكر فى (ذلك الكتاب) فانها

تصرح بانه اذداد على اخواته * وطم عليها ثم تلح بانه مستثنى ممتاز لايماثل * ثم تدبر فى (لاريب فيه) فانها كماتفصح عن انه ليس محلاللشك تعلن بانه منور بنور اليقين * ثم انظر فى (هدى للمتقين) اذانها كماتهدى اليك انه يرى الطريق المستقيم تفيدك انه قدتجسم من نور الهداية فكل منها باعتبار المعنى الاول برهان لرفقائها وباعتبار المعنى الثانى نتيجة لكل منها * ونذكر على وجه المثال ثلاثا من الروابطالثنتى عشرلتقيس عليها البواقى * فـ«الم» اى هذا يتحدى كل معارض* فهوا كمل الكتب * فهويقينى* اذ كمال الكتاب باليقين* فهو مجسم الهداية للبشر * ثم (هدىللمتقين) اى يرشد الى الطريقالمستقيم* فهويقينى* فهو ممتاز* فهومعجز* ثم (ذلكالكتاب اى هواذداد على امثاله فهومعجز * او اى هوممتاز ومستثنى* اذ لاشك فيه* اذ انه يرى السبيلالسوى للمتقين وعليك باستنباط البواقى اما (هدى للمتقين) فاعلم ان منبع حسن هذاالكلام من اربع نقط * الاولى حذف المبتدأ اذ فيه اشارة الى ان حكم الاتحاد مسلم كأن ذات المبتدأ فىنفس الخبر حتى كأنه لاتغاير بينهما فىالذهن ايضا * والثانية تبديل اسم الفاعل بالمصدر اذ فيه رمز الى ان نور الهداية تجسم فصار نفس جوهر القرآن كماتجسم لون الحمرة فيصير قرمزاً * والثالثة تنكير هدى اذ فيه ايماء الى نهاية دقة هداية القرآن حتى لايكتنه كنهها والى غاية وسعتها حتى لايحاط بها علماً اذالمنكورية اما بالدقة والخفاء واما بالوسعة الفائتة عن الاحاطة ومن هنا قديكون التنكير للتحقير وقديكون للتعظيم * والرابعة الايجاز فى للمتقين بدل للناس الذين يصيرون متقين به اوجز بالمجاز الاول * اشـارة الى ثمرة الهداية وتأثيرهـا * ورمزاً الى البرهان الانى على وجود الهداية فان السامع فىعصر يستدل بسابقه كمايستدل به لاحقه ﴿ان قلت﴾ كيف تتولد البلاغة الخارجة عن طوقالبشر بسبب هذهالنقط القليلة المعدودة ﴿قيل لك﴾ ان فىالتعاون والاجتماع سراً عجيبا لانه اذا اجتمع حسن ثلاثة اشياء صـاركخمسة وخمسة كعشرة وعشرة كاربعين بسر الانعكاس اذ فىكل شئ نوع من الانعكاس ودرجة منالتمثيل كما اذا جمعت بين مرآتين تترآءى فيهما مرايا كثيرة او نورتهما بالمصبـاح يزداد ضياء كل بانعكاس الاشعة فكذلك اجتماع النكت والنقط * ومن هذاالسر والحكمة ترىكل صاحب كمال وصاحب جمال يرى فىنفسه ميلا فطريا الى ان ينضم الى مثله ويأخذ بيدنظيره ليزداد حسنا الى حسنه حتى ان الحجر مع حجيرته اذا خرج من يدالمعقد البانى فىالسقف المحدب يميل ويخضع رأسه ليماس رأس اخيه ليتماسكا عنالسقوط فالانسان الذى لايدرك سرالتعاون لهو اجمدمنالحجر اذمنالحجرمن يتقوس لمعاونة اخيه ﴿ان قلت﴾ من شأنالهداية والبلاغةالبيان والوضوح وحفظ الاذهان عن التشتت فما بال المفسرين فىامثال هذهالآية اختلفوا اختلافا مشتتا واظهروا احتمالات مختلفة وبينوا وجوه تراكيب متباينة وكيف يعرف الحق من بينها ﴿قيل لك﴾ قديكون الكل حقا بالنسبة الى سامع فسـامع اذالقرآن مانزل لاهل عصر فقط بل لاهل جميع الاعصـار ولالطبقة فقط بل لجميع طبقات الانسان ولالصنف فقط

بل لجميع اضاف البشر ولكل فيه حصة ونصيب من الفهم * والحال ان فهم نوع البشر يختلف درجة درجة وذوقه يتفاوت جهة جهة وميله يتشتت جانبا جانبا واستحسانه يتفرق وجها وجها ولذته تتنوع نوعا نوعا وطبيعته تتباين قسما قسما فكم من اشياء يستحسنها نظر طائفة دون طائفة وتستلذها طبقة ولايتنزل اليها طبقة وقس * فلاجل هذاالسر والحكمة اكثر القرآن من حذف الخاص للتعميم ليقدر كل مقتضى ذوقه واستحسانه ولقد نظم القرآن جمله ووضعها فى مكان ينفتح من جهاته وجوه محتملة لمراعات الافهام المختلفة ليأخذ كل فهم حصته وقس * فاذاً يجوز ان يكون الوجوه بتمامها مرادة بشرط ان لاتردها العلوم العربية وبشرط ان تستحسنها البلاغة وبشرط ان يقبلها علم اصول مقاصد الشريعة * فظهر من هذه النكتة ان من وجوه اعجاز القرآن نظمه وسبكه فى اسلوب ينطبق على افهام عصر فعصر وطبقة فطبقة ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ اعلم ان وجه نضم المحصل مع المحصل انصباب مدح القرآن الى مدح المؤمنين وانسجامه به اذ انه نتيجة له * وبرهان انى عليه * وثمرة هدايته * وشاهد عليه * وبسبب تضمن التشويق اشارة الى جهة حصة هذه الآية من الهداية * والى انها مثال لها * اما وجه الذين مع المتقين فتشييع التخلية بالتحلية التى هى رفيقتها ابدا اذ التزيين بعد التنزيه ألاترى ان التقوى هى التخلى عن السيآت وقد ذكرها القرآن بمراتبها الثلاث وهى ترك الشرك ثم ترك المعاصى ثم ترك ماسوى الله والتحلية فعل الحسنات اما بالقلب اوالقالب اوالمال « فشمس الاعمال القلبية الايمان » والفهرستة الجامعة للاعمال القالبية « الصلاة التى هى عماد الدين » وقطب الاعمال المالية الذكاة اذ هى قنطرة الاسلام * اعلم (ان الذين يؤمنون بالغيب) مع انه اذا نظرت الى مقتضى الحال ايجاز الا انه اذا اوازنت بينه وبين مرادفه وهو المؤمنون تظنه اطنابا فابدل «ال» بالذين الذى من شأنه الاشارة الى الذات بالصلة فقط كأنه لا صفة له الا هى للتشويق على الايمان * والتعظيم له * والرمز الى ان الايمان هو المنار على الذات قد تضائلت تحته سائر الصفات وابدل مؤمنون بيؤمنون لتصوير واظهار تلك الحالة المستحسنة فى نظر الخيال * وللاشارة الى تجدده بالاستمرار وتجليه بترادف الدلائل الآفاقية والانفسية فكلما اذدادت ظهوراً اذدادوا ايمانا (بالغيب) اى بالقلب اى بالاخلاص بلانفاق * ومع الغائبية * وبالغائب * وبعالم الغيب * واعلم ان الايمان هو النور الحاصل بالتصديق بجميع ماجاء به النبى عليه السلام تفصيلا فى ضروريات الدين واجمالا فى غيرها ﴿ ان قلت ﴾ لايقتدر على التعبير عن حقائق الايمان من العوام من المائة الا واحد ﴿ قيل لك ﴾ ان عدم التعبير ليس علما على عدم الوجود فكما ان اللسان كثيراً مايتقاصر عن ان يترجم عن دقائق ما فى تصورات العقل كذلك قد لايتراأى بل يتغامض عن العقل سرائر ما فى الوجدان فكيف يترجم عن كل مافيه ألاترى ذكاء السكاكى ذلك الامام الداهى قد تقاصر عن اجتناء دقائق ما ابرزه سجية امرئ القيس اوبدوى آخر فبناء على ذلك * الاستدلال على وجود الايمان فى العامى يثبت بالاستفسار والاستيضاح منه بان تستفسر من

العامى بالسؤال المردد بين النفى والاثبات هكذا ايها العامى أيمكن فى عقلك ان يكون الصانع الذى كان العالم بجهاته الست فى قبضة تصرفه ان يتمكن فى جهة من جهاته اولا فان قال لا فنفى الجهة ثابت فى وجدانه وذلك كاف وقس على هذا ثم ان الايمان كما فسره السعد نور يقذفه الله تعالى فى قلب من يشاء من عباده اى بعد صرف الجزء الاختيارى فالايمان نور لوجدان البشر وشعاع من شمس الازل يضئ دفعة ملكوتية الوجدان بتمامها فينشر انسبة له مع كل الكائنات ويؤسس مناسبة بين الوجدان وبين كل شئ ويلقى فى القلب قوةً معنوية يقتدر بها الانسان ان يصارع مع جميع الحوادث والمصيبات ويعطيه وسعةً يقتدر بها ان يبتلع الماضى والمستقبل وكما ان الايمان شعاع من شمس الازل كذلك لمعة من السعادة الابدية اى الحشر فينمو بضياء تلك اللمعة بذور كل الامال ونوات كل الاستعدادات المودعة فى الوجدان فتنبت ممتدة الى الابد فتنقلب نواة الاستعداد كشجرة طوبى ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ اعلم ان وجه النظم اظهر من الشمس فى رابعة النهار وان فى تخصيص الصلاة من بين حسنات القالب اشارة الى انها فهرستة كل الحسنات وانموزجها ومعكسها كالفاتحة للقرآن * والانسان للعالم * لاشتمالها على نوع صوم وحج وزكاة وغيرها * ولاشتمالها على انواع عبادات المخلوقات الفطرية والاختيارية من الملائكة الراكعين الساجدين القائمين * ومن الحجر الساجد والشجر القائم والحيوان الراكع * ثم انه اقام يقيمون مقام المقيمين لاحضار تلك الحركة الحياتية الواسعة والانتباه الروحانى الالهى فى العالم الاسلامى الى نظر السامع * ووضع تلك الوضعية المستحسنة والحالة المنتظمة من نواحى نوع البشر نصب عين الخيال ليهيج ويوقظ ميلان السامع للتأسى اذ من تأمل فى تأثير النداء بالآلة المعروفة فى نفرات العسكر المنتشرين المغمورين بين الناس وتحريك النداء لهم دفعة والقاء انتباه فيهم * وافراغهم فى وضع مستحسن * وجمعهم تحت نظام مستملح * يرى فى نفسه اشتياقا لان ينساب اليهم فهكذا الاذان المحمدى بين الانسان فى صحراء العالم ولله المثل الاعلى وانما لم يقتصر فى مسافة الايجاز على يصلون بل اتمها بيقيمون الصلاة للاشارة الى اهمية مراعات معانى الاقامة فى الصلاة من تعديل الاركان * والمداومة * والمحافظة * والجد * وترويجها فى سوق العالم تأمل * ثم ان الصلاة نسبة عالية * ومناسبة غالية * وخدمة نزيهة بين العبد وسلطان الازل فمن شأن تلك النسبة ان يعشقها كل روح * واركانها متضمنة للاسرار التى شرحها امثال الفتوحات المكية فمن شأن تلك الاسرار ان يحبها كل وجدان * وانها دعوة صانع الازل الى سرادق حضوره خمس دعوات فى اليوم والليلة لمناجاته التى هى فى حكم المعراج فمن شأنها ان يشتاقها كل قلب * وفيها ادامة تصور عظمة الصانع فى القلوب وتوجيه العقول اليها لتأسيس اطاعة قانون العدالة الآلهية وامتثال النظام الربانى والانسان يحتاج الى تلك الادامة من حيث هو انسان لانه مدنى بالطبع * فياويل من تركها وياخسارة من تكاسل فيها ويا جهالة من لم يعرف قيمتها فسحقا وبعداً واقا وتفا لنفس من لم يستحسنها ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وجه النظم انه كما ان الصلاة عماد الدين وبها قوامه كذلك الزكاة

قطرة الاسلام وبها التعاون بين اهله ثم ان من شروط ان تقع الصدقة موقعها اللائق * ان لايسرف المتصدق فيقعد ملوما * وان لايأخذ من هذا ويعطى لذاك بل من مال نفسه * وان لايمن فيستكثر * وان لايخاف من الفقر * وان لايقتصر على المال بل بالعلم والفكر والفعل ايضاً * وان لايصرف الآخذ فى السفاهة بل فى النفقة والحاجة الضرورية * فلاحسان هذه النكت واحساس هذه الشروط تصدق القرآن على الافهام بأيثار (ومما رزقناهم ينفقون) على يتصدقون اويزكون وغيرهما اذاشار * بمن التبعيض الى ردالاسراف * وبتقديم مما الى كونه من مال نفسه * وبرزقنا الى قطع المنة اى ان الله هو المعطى وانت واسطة * وبالاسناد الى نا الى لاتخف من ذى العرش اقلالا * وبالاطلاق الى تعميم التصدق للعلم والفكر وغيرهما * وبمادة ينفقون الى شرط صرف الآخذ فى النفقة والحاجات الضرورية * ثم ان فى الحديث الصحيح (الزكاة قنطرة الاسلام) اى الزكاة جسر يغيث المسلم اخاه المسلم بالعبور عليها * اذهى الواسطة للتعاون المأمور به * بل هى الصراط فى نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر * وهى الرابطة لجريان مادة الحياة بينهم * بل هى الترياق للسموم الواقعة فى ترقيات البشر نعم « فى وجوب الزكاة » و « حرمة الربا » * حكمة عظيمة * ومصلحة عالية * ورحمة واسعة اذلوامعنت النظر فى صحيفة العالم نظراً تاريخيا وتأملت فى مساوى جمعية البشر لرئيت اس اساس جميع اختلالاتها وفسادها ومنبع كل الاخلاق الرزيلة فى الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط * احديهما « ان شبعت فلا على ان يموت غيرى من الجوع » والثانية « اكتسب انت لآكل انا واتعب انت لاستريح انا » فالكلمة الاولى الغدارة النهمة الشنعاء هى التى زلزلت العالم الانسانى فاشرف على الخراب والقاطع لعرق تلك الكلمة ليس الا « الزكاة » والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هى التى هارت بترقيات البشر فاوشك ان تهاربها فى نار الهرج والمرج والمستأصل والدواء لتلك الكلمة ليس الا « حرمة الربا » فتأمل * اعلم ان شرط انتظام الهيئة الاجتماعية ان لاتجافا طبقات الانسان وان لاتتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام والاغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم مع ان باهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا انفرجت المسافة بين الطبقات وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة * لاصلة بينهما * ولايفور من الطبقة السفلى الى العليا * الاصداء الاختلال * وصياح الحسد * وانين الحقد والنفرة بدلا عن * الاحترام * والاطاعة * والتحب ولايفيض من العليا على السفلى * بدل المرحمة * والاحسان * والتلطيف الانار * الظلم * والتحكم * ورعد التحقير فأسفاً لاجل هذا قدصارت « مزية الخواص » التى هى سبب التواضع والترحم سببا للتكبر والغرور وصار « عجز الفقراء » وفقر العوام اللذين هما سببا المرحمة عليهم والاحسان اليهم سببا لاسارتهم وسفالتهم * وان شئت شاهداً فعليك بفساد ورزالة حالة العالم المدنى فلك فيه شواهد كثيرة ولاملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها الاجعل

الزكاة التى هى ركن من اركان الاسلامية دستورا عاليا واسعا فى تدوير الهيئة الاجتماعية
﴿ والذين يؤمنون بما انزل اليك وماانزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ اعلم انالقرآن
ارسل النظم اى لم يعين بوضع امارة وجها من وجوه التراكيب فى كثير من امثال هذه
الآية لسر لطيف هومنشأ الايجاز الذى هومنشأ الاعجاز وهو ان البلاغة هى مطابقة
مقتضى الحال والحال ان المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة وفى اعصار مختلفة فلمراعات
هذه الطبقات ولمجاورة هذه الاعصار ليستفيد مخاطب كل نوع ماقدرله من حصته * حذف
القرآن فى كثير للتعميم والتوزيع * واطلق فى كثير للتشميل والتقسيم * وارسل النظم
فى كثير لتكثير الوجوه وتضمين الاحتمالات المستحسنة فى نظر البلاغة والمقبولة عندالعلم
العربى ليفيض على كل ذهن بمقدار ذوقه فتأمل ثم ان وجه نظم هذه الآية بسابقتها *
التخصيص بعدالتعميم ليعلن على رؤس الاشهاد شرف من آمن من اهل الكتاب * وليرد
يداستغناء اهله فى افواههم * وليأخذ يد امثال عبدالله بن سلام * ويشوق غيره لان يأتم
به وايضاً * التنصيص على قسمى المتقين * للتصريح بشمول هداية القرآن لكافة الامم *
والتلويح لعموم رسالة محمد عليه‌السلام لقاطبة الملل وايضاً * التفصيل بعد الاجمال لشرح
اركان الايمان المندمجة فى صدف يؤمنون بالغيب اذدل على الكتب والقيامة صراحة وعلى
الرسل والملائكة ضمنا * ثم انالقرآن لم يوجز هنا نحو (والمؤمنين بالقرآن) لترصيع هذا
المعنى بلطائف وتزيين ذيوله بنكت فأثر والذين يؤمنون بماانزل اليك * اذ فى الذين رمز
الى ان وصف الايمان هو مناط الحكم وان الذات مع سائر الصفات تابعةله ومغمورة تحته
* وفى يؤمنون بدل المؤمن الدال على الثبوت فى زمان ما تلويح الى تجدد الايمان بتواتر
النزول وتكرر الظهور مستمراً * وفى ما الابهام * ايماء الى ان الايمان مجملا قديكفى والى
تشميل الايمان للوحى الظاهر والباطن وهو الحديث * وفى انزل * باعتبار مادته اشارة
الى ان الايمان بالقرآن هو الايمان بنزوله من عندالله كما انالايمان بالله هوالايمان بوجوده
وباليوم الآخر هوالايمان بمجيئه وبالنظر الى صيغته الماضوية مع انه لم يتم النزول اذ ذاك
اشارة الى تحققه المنزل بمنزلة الواقع مع ان مضارعية يؤمنون تلافى ما فى ماضويته بل لاجل
هذا التنزيل ترى فى اساليب التنزيل كثيرا ما * يبتلع الزمان الماضى المستقبل * ويتزيا
المضارع بزى الماضى اذفيه بلاغة لطيفة لان من سمع الماضى فيما لم يمض بالنسبة اليه * اهتز
ذهنه * وتيقظ انه ليس وحده * وتذكر ان خلفه غيره من الصفوف بمسافات حتى كأن
الاعصار مدارج والاجيال صفوف قاعدون خلفها * وتنبه ان الخطاب والنداء الموجه
اليه بدرجة من الشدة والعلو يسمعه كل الاجيال وهو خطبة الهية انصت لها كل الصفوف
فى كل الاعصار فالماضى حقيقة فى الكثير فى اكثر الازمان ومجاز فى القليل فى اقلها ومراعات
الاكثر اوفى لحق البلاغة * وفى اليك بدل عليك * رمز الى ان الرسالة وظيفة كلف بها
النبى عليه‌السلام وتحملها بجزئه الاختيارى * وايماء الى علوه بخدمة جبرائيل بالتقديم اليه

* اذفى (على) شم اضطرار وعلو واسطة النزول * وفى خطاب اليك بدل الى نحو محمد تلويح الى ان محمدا عليه السلام ماهو الامخاطب والكلام كلام الله * وايضاً معنى الخطاب تأكيد وتصوير لمعنى النزول الذى هو الوحى الذى هو القرآن الذى هو خطاب الله معه الذى هو الخاصة النافذة فى الكل فكشف هذا الجزء الحجاب عن حصته من تلك الخاصة * فظهران هذا الكلام بالنظر الى اشتماله على هذه اللطائف المذكورة فى نهاية الايجاز (وما انزل من قبلك) اعلم ان امثال هذه التوصيفات تتضمن تشويقا يتضمن احكاما انشائية كآمنوا كذا وكذا ولاتفرقوا ثم ان فى هذا النظم والربط اربع لطائف * احدىها عطف المدلول على الدليل اى يا ايها الناس اذا آمنتم بالقرآن فآمنوا بالكتب السابقة ايضاً اذ القرآن مصدق لها وشاهد عليها بدليل مصدقا لمابين يديه * والثانية عطف الدليل على المدلول اى يا اهل الكتاب اذا آمنتم بالانبياء السابقين والكتب السالفة لزم عليكم ان تؤمنوا بالقرآن وبمحمد عليه السلام لانهم قدبشروابه ولان مدار صدقهم ونزولها ومناط نبوتهم يوجد بحقيقته وبروحه فى القرآن بوجه اكمل وفى محمد عليه السلام بالوجه الاظهر فيكون القرآن كلام الله بالقياس الاولوى و محمد عليه الصلاة والسلام رسوله بالطريق الاولى * والثالثة ان فيه اشارةً الى ان مآل القرآن اعنى الاسلامية الناشئة فى زمان السعادة كشجرة اصلها ثابت فى اعماق الماضى منتشرة العروق متشربة عن منابع حياتها وقوتها وفرعها فى سماء الاستقبال ناشرة اغصانها مثمرة اى اخذت الاسلامية بقرنى الماضى والاستقبال * والرابعة ان فيه اشارةً الى * تشويق اهل الكتاب على الايمان * وتأنيسهم * والتسهيل عليهم كأنه يقول لايشقن عليكم الدخول فى هذا السلك اذ لاتخرجون عن قشركم بالمرة بل انما تكملون معتقداتكم وتبنون على ماهو مؤسس لديكم اذ القرآن « معدل ومكمل » فى الاصول والعقائد وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة واصول الشرائع السالفة الا انه « مؤسس » فى التفرعات التى تحول بتأثير تغير الزمان والمكان فكما تحول الادوية والالبسة فى الفصول الاربعة وطرز التربية والتعليم فى طبقات عمر الشخص كذلك تقتضى الحكمة والمصلحة تبدل الاحكام الفرعية فى مراتب عمر نوع البشر فكم من حكم فرعى كان مصلحةً فى زمان ودواء فى وقت طفولية النوع لايبقى مصلحة فى آخر ودواء عند شابية النوع ولهذا السر نسخ القرآن بعض الفروع اى بين انقضاء اوقات تلك الفروع ودخول وقت اخرى * وفى من قبلك لطائف * اعلم انه ما من كلة فى التنزيل يأبى عنها مكانها اولم يرض بها اوكان غيرها اولى به بل مامن كلة من التنزيل الاوهى كدر مرصع مرصوص متماسك بروابط المناسبات * فان شئت مثالا تأمل فى (من قبلك) كيف ترى اللطائف المتطايرة من جوانب هذه الآية توضعت على هذه الكلمة الفذة * فان من قبلك تشربت وتلونت فترشح وترمز بخمس لطائف المناسبات المنعكسة من المقاصد الخمسة المندمجة فى مسئلة النبوة المسوقة لها هذه الآية * اما المقاصد المندمجة فهى * ان محمداً عليه السلام نبى * وانه اكمل الانبياء * وانه خاتم

الانبياء * وانه مرسل لكافة الاقوام * وان شريعته ناسخة لجميع الشرائع * وجامعة لمحاسنها * اما وجه انعكاس المقصد الاول فى تلك الكلمة فهو ان (من قبلك) انما يقال اذا اتحد المسلك وكان الطريق واحداً فكأن هذه الكلمة تترشح بان الحجج على نبوة من قبله و صدق كتبهم حجة بمجموعها بتنقيح المناط و تحقيق المناط بالقياس الاولى على نبوة محمد عليه السلام ونزول كتابه فكأن جميع معجزاتهم معجزة فذة على صدق محمد عليه السلام * واما وجه انعكاس المقصد الثانى و هو « الاكملية » فيها فهو ان (من قبلك) بناءً على ملاحظة عادة ان السلطان يخرج فى اخريات الناس * وعلى قاعدة التكمل فى نوع البشر المقتضية لاكملية المربى الثانى عن المربى الاول * وعلى اغلبية مهارة وزيادة الخلف على السلف تلوح بان محمد عليه السلام سلطان الانبياء اكمل من كلهم كما ان القرآن اجمع واجمل من كتبهم * واما وجه تشربها من المقصد الثالث وهو « الخاتمية » فهو ان (من قبلك) بسر قاعدة ان الواحد اذا تكثر تسلسل لايسكن وان الكثير اذا اتحد استقر لاينقطع * وباشمام المفهوم المخالف تلمح بانه عليه السلام خاتم الانبياء * واما وجه انصباغها من المقصد الرابع وهو « عموم الدعوة » فهو ان من قبلك المفيدة انك خلفهم وكل منهم سلفك بسر قاعدة ان الخلف يأخذ تمام وظيفة السلف و يقوم مقامه تشير بانه اذا كان كل منهم سلفك فانت نائب الكل ورسول جميع الامم نعم لايكون الا كذلك اذ الفطرة حاكمة له والحكمة قاضية به لانه كانت امم العالم الانسانى قبل زمان السعادة فى غاية التباعد والاختلاف مادةً ومعنىً و استعدادا و تربيةً ماكفت لهم التربية الواحدة وماشملت الدعوة المنفردة * ثم لما انتبه العالم الانسانى بزمان السعادة بعده وتمايل الى الاتحاد * بمداولة الافكار * ومبادلة الطبائع * واختلاط الاقوام * وتحرى البعض عن حال البعض حتى تمخض الزمان بكثرة طرق المخابرة و المناقلة فصارت الكرة كمملكة وهى كولاية وهى كبلدة واتصل الرحم بين اهل الدنيا كفت الدعوة الواحدة و النبوة الفريدة للكافة * واما وجه اشمامها بالمقصد الخامس فهوان (من قبلك) المؤمية من «من» الى «الى» ومن «الى» الى الاغناء اى انتهت الرسالة بقدومك اذ اغنت شريعتك ترمز بان شريعته عليه السلام ناسخة بالانتهاء وجامعة بالاغناء * واعلم ان الامارة لنظر البلاغة على تشرب هذه الكلمة لهولا اللطائف هى ان هذه المقاصد الخمسة كالانهار الجارية تحت هذه الآيات حتى يفور هذا بكماله فى آية وينبع ذاك بتمامه فى اخرى وتجلى ذلك بشراشيره فى آخرة * فادنى ترشح على السطح يومى بتماس عروق الكلمة بها * وايضا تسنبل هذه المعانى فى آيات مسوقة لها (وبالآخرة هم يوقنون) اعلم ان مآل هذه الآية هو المقصد الرابع من المقاصد الاربعة المشهورة وهو « مسئلة الحشر » ثم انا قد استفدنا من نظم القرآن عشرة براهين عليها ذكرناها فى كتاب آخر فناسب تلخيصها هنا وهى ان الحشر حق * لان فى الكائنات نظاما اكمل قصديا * وان فى الخلقة حكمة تامة * وان لاعبثية فى العالم * وان لااسراف فى الفطرة والمزكى لهولاء الشواهد الاستقراء التام بجميع

الفنون التى كل منها شاهد صدق على نظام نوع موضوعه ❋ وايضا ان فى كثير من الانواع مثل اليوم والسنة وغيرهما قيامة مكررة نوعية ❋ وايضا جوهر استعداد البشر برمز الى الحشر ❋ وايضا عدم تناهى آمال البشر وميوله يشير اليه ❋ وايضا رحمة الصانع الحكيم تلوح به ❋ وايضا لسان الرسول الصادق عليه السلام يصرح به ❋ وايضا بيان القرآن المعجز فى امثال (وقد خلقكم اطواراً) (وماربك بظلام للعبيد) يشهد له تلك عشرة كاملة مفاتيح للسعادة الابدية وابواب لتلك الجنة ❋ اما بيان البرهان الاول فهوانه لولم تجر الكائنات الى السعادة الابدية لصار ذلك النظام الذى اتقن فيه صانعه اتقانا حير فيه العقول صورة ضعيفة خادعة وجميع المعنويات والروابط والنسب فى النظام هباءً منثورا فليس نظام ذلك النظام الا اتصاله بالسعادة اى ان النكت والمعنويات فى ذلك النظام انما تسنبل فى عالم الآخرة والا ❋ لانطفى جميع المعنويات ❋ وتنقطع مجموع الروابط ❋ وتمزق كل النسب ❋ ويتفتت هذا لنظام مع ان القوة المندمجة فى النظام تنادى باعلى صوتها ان ليس من شأنها الانقضاض والانحلال ❋ واما البرهان الثانى فهو ان تمثال العناية الازلية الذى هو الحكمة التامة التى هى رعاية المصالح والحكم فى كل نوع بل فى كل جزئى بشهادة كل الفنون يبشر بقدوم السعادة الابدية والالزم انكار هذه الحكم والفوائد التى اجبرتنا البداهة على الاقرار بها اذ حينئذ تكون الفائدة لافائدة والحكمة غير حكمة والمصلحة عدم مصلحة وان هذا الاسفسطة ❋ واما البرهان الثالث المفسر للثانى فهو ان الفن يشهد ايضا ان الصانع اختار فى كل شئ الطريق الاقصر والجهة الاقرب والصورة الاخف والاحسن فيدل على ان لا عبثية فيدل على انه جدى حقيقى وما هو الا بمجئ السعادة الابدية والا لتنزل هذا الوجود منزلة العدم الصرف وتحول كل شى عبثا محضا سبحانك ماخلقت هذا عبثا ❋ اما البرهان الرابع الموضح للثالث فهو ان لا اسراف فى الفطرة بشهادة الفنون فان تقاصر ذهنك عن ادراك حكم الانسان الأكبر وهو «العالم» فامعن النظر فى العالم الاصغر وهو «الانسان» فان فن منافع الاعضاء قد شرح واثبت ان فى جسد الانسان تقريبا ستمائة عظم كل لمنفعة وستة آلاف عصب هى مجارى للدم كل لفائدة ومائة واربعة وعشرين آلاف مسامة وكوة للحجيرات التى تعمل فى كل منها خمس قوى من الجاذبة والدافعة والممسكة والمصورة والمولدة كل منها لمصلحة ❋ واذا كان العالم الاصغر كذا فكيف يكون الانسان الاكبر انقص منه واذا كان الجسد الذى لا اهمية له بالنسبة الى لبه بتلك الدرجة من عدم الاسراف فكيف يتصور اهمال جوهر الروح واسراف كل آثاره من المعنويات والآمال والافكار اذ لولا السعادة الابدية لتقلصت كل المعنويات وصارت اسرافا ❋ فبالله عليك أيمكن فى العقل ان يكون لك جوهرة قيمتها الدنيا فتهتم بصدفها وغلافها حتى لاتخلى ان يصل الغبار اليه ثم تأخذ الجوهرة فتكسرها شذراً مذراً وتمحو آثارها كلا ثم كلا ماتهتم بالغلاف الالاجل مافيه وايضا اذا افهمتك ❋ قوة البنية فى شخص وصحة اعضائه واستعداده استمرار بقائه وتكمله أفلا تفهمك الحقيقة الثابتة الجارية فى روح الكائنات والقوة الكاملة المؤمية بالاستمرار فى الانتظام ❋ والكمال المنجر الى التكمل فى النظام مجئ السعادة الابدية من باب

الحشر الجسمانى اذهى * المخلصة للانتظام عن الاختلال * والواسطة للتكمل وانكشاف تلك القوة المؤبدة * واما البرهان الخامس الحدس المرمز الى المقصد فهو ان وجود نوع قيامات مكررة نوعية فى كثير من الانواع يشير الى القيامة العظمى * وان شئت تمثل الرمز فى مثال فانظر فى ساعتك الاسبوعية فكما ان فيها دواليب مختلفة دوارة متحركة محركة للابر والاميال العادة واحدة منهـا للثوانى وهى مقدمة ومخبرة لحركة ابرة الدقائق وهى معدة ومعلنة لحركة ميل الساعات وهى محصلة ومؤذنة لحركة الابرة التى تعد ايام الاسبع فاتمام دورة السابقة يشير بان اختها اللاحقة تتم دورها * كذلك ان الله تعالى ساعة كبرى دواليبها الافلاك تعد اميالها الايام والسنين وعمر البشر وبقاء الدنيا نظير الثوانى والدقائق والساعات والايام فى ساعتك فمجئ الصبح بعد كل ليلة والربيع بعد كل شتاء بناء على حركة تلك الساعة يشير اشارة خفية ويرمز رمزاً دقيقا بتولد صبح ربيع الحشر من تلك الساعة الكبرى ﴿ان قلت﴾ القيامة النوعية لاتحشر الاشخاص باعيانهم فكيف ترمز بالقيامة الكبرى لعود الاشخاص هناك باعيانهم ﴿قيل لك﴾ ان شخص الانسان كنوع غيره اذ نور الفكر اعطى لآمال البشر وروحه وسعة وانبساطا بدرجة وسعت الازمنة الثلاثة لو ابتلع الماضى والمستقبل مع الحال لم يمتلئ آماله لان نور الفكر صير * ماهيته علوية * وقيمته عمومية * ونظره كليا * وكماله غير محصور * ولذته دائمية * وأَلمه مستمراً * اما فرد النوع الآخر فماهيته جزئية * وقيمته شخصية * ونظره محدود * وكماله محصور * ولذته آنية * والمه دفعى * فوجود نوع قيامة فى الانواع كيف لايشير بالقيامة الشخصية العمومية للانسان * واما البرهان السادس الملوح فهو عدم تناهى استعدادات البشر نعم ان تصورات البشر وافكاره التى لاتتناهى * المتولدة من آماله الغير المتناهية * الحاصلة من ميوله الغير المضبوطة * الناشئة من قابلياته الغير المحدودة * المستترة فى استعداداته الغير المحصورة * المذروعة فى جوهر روحه الذى كرمه الله تعالى كل منها يشير فى ماوراء الحشر الجسمانى باصبع الشهادة الى السعادة الابدية وتمد نظرها اليه فتأمل * واما البرهان السابع المبشر فهو ان رحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم اعظم الرحمة اعنى السعادة الابدية اذ بها تصير الرحمة رحمة والنعمة نعمة وبها تخلص الكائنات من النياحات المرتفعة من المأتم العمومى المتولد من الفراق الابدى المصير للنعم نقما اذ لولم يجئ روح النعم اعنى السعادة الابدية * لتحول جميع النعم نقما * وللزم المكابرة فى انكار الرحمة الثابتة بشهادة عموم الكائنات بالبداهة وبالضرورة * فيا ايها الحبيب [١] الشفيق العاشق انظر الى الطف آثار رحمة الله اعنى المحبة والشفقة والعشق ثم راجع وجدانك لكن بعد فرض تعقب الفراق الابدى والهجران اللايزالى عليها كيف ترى الوجدان يستغيث والخيال يصرخ والروح يضجر من انقلاب تلك المحبة والشفقة اللتين هما احسن والطف انواع الرحمة والنعمة اعظم مصيبة عليك واشد

[١] الحبيب والشفيق من تلامذة المؤلف

بلاء فيك * أفيمكن فى العقل ان تساعد تلك الرحمة الضرورية لهجوم الفراق الابدى والهجران اللايزالى على المحبة والشفقة لابل من شأن تلك الرحمة ان تسلط الفراق الابدى على الهجران اللايزالى والهجران اللايزالى على الفراق الابدى والعدم عليهما * واما البرهان الثامن المصرح فهو لسان محمد عليه السلام الصادق المصدوق ولقد فتح كلامه ابواب السعادة الابدية * على ان اجماع الانبياء من آدمهم الى خاتمهم عليهم السلام على هذه الحقيقة حجة حقيقية قطعية على هذا المدعى ولامر ما اتفقوا * واما البرهان التاسع فهو اخبار القرآن المعجز اذ التنزيل المصدق اعجازه بسبعة اوجه فى ثلاثة عشر عصراً دعواه عين برهانها فاخباره كشاف للحشر الجسمانى ومفتاح له * واما البرهان العاشر المشتمل على الوف من البراهين التى تضمنها كثير من الآيات مثل (وقد خلقكم اطواراً) المشير الى «قياس تمثيلى» (وماربك بظلام للعبيد) المشير الى «دليل عدلى» وغيرهما فلقد فتح القرآن فى اكثر الآيات كواتاً ناظرة الى الحشر * اما القياس التمثيلى المشاراليه بالآية الاولى فانظر فى وجود الانسان فانه ينتقل عن طور الى طور من النطفة الى العلقة ومنها الى المضغة ومنها الى العظم واللحم ومنه الى الخلق الجديد ولكل من تلك الاطوار * قوانين مخصوصة * ونظامات معينة * وحركات مطردة يشف كل منها عن قصد وارادة واختيار * ثم تأمل فى بقائه فان هذا الوجود يجدد لباسه فى كل سنة ومن شأنه التحلل والتركب اى انقضاض الحجيرات وتعميرها ببدل ماتحلل من المادة اللطيفة الموزعة على نسبة مناسبة الاعضاء التى يحضرها صانعها بقانون مخصوص * ثم تأمل فى اطوار تلك المادة اللطيفة الحاملة لارزاق الاجزاء كيف * تنتشر فى اقطار البدن انتشاراً تحير فيه العقول * وكيف تنقسم بقانون التقسيم المعين على مقدار حاجات الاعضاء * بعد ان تلخصت تلك المادة * بنظام ثابت * ودستور معين * وحركة عجيبة من اربع مصفاتات وانطبخت فى اربعة مطابخ بعد اربعة انقلابات عجيبة * المأخوذة تلك المادة من القوت المحصل من المواليد المنتشرة فى عالم العناصر * بدستور منتظم * ونظام مخصوص * وقانون معين * وكل من القوانين والنظامات فى تلك الاطوار يشف عن سائق وقصد وحكمة كيف لا ولو تأملت من قافلة تلك المادة اللطيفة فى ذرة مثلا مستترة فى عنصر الهواء تصير بالآخرة جزأ من سواد عين الحبيب لعلمت ان تلك الذرة وهى فى الهواء معينة كأنها موظفة مأمورة بالذهاب الى مكانها الذى عين لها * اذ لو نظرت اليها بنظر فنى تيقنت ان ليست حركتها «اتفاقية عمياء» «بتصادف اعمى» بل تلك الذرة * مادخلت فى مرتبة الا * تبعت نظاماتها المخصوصة * وما تدرجت الى طور الاعملت بقوانينه المعينة * وماسافرت الى طبقة الا وهى تساق بحركة عجيبة منتظمة * فتمر على تلك الاطوار حتى تصل الى موضعها مع انها لاتحرف قطعا مقدار ذرة عن هدف مقصدها * والحاصل ان من تأمل فى النشأة الاولى لم يبق له تردد فى النشأة الاخرى * ولقد قال النبى عليه الصلاة والسلام (عجباً لمن يرى النشأة الاولى كيف ينكر النشأة

الاخرى) * ثم كما ان جمع نفرات عسكر فرقة أذن لهم بالاستراحة والانتشار اذا دعوا بالآلة المعروفة فيتسللون عن كل طرف ومكمن فيجتمعون متحدين تحت لوائهم يكون اسهل واسهل من جلبهم اول الامر الى الانتظام تحت السلاح * كذلك ان جمع الذرات التى حصلت بينها المؤانسة والمناسبة بالامتزاج فى وجود واحد اذا نوديت بصور اسرافيل فينساب الكل من كل فج عميق ملبية لامر خالقها يكون اسهل وامكن فى العقل من انشائها وتركيبها اول المرة اما بالنسبة الى القدرة فاعظم الاشياء كاصغرها * ثم الظاهر ان المعاد يعاد باجزائه الاصلية والفضولية معا كما يشير اليه كبر اجسام اهل الحشر وكراهة قص الاظفار والاشعار ونحوها للجنب وسنية دفنها والتحقيق ان عجب الذنب يكفى ان يكون بزرا ومادةً لتشكله * واما الدليل الذى لوح به (وما ربك بظلام للعبيد) فاعلم انا كثيرا ما نرى الظالم الفاجر الغدار فى غاية التنعم ويمر عمره فى غاية الطيب والراحة ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ينقضى عمره فى غاية الزحمة والذلة والمظلومية ثم يجئ الموت فيساوى بينهما وهذه المساواة بلا نهاية ترى ظلما والعدالة والحكمة الالهيتان اللتان شهدت عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم فلابد من مجمع آخر ليرى الاول جزاءه والثانى ثوابه فيتجلى العدالة الالهية وقس على هاتين الآيتين نظائرهما * هذا * اما وجه النظم فى اجزاء (وبالآخرة هم يوقنون) فاعلم ان مناط النكت (الواو) ثم تقديم بالآخرة ثم الالف واللام فيها ثم التعبير بهذا العنوان ثم ذكر (هم) ثم ذكر (يوقنون) بدل يؤمنون * اما الواو ففيها التخصيص بعد التعميم للتنصيص على هذا الركن من الايمان اذ هو احد القطبين اللذين تدور عليهما الكتب السماوية * واما تقديم بالآخرة ففيه حصر وفى الحصر تعريض بان اهل الكتاب بناءً على قولهم (لن تمسنا النار الا اياما معدودة) ونفيهم اللذائذ الجسمانية آخرتهم آخرة مجازية اسمية ماهى بحقيقة الآخرة * واما الالف واللام فللعهد اى اشارة الى المعهود بالدوران على ألسنة كل الكتب السماوية وفى العهد لمح الى انها حق اواشارة الى الحقيقة المعهودة الحاضرة بين اهداب العقول بسبب الدلائل الفطرية المذكورة وفى العهد حينئذ رمز الى انها حقيقة * واما التعبير بعنوان الآخرة النا عتة للنشأة فلتوجيه الذهن الى النشأة الاولى لينتقل الى امكان النشأة الاخرى * واما هم ففيه حصر وفى الحصر تعريض بان ايمان من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام من اهل الكتاب ليس بيقين بل انما ظن يظنونه يقينا * واما ذكر يوقنون بدل يؤمنون مع ان الايمان هو التصديق مع اليقين فليضع الاصبع على مناط الغرض قصداً لاطارة الشكوك اذ القيامة محشر الريوب * وايضا بالتنصيص ينسد طرق التعلل بانا مؤمنون فليؤمن من لم يؤمن (اولئك على هدى من ربهم) اعلم ان المظان التى تتلمع فيها النكت هى * نظمها مع سابقها * ثم المحوسية فى اولئك * ثم البعدية فيها * ثم العلو فى على * ثم التنكير فى هدى * ثم لفظ من * ثم التربية فى ربهم * اما النظم فاعلم ان هذه مرتبطة بسابقها بخطوط مناسبات * منها الاستيناف اى جواب لثلاثة اسئلة مقدرة * منها السؤال عن المثال كأن السامع بعدما

سمع ان القرآن من شأنه الهداية لاشخاص من شأنهم بسبب الهداية الاتصاف باوصاف احب ان يراهم وهم بالفعل تلبسوا بتلك الاوصاف متكئين على ارائك الهداية فاجاب مريئاً للسامع بقوله (اولئك على هدى من ربهم) * ومنها السؤال عن العلة كأن السائل يقول مابال هؤلاء استحقوا الهداية واختصوابها فاجاب بان هؤلاء الذين امتزجت واجتمعت فيهم تلك الاوصاف ان تأملت لجديرون بنور الهداية ﴿فان قلت﴾ التفصيل السابق اجلى للعلة من الاجمال فى اولئك ﴿قيل لك﴾ قديكون الاجمال اوضح من التفصيل لاسيما اذا كان المطلوب متولداً من المجموع اذبسبب جزئية ذهن السامع والتدرج فى اجزاء التفصيل وتداخل النسيان بينها وتجلى العلة من مزج الاجزاء قدلايتفطن لتولد العلة فالاجمال فى اولئك لاجل الامتزاج اجلى للعلية * ومنها السؤال عن نتيجة الهداية وثمرتها والنعمة واللذة فيها كأن السامع يقول مااللذة والنعمة فاجاب بان فيها سعادة الدارين اى ان نتيجة الهداية نفسها وثمرتها عينها اذهى بذاتها نعمة عظمى ولذة وجدانية بل جنة الروح كما ان الضلالة جهنمها ثم بعد ذلك تثمر الفلاح فى الآخرة * واما المحسوسية فى اولئك فاشارة الى ان ذكر الاوصاف الكثيرة سبب للتجسم فى الذهن والحضور فى العقل والمحسوسية للخيال فمن العهد الذكرى ينفتح باب الى العهد الخارجى ومن العهد الخارجى ينتقل الى امتيازهم وينظر الى تلألئهم فى نوع البشر كأنه من رفع رأسه وفتح عينيه لايتراأى له الاهؤلاء * واما البعدية فى اولئك مع قربيتهم فى الجملة فللاشارة الى تعالى رتبتهم اذالناظر الى البعداء لايرى الا اطولهم قامة مع ان حقيقة البعد الزمانى والمكانى اقضى لحق البلاغة اذ هذه الآية كما ان عصر السعادة لسان ذاكرلها وهى تنزل كذلك كل من الاعصار الاستقبالية كأنه لسان ذاكرلها وهى شابة طرية كأنها اذذاك نزلت لاانها نزلت ثم حكيت فاوائل الصفوف المشار اليهم باولئك يتراؤن من بعد ولاجل الرؤية مع بعدهم يعلم عظمتهم وعلو رتبتهم * واما لفظ (على) فاعلم ان سر المناسبة بين الاشياء صير اكثر الامور كالمرايا التى تتراأى فى انفسها هذه فى تلك وتلك فى هذه فكما ان قطعة زجاجة تريك صحراء واسعة كذلك كثيراً ما تذكرك كلمة فذة خيالا طويلا وتمثل نصب عينيك هيئة كلمة حكاية عجيبة ويجول بذهنك كلام فى عالم المثال المثالى كما ان لفظ بارز يفتح لك معركة الحرب ولفظ ثمرة فى الآية يفتح لك باب الجنة وقس * فعلى هذا لفظ على للذهن كالكوة الى اسلوب تمثيلى. هو ان هداية القرآن براق الهى اهداه للمؤمنين ليسلكوا وهم عليه فى الطريق المستقيم سائرين الى عرش الكمالات * واما التنكير فى هدى فيشير الى انه غير هدى للمتقين اذالمنكر المكرر غير الاول فى الاغلب فذاك مصدر وهذا حاصل بالمصدر وهو صفة محسوسة قارة كثمرة الاول * واما لفظ (من) فيشير الى ان الخلق والتوفيق فى اهتدائهم المكسوب لهم من الله * واما لفظ الرب فيشير الى ان الهداية من شأن الربوبية فكما يربيهم بالرزق يغذيهم بالهداية * (واولئك هم المفلحون) اعلم ان مظان تحرى النكت * هى عطف الواو * ثم تكرار اولئك *

ثم ضمير الفصل * ثم الالف واللام * ثم اطلاق مفلحون وعدم تعيين وجه الفلاح * اما العطف فمبنى على المناسبة اذكما ان اولئك الاول اشارة الى ثمرة الهداية من السعادة العاجلة فهذا اشارة الى ثمرتها من السعادة الآجلة ثم انه مع ان كلا منهما ثمرة لكل مامر الان الاولى ان اولئك الاول يرتبط عرقه بالذين الاول الظاهر انهم المؤمنون من الاميين ويأخذ قوته من اركان الاسلامية وينظر الى ماقبل وبالآخرة هم يوقنون واولئك الثانى ينظر برمز خفى الى الذين الثانى الظاهر انهم مؤمنوا اهل الكتاب ويكون مأخذه اركان الايمان واليقين بالآخرة فتأمل * واما تكرار اولئك فاشارة الى استقلال كل من هاتين الثمرتين فى العلة الغائية للهداية والسببية لتميزهم ومدحهم الان الاولى ان يكون اولئك الثانى اشارة الى الاول مع حكمه كما تقول ذلك عالم وذلك مكرم * واما ضمير الفصل فمع انه تأكيد الحصر الذى فيه تعريض باهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالنبى عليه السلام فيه نكتة لطيفة وهى ان توسط (هم) بين المبتدأ والخبر من شأنه ان يحول المبتدأ للخبر الواحد موضوعا لاحكام كثيرة يذكر البعض ويحال الباقية على الخيال لان (هم) ينبه الخيال على عدم التحديد ويشوقه على تحرى الاحكام المناسبة فكما انك تضع زيدا بين عينى السامع فتأخذ تنزل منه الاحكام قائلا هو عالم هو عامل هو كذا وكذا ثم تقول قس كذلك لما قال اولئك ثم جاء (هم) هيج الخيال لان يجتنى ويشتى بواسطة الضمير احكاما مناسبة لصفاتهم كاولئك هم على هدى هم مفلحون هم فائزون من النار هم فائزون بالجنة هم ظافرون برؤية جمال الله تعالى الى آخره * واما الالف واللام فلتصوير الحقيقة كأنه يقول ان احببت ان ترى حقيقة المفلحين فانظر فى مرآة اولئك لتمثل لك اولتمييز ذواتهم كأنه يقول الذين سمعت انهم من اهل الفلاح ان اردت ان تعرفهم فعليك باولئك فهم هم * اولظهور الحكم وبداهته نظير « والده العبد » اى كون والده عبداً معلوم ظاهر * واما اطلاق مفلحون فللتعميم اذ تخاطب القرآن على طبقات مطالبهم مختلفة فبعضهم يطلب الفوز من النار * وبعض انما يقصد الفوز بالجنة * وبعض انما يتحرى الرضاء الالهى * وبعض مايحب الارؤية جماله وهلم جرا فاطلق هنا لتم مائدة احسانه فيجتنى كل مشتهاه *

(ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون) وجه النظم اعلم ان للذات الاحدى فى عالم صفاته الازلية تجليين جلالى وجمالى * فبتجليهما فى عالم صفات الافعال يتظاهر اللطف والقهر والحسن والهيبة * ثم بالانعطاف فى عالم الافعال يتولد التحلية والتخلية والتزيين والتنزيه * ثم بالانطباع فى العام الاخروى من عالم الآثار يتجلى اللطف جنة ونورا والقهر جهنما ونارا * ثم بالانعكاس فى عالم الذكر ينقسم الذكر الى الحمد والتسبيح * ثم بتمثلهما فى عالم الكلام يتنوع الكلام الى الامر والنهى * ثم بالارتسام فى عالم الارشاد يقسمانه الى الترغيب والترهيب والتبشير والانذار * ثم بتجليهما على الوجدان يتولد الرجاء والخوف وهكذا * ثم ان من شأن الارشاد ادامة الموازنة بين الرجاء والخوف ليدعو الرجاء الى ان يسعى بصرف القوى والخوف الى ان لايتجاوز بالاسترسال فلاييأس من الرحمة فيقعد ملوما

ولايأمن من العذاب فيتعسف ولايبالى ❊ فلهذه الحكمة المتسلسلة ماوغب القرآن الاوقد رهب وماﻣﺪح الابرار الاوقرنه بذم الفجار ﴿ان قلت﴾ فلم لم يعطف هنا كما عطف فى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم ﴿قيل لك﴾ ان حسن العطف ينظر الى حسن المناسبة وحسن المناسبة يختل باختلاف الغرض المسوق له الكلام ولما اختلف الغرض هنا وهنالك لم يستحسن العطف هنا اذمدح المؤمنين منجر ومقدمة لمدح القرآن ونتيجة له وسيق له واماذم الكافرين فللترهيب لايتصل بمدح القرآن ❊ ثم انظر الى اللطائف المندمجة فى نظم اجزاء هذه الآية فاولا استأنس بـ(ان) و(الذين) فانهما اجول واسير مايصادفك فى منازل التنزيل ولامر ما اكثر القرآن من ذكرهما اذمعهما من جوهر البلاغة نكتتان عامتان غير ماتختص كل موقع ❊ اما (ان) فان من شأنها ان تثقب السطح نافذة الى الحقيقة وتوصل الحكم اليها كأنها عرق الدعوى اتصلت بالحق مثلا ان هذا كذا اى الحكم وهذه الدعوى ليست خيالية ولامبتدعة ولااعتبارية ولامستحدثة بل هى من الحقايق الجارية الثابتة ❊ ومايقال من ان ان للتحقيق فعنوان لهذه الحقيقة والخاصية والنكتة الخصوصية هنا هى ان ان الذى شأنه ردالشك والانكار مع عدمهما فى المخاطب للاشارة الى شدة حرص النبى عليه السلام على ايمانهم ❊ واما الذين فاعلم ان (الذى) من شأنه الاشارة الى الحقيقة الجديدة التى احس بها العقل قبل العين واخذت فى الانعقاد ولم تشتد بل تتولد من امتزاج اشياء وتأخذ اسباب مع نوع غرابة ولهذا ترى من بين وسائط الاشارة والتصوير فى الانقلاب المجدد للحقائق لفظ الذى اسير على الالسنة واكثر دورانا فلما ان تجلى مؤسس الحقائق وهو القرآن اضمحل انواع ونقضت فصولها وتشكلت انواع اخر وتولدت حقائق اخرى ❊ اما ترى زمان الجاهلية كيف تشكلت الانواع على الروابط الملية وتولدت الحقائق الاجتماعية على العصبيات القومية فلما ان جاء القرآن قطع تلك الروابط وخرب تلك الحقائق فاسس بدلا عنها انواعا فصولها الروابط الدينية فتأمل ❊ فلما اشرق القرآن على نوع البشر تزاهر بضيائه واثمر بنوره قلوب فتحصلت حقيقة نورانية هى فصل نوع المؤمنين ثم لخبث بعض النفوس تعفنت فى مقابلة الضياء تلك النفوس فتولدت حقيقة سمية هى خاصة نوع من كفر ❊ وايضا بين الذين والذين تناسب ❊ اعلم ان الموصول كالالف واللام يستعمل فى خمسة معان اشهرها العهد فالذين هنا اشارة الى صناديد الكفر امثال ابى جهل وابى لهب وامية بن خلف وقد ماتوا على الكفر فعلى هذا فى الآية اخبار عن الغيب وامثال هذا لمعات يتولد منها نوع من الاعجاز من الانواع الاربعة للاعجاز المعنوى ❊ واما لفظ كفروا فاعلم ان الكفر ظلمة تحصل من انكار شئ مما علم ضرورة مجئ الرسول عليه السلام به ﴿ان قلت﴾ ان القرآن من الضروريات وقد اختلف فى معانيه ﴿قيل لك﴾ ان فى كل كلام من القرآن ثلاث قضايا ❊ احديها «هذا كلام الله» ❊ والثانية «معناه المراد حق» وانكار كل من هاتين كفر ❊ والثالثة «معناه المراد هذا» فان كان محكما اومفسراً فالايمان به واجب بعد الاطلاع والانكار كفر وان كان ظاهرا اونصا يحتمل معنى آخر فالانكار بناءً على التأويل دون التشهى ليس بكفر ومثل الآية الحديث المتواتر الا ان فى انكار القضية

الاولى من الحديث تأملاً ﴿ان قلت﴾ الكفر جهل وفى التنزيل (يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) فما التوفيق ﴿قيل لك﴾ ان الكفر قسمان جهلى ينكر لانه لايعلم والثانى جحودى تمردى يعرف لكن لايقبل يتيقن لكن لايعتقد يصدق لكن لايذعن وجدانه فتأمل ﴿ان قلت﴾ هل فى قلب الشيطان معرفة ﴿قيل لك﴾ لااذبحكم صنعته الفطرية يشتغل قلبه دائما بالاضلال ويتصور عقله دائما الكفر للتلقين فلا ينقطع هذا الشغل ولايزول ذلك التصور عن عقله حتى تمكن فيه المعرفة ﴿ان قلت﴾ الكفر صفة القلب فكيف كان شد الزنار وقديس عليه «الشوق» كفراً ﴿قيل لك﴾ ان الشريعة تعتبر بالامارات على الامور الخفية حتى اقامت الاسباب الظاهرية مقام العلل ففى شد الزنار المانع بعض نوعه عن اتمام الركوع والباس الشوقة المانعة عن تمام السجود علامة الاستغناء عن العبودية والتشبه بالكفرة المؤمى باستحسان مسلكهم وملتهم فما دام لم يقطع بانتفاء الامر الخفى يحكم بالامر الظاهر ﴿ان قلت﴾ اذلم يجد الانذار فلم التكليف ﴿قيل لك﴾ للالزام الحجة عليهم ﴿ان قلت﴾ الاخبار عن تمردهم يستلزم امتناع ايمانهم فيكون التكليف بالمحال ﴿قيل لك﴾ ان الاخبار وكذا العلم والارادة لاتتعلق بكفرهم مستقلا مقطوعا عن السبب بل انما تتعلق بكفرهم باختيارهم كما يأتيك تفصيله ومن هنا يقال الوجوب بالاختيار لاينافى الاختيار ﴿ان قلت﴾ ايمانهم بعدم ايمانهم محال عقلى يشبه «الجزر الاصم الكلامى» ﴿قيل لك﴾ انهم ليسوا مكلفين بالتفصيل حتى يلزم المحال * ثم فى ايراد كفروا فعلا ماضيا اشارة الى انهم اختاروا الكفر بعد تبين الحق فلذا لايفيد الانذار * واما سواء فمجاز عن انذارك كعدم الانذار فى عدم الفائدة اوفى صحة الوقوع اى لاموجب للانذار ولا لعدمه * واما (عليهم) ففيه ايماء الى انهم اخلدوا الى الارض فلا يرفعون رؤسهم ولايصغون الى كلام آمرهم وفيه ايضاً رمز الى انه ليس سواء عليك لان لك الخير فى التبليغ اذما على الرسول الا البلاغ واما (أأنذرتهم ام لم تنذرهم) فالهمزة وام هنا فى حكم «سواء حرفى» تاكيد لسواء الاول اوتأسيس نظراً الى اقتسامهما المعنيين المذكورين للمساوات ﴿ان قلت﴾ فلم عبر عن المساوات بصورة الاستفهام ﴿قيل لك﴾ اذا اردت ان تنبه المخاطب على عدم الفائدة فى فعل نفسه بوجه لطيف مقنع لابد ان تستفهم ليتوجه ذهنه الى فعله فينتقل منه الى النتيجة فيطمئن * ثم العلاقة بين الاستفهام والمساوات تضمنه لها اذ السائل يتساوى فى علمه الوجود والعدم * وايضاً كثيراً مايكون الجواب هذه المساوات الضمنية ﴿ان قلت﴾ لم عبر عن الانذار فى انذرتهم بصورة الماضى ﴿قيل لك﴾ لينادى يا محمد قد جربت فقس ﴿ان قلت﴾ لم ذكر ام لم تنذرهم مع ان عدم فائدة عدم الانذار ظاهر ﴿قيل لك﴾ كما قد ينتج الانذار اصراراً كذلك قد يجدى السكوت انصاف المخاطب ﴿ان قلت﴾ لم انذر بالترهيب فقط مع انه بشير نذير ﴿قيل لك﴾ اذ الترهيب هو المناسب للكفر ولان دفع المضار اولى من جلب المنافع واشد تأثيراً ولان الترهيب هنا يهز عطف الخيال ويوقظه لان يتلقى ويجتنى بعد قوله (لايؤمنون) أبشرتهم ام لم تبشرهم * ثم اعلم كما ان لكل حكم معنى حرفيا ومقصدا خفيا كذلك لهذا الكلام معان طيارة ومقصد سيق له هو * تخفيف الزحمة * وتهوين

الشدة عن النبى عليه السلام * وتسليته بتأسيه بالرسل السالفين اذ خوطب اكثرهم بمثل هذا الخطاب حتى قال نوح بعده (لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) ثم لان آيات القرآن كالمرايا المتناظرة وقصص الانبياء كالهالة للقمر تنظر الى حال النبى عليه السلام كان كأن هذا الكلام يقول هذا قانون فطرى الهى يجب الانقياد له * واعلم بعد هذا التحليل ان مجموع هذه الآية الى (ولهم عذاب عظيم) سيقت «مشيرة» بعقودها الى تقبيح الكفر وتزييله * والتنفير منه * والنهى الضمنى عنه وتذليل اهله * والتسجيل عليهم * والترهيب عنه * وتهديدهم « منادية » بكلماتها بان فى الكفر * مصائب عظيمة * وفوات نعم جسيمة * وتولد آلام شديدة * وزوال لذائذ عالية « مصرحة » بجملها بان الكفر اخبث الاشيا واضرها * اذ اشار بلفظ كفروا بدل لم يؤمنوا الى انهم بعدم الايمان وقعوا فى ظلمة الكفر الذى هو مصيبة تفسد جوهر الروح وايضا هو معدن الآلام * وبلفظ لايؤمنون بدل لايتركون الكفر الى انهم مع تلك الخسارة سقط من ايديهم الايمان الذى هو منبع جميع السعادات * وبلفظ ختم الله على قلوبهم الى ان القلب والوجدان الذى حياته وفرحه وسروره وكمالاته تجلى الحقائق الالهية بنور الايمان بعد ماكفروا صار كالبناء الموحش الغير المعمور المشحون بالمضرات والحشرات فاقفل وامهر على بابه ليجتنب وترك مفوضاً للعقارب والافاعى * وبلفظ وعلى سمعهم الى فوات نعمة عظيمة سمعية بسبب الكفر اذ السمع من شأنه اذا استقر خلف صماخه نور الايمان واستداليه « الاحتساس » بنداء كل العالم وفهم اذكارها * وسمع صياح الكائنات وتفهم تسبيحاتها حتى ان السمع ليسمع من ترنمات هوب الريح * ومن نعرات رعد الغيم * ومن نغمات امواج البحر * ومن صرخات دقدقة الحجر * ومن هزجات نزول المطر * ومن سجعات غناء الطير كلاما ربانيا ويفهم تسبيحا علويا كأن الكائنات موسقية عظيمة له تهيج فى قلبه حزنا علويا وعشقا روحانيا فيحزن بتذكر الاحباب والانيس فيكون الحزن لذة * لابعدم الاحباب فيكون غما واذا اظلم ذلك السمع بالكفر صار اصم من تلك الاصوات اللذيذة ولا يسمع من الكائنات الانياحات المأتم ونعيات الموت فلا يلقى فى القلب الا غم « اليتمة » اى عدم الاحباب ووحشة الغربة اى عدم المالك والمتعهد * فبناء على هذا السر حل الشرع بعض الاصوات وهو ماهيج عشقا علويا وحزنا عاشقيا وحرم بعضها وهو ماانتج اشتهاء نفسيا وحزنا يتميا وما لم يريك الشرع فميزه بتأثيره فى روحك ووجدانك * وبكلمة وعلى ابصارهم غشاوة الى زوال نعمة جسيمة بسبب الكفر اذ البصر من شأنه اذا استضاء نوره واتصل بنور الايمان الساكن خلف شبكته ممدا ومحركا له كان كل الكائنات كجنة مزينة بالزهر والحور ويصير نور العين نحلا تطير عليها فتجتنى من تلك الازاهير عصارة العبرة والفكرة والانسية والاستيناس والتحبب والتهنئة فتأخذ حميلتها فتتخذ فى الوجدان شهد الكمالات * واذا اظلم « العياذ بالله » ذلك البصر بالكفر طمس وصارت الدنيا فى نظره سجنا وتسترت عنه الحقائق وتوحشت عليه الكائنات وتلقى الى قلبه آلاما تحيط بوجدانه من الرأس الى القدم * وبلفظ ولهم عذاب عظيم الى

ثمرة شجرة زقوم الكفر فى العالم الاخروى من عذاب جهنم ومن نكال الغضب الالهى * هذا
واما الايؤمنون فتأكيد لسواء ينص على جهة المساواة (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم
غشاوة ولهم عذاب عظيم) ﴿مقدمة﴾ اعلم انه لزمنا ان نقف هنا حتى نستمع ما يتكلم به المتكلمون
اذ تحت هذه الآية حرب عظيم بين اهل الاعتزال واهل الجبر واهل السنة والجماعة ومثل هذه الحرب
يستوقف النظار فناسب ان نذكر اساسات لتستفيد منها ان مذهب اهل السنة والجماعة هو (الصراط
المستقيم) وماعداه اما افراط اوتفريط * منها انه قد تحقق « ان لامؤثر فى الكون الاالله » فاذاً
لاتفويض * ومنها «ان الله حكيم» فلايكون الثواب والعقاب عبثين فحينئذ لااضطرار فكما ان التوحيد
يدفع فى صدر الاعتزال كذلك التنزيه يضرب على فم الجبر * ومنها « ان لكل شئ جهتين »
جهة ملكية هى قدتكون حسنة وقدتكون قبيحة تتوارد عليها الاشكال كظهر المرآة
«وجهة ملكوتية» تنظر الى الخالق وتلك شفافة فى كل شىء كوجه المرآة فخلق القبيح ليس
قبيحا اذ الخلق من جهة الملكوتية الحسنة ولان خلقه لتكميل المحاسن فيحسن بالغير فلاتصغ
الى سفسطة الاعتزال * ومنها ان الحاصل بالمصدر امر قار مخلوق جامد لايشتق منه الصفات
واما المصدر فمكسوب نسبى اعتبار يشتق منه الصفات فلايكون خالق القتل قاتلاً فذر
اهل الاعتزال فى خوضهم يلعبون * ومنها ان الفعل الظاهرى فى الاغلب نتيجة لافعال متسلسلة
منتهية الى ميلان النفس الذى يسمى «بالجزء الاختيارى» فتدور المنازعات على هذا الاساس *
ومنها ان الارادة الكلية الالهية ناظرة بعادته تعالى الى الارادة «الجزئية للعبد» فلااضطرار *
ومنها ان العلم تابع للمعلوم فلايتبعه المعلوم حتى يدور فلايتعلل فى العمل باحالة مقايسه على
القدر * ومنها ان خلق الحاصل بالمصدر متوقف على كسب المصدر بجريان عادة الله تعالى
باشتراطه به والنواة فى كسب المصدر والعقدة الحياتية فيه هى الميلان فبحله تحل عقدة المسئلة *
ومنها ان الترجح بلامرجح محال دون الترجيح بلامرجح فلايعلل افعاله تعالى بالاغراض
بل اختياره تعالى هو المرجح * ومنهـا ان الامر الموجود لابدله من مؤثر والالزم الترجح
بلامرجح وهو محال كامر * واما الامر الاعتبارى فتخصصه بلامخصص لايلزم منه المحال *
ومنها ان الموجود يجب ان يجب ثم يوجد واما الامر الاعتبـارى فالترجح بلا انتهاء الى
حد الوجوب كاف فلايلزم ممكن بلا مؤثر * ومنها ان العلم بوجود شىء لايستلزم العلم
بماهيته وعدم العلم بالماهية لايستلزم العدم فعدم التعبير عن كنه الاختيار لاينافى قطعية وجوده
* واذا تفطنت لهذه الاساسات فاستمع لمايتلى عليك فنحن معاشر اهل السنة والجماعة نقول
يااهل الاعتزال ان العبد ليس خالقا للحاصل بالمصدر كالحاصل من المصدر بل هو مصدر المصدر
فقط اذ لامؤثر فى الكون الاالله والتوحيد هكذا يقتضى * ثم نقول يااهل الجبر ليس العبد مضطراً
بل له جزء اختيارى لان الله حكيم وهكذا يقتضى التنزيه ﴿ فان قلتم ﴾ كما يشرح الجزء
الاختيارى بالتحليل لايظهر منه الاالجبر ﴿ قيل لكم ﴾ اولاً ان الوجدان والفطرة يشهدان
ان بين الامر الاختيـارى والاضطرارى امراً خفيا فارقا وجوده قطعى فلاعلينا ان لانعبر

عنه * وثانيا نقول ان الميلان انكان امراً موجوداً كما عليه الاشاعرة فالتصرف فيه امر اعتبارى بيد العبد وان كان الميلان امراً اعتباريا كما عليه الماتريدية فذلك الامر الاعتبارى ثبوته وتخصصه لايستلزم العلة التامة الموجبة فيجوز التخلف فتأمل * والحاصل ان الحاصل بالمصدر موقوف عادة على المصدر الذى اساسه الميلان الذى هو اوالتصرف فيه «ليس موجوداً» حتى يلزم من تخصصه مرة هذا ومرة ذاك «ممكن بلامؤثر» اوترجح بلامرجح «ولامعدوما» ايضاً حتى لايصلح ان يكون شرطاً لخلق الحاصل بالمصدر اوسببا للثواب والعقاب ﴿ان قلت﴾ العلم الازلى والارادة الازلية يجيان على الاختيار بالقلع ﴿قيل لك﴾ ان العلم بفعل باختيار لاينافى الاختيار * وايضا ان العلم الازلى محيط كالسماء لامبدأ للسلسلة كرأس زمان الماضى حتى تسند اليه المسببات متغافلا عن الاسباب موهما خروجها * وايضا ان العلم تابع للمعلوم اى على أى كيفية يكون المعلوم كذلك يحيط به العلم فلايستند مقايس المعلوم الى اساسات القدر* وايضا ان الارادة لاتتعلق بالمسبب فقط مرة وبالسبب مرة اخرى حتى لاتبقى فائدة فى الاختيار والسبب بل تتعلق تعلقا واحدا بالمسبب وبسببه * وعلى هذا السر لوقتل شخص شخصا بالبندقة مثلا ثم فرضنا عدم السبب والرمى هل يموت ذلك الشخص فى ذلك الآن ام لا فاهل الجبر يقولون لولم يقتل لمات ايضا لتعدد التعلق والانقطاع بين السبب والمسبب واهل الاعتزال يقولون لم يمت لجواز تخلف المراد عن الارادة عندهم * واما اهل السنة والجماعة فيقولون نتوقف ونسكت اذ فرض عدم السبب يستلزم فرض عدم تعلق الارادة والعلم بالمسبب ايضا اذ التعلق واحد فهذا الفرض المحال جاز ان يستلزم محالا فتأمل ﴿مقدمة اخرى﴾ اعلم ان الطبيعين يقولون ان للاسباب تأثيرا حقيقيا * والمجوس يقولون ان للشر خالقا آخر * والمعتزلة يدعون ان الحيوان خالق لافعاله الاختيارية واساس هذه الثلاثة مبنية على وهم باطل وخطأ محض وتجاوز عن الحد وقياس مع الفارق خدعهم وثبطهم اذ ذهبوا ظنا منهم الى التنزيه فوقعوا فى شرك الشرك * وان شئت التفصيل فاستمع لمسائل تطرد ذلك الوهم * منها انه كما ان استماع الانسان وتكلمه وملاحظته وتفكره جزئية تتعلق بشئ فشئ على سبيل التعاقب كذلك همته جزئية لاتشتغل بالاشياء الا على سبيل التناوب * ومنها ان قيمة الانسان بنسبة ماهيته وماهيته بدرجة همته وهمته بمقدار اهمية المقصد الذى يشتغل به * ومنها ان الانسان الى أى شئ توجه يفنى فيه ويحبس عليه ومن هذه النقطة ترى الناس فى عرفهم لايسندون شيأ خسيسا وامراً جزئيا الى شخص عظيم وذات عال بل الى الوسائل ظنا منهم ان الاشتغال بالامر الخسيس لايناسب وقاره وهو لايتنزل له ولايسع الامر الحقير همته العظيمة ولايوازن الامر الخفيف مع همته العظيمة * ومنها ان من شأن الانسان اذا تفكر فى شئ لمحاكمة احواله ان تحرى مقائيسه وروابطه واساساته اولا فى نفسه ثم فى ابناء جنسه وان لم يجد ففى جوانبه من الممكنات حتى ان واجب الوجود الذى لايشبه الممكنات بوجه من الوجوه اذا تفكر فيه الانسان تلجؤه القوة الواهمة لان يجعل هذا الوهم السيئ المذكور دستوراً والقياس الخادع منظاراً له مع ان الصانع

جل جلاله لاينظر اليه من هذه النقطة اذلا انحصار لقدرته ❊ ومنها ان قدرته وعلمه وارادته جل جلاله كضياء الشمس ولله المثل الاعلى شاملة لكل شيء وعامة لكل امر فلاتقع فى الانحصار ولاتجيء فى الموازنة فكما تتعلق باعظم الاشياء كالعرش تتعلق باصغرها كالجوهر الفرد وكما خلق الشمس والقمر كذلك خلق عينى البرغوث والبعوضة وكما اودع نظاما عاليا فى الكائنات كذلك اوقع نظاما دقيقا فى امعاء الحيوانات (الحردبينية) وكماربط الاجرام العلوية والنجوم المعلقة بقانونه المسمى بالجاذب العمومى كذلك نظم الجواهر الفردة بنظير ذلك القانون كانه مثال مصغرلها اذ بتداخل العجز تتفاوت مراتب القدرة فمن امتنع عليه العجز تتساوى فى قدرته الاشياء اذ العجز ضد القدرة الذاتية فتأمل ❊ ومنها ان اول ماتتعلق به القدرة ملكوتية الاشياء وهى شفافة حسنة فى الكل كامر فكما انه جل جلاله جعل وجه الشمس مجلا ووجه القمر مستضيأً كذلك صير ملكوتية الليل والغم حسنة منيرة ومنها ان مقياس عظمته تعالى وميزان كمالاته وواسطة محاكمة اوصافه لايسعها ذهن البشر ولايمكن له الا بوجه بل انما هو بما تحصل من جميع مصنوعاته ❊ وبما يتجلى من مجموع آثاره ❊ وما يتلخص من كل افعاله نعم القدرة تكون مرآةً ولاتكون مقياسا ❊ واذا تفطنت لهذه المسائل فاعلم ان الواجب تعالى لايقاس على الممكنات اذ الفرق من الثرى الى الثريا ❊ ألاترى اهل الطبيعة والاعتزال والمجوس بناء على تسلط القوة الواهمة بهذا القياس على عقولهم كيف التجأوا الى اسناد التأثير الحقيقى الى الاسباب وخلق الافعال للحيوان وخلق الشر لغيره تعالى يظنون ويتوهمون ان الله تعالى بعظمته وكبريائه وتنزهه كيف يتنزل لهذه الامور الخسيسة والاشياء القبيحة ❊ فسحقاً لهم كيف صيروا العقل اسيراً لهذا الوهم الواهى هذا ❊ ياهذا هذا الوهم قديتسلط على المؤمن ايضا من جهة الوسوسة فتجنب ❊ اماتحليل كلمات هذه الآية ونظمها فاعلم ان ربط (ختم) (بلايؤمنون) وتعقيبه به نظير ترتب العقاب على العمل كأنه يقول لما افسدوا الجزء الاختيارى ولم يؤمنوا عوقبوا بختم القلب وسده ثم لفظ الختم يشير الى استعارة مركبة تؤمى الى اسلوب تمثيلى يرمز الى ضرب مثل يصور ضلالتهم ❊ اذ المعنى فيه منع نفوذ الحق الى القلب فالتعبير بالختم يصور القلب بيتاً بناه الله تعالى ليكون خزينة الجواهر ثم بسوء الاختيار فسد وتعفن وصار مافيه سموما فاغلق وامهر ليجتنب ❊ واما الله فاعلم ان فيه التفاتا من التكلم الى الغيبة ومع نكتة الالتفات فنى مناسبة لفظ (الله) مع متعلق لايؤمنون فى النية اعنى لفظ بالله اشارة الى لطافة هى انه لما جاء نور معرفة الله اليهم فلم يفتحوا باب قلبهم له تولى عنه مغضبا واغلق الباب عليهم ❊ واماعلى فاعلم ان فيه بناءً على كون الختم متعديا بنفسه اشارةً الى تضمين ختم (وسم) كأنه يقول جعل الله الختم وسما وعلامةً على القلب يتوسمه الملائكة ❊ وفى على ايضا ايماء الى ان المسدود «الباب العلوى» من القلب لاالباب السفلى الناظر الى الدنيا ❊ واما (قلوبهم) قدمه على السمع والبصر لانه هو محل الايمان ولان اول دلائل الصانع يتجلى من مشاورة القلب مع نفسه ومراجعة الوجدان الى فطرته لانه اذا راجع نفسه يحس بعجز شديد يلجؤه الى نقطة

استناد ويرى احتياجا شديداً لتنمية آماله فيضطر الى نقطة استمداد ولا استناد ولا استمداد الا بالايمان * ثم ان المراد بالقلب اللطيفة الربانية التى مظهر حسياتها الوجدان ومعكس افكارها الدماغ لاالجسم الصنوبرى * فاذاً فى التعبير بالقلب رمزالى ان اللطيفة الربانية لمعنويات الانسان كالجسم الصنوبرى لجسده فكما ان ذلك الجسم ماكنة حياتية تنشر ماءالحياة لاقطار البدن واذا انسد وسكن جمد الجسد كذلك تلك اللطيفة تنشر نورالحياة الحقيقية لاقطار الهيئة المجسمة من معنوياته واحواله وآماله واذا زال نور الايمان (العياذ بالله) صارت ماهيته التى يصارع بها الكائنات كشبح لاحراك به واظلم عليه * واما (وعلى سمعهم) كرر (على) للاشارة الى استقلال كل بنوع من الدلائل فالقلب بالدلائل العقلية والوجدانية والسمع بالدلائل النقلية والخارجية * وللرمز الى ان ختم السمع ليس من جنس ختم القلب * ثم ان فى افراد السمع مع جمع جانبيه ايجازاً ورموزاً الى ان السمع مصدر لعدم الجفن له * والى ان المسمع فرد * وان المسموع لكل فرد * وانه يسمع فرداً فرداً * ولاشتراك الكل كأن اسماعهم بالاتصال صارت فرداً * ولاتحاد الجماعة وتشخصها يتخيل لها سمع فرد * والى اغناء سمع الفرد عن استماع الكل فحق السمع فى البلاغة الافراد * لكن القلوب والابصار مختلفة متعلقاتهما * ومتباينة طرقهما * ومتفاوتة دلائلهما * ومعلمهما على انواع * وملقنهما على اقسام فلهذا توسط المفرد بين الجمعين * وعقب القلب بالسمع لان السمع اب لملكاته واقرب اليه ونظيره فى تساوى الجهات الست عنده * واما (وعلى ابصارهم غشاوة) فاعلم ان فى تغيير الاسلوب باختيار الجملة الاسمية اشارة الى ان جنان البصر التى يجتنى منها دلائله ثابتة دائمة بخلاف حدائق السمع والقلب فانها متجددة وفى اسناد الختم الى الله تعالى دون الغشاوة اشارة الى ان الختم جزاء كسبهم والغشاوة مكسوبة لهم * ورمز الى ان فى مبدأ السمع والقلب اختياراً وفى مبدأ البصر اضطرارا ومحل الاختيار غشاوة التعامى * وفى عنوان الغشاوة اشارة الى ان للعين جهة واحدة وتنكيرها للتنكير اى التعامى حجاب غير معروف حتى يتحفظ منه * قدم (على ابصارهم) ليوجه العيون الى عيونهم اذالعين مرآة سرائر القلب * واما (ولهم عذاب عظيم) فاعلم انه كما اشار بالكلمات السابقة الى حنظلات تلك الشجرة الملعونة الكفرية فى الدنيا كذلك اشار بهذه الى حنظلة جانبها الممتد الى الآخرة وهى زقوم جهنم * ثم ان سجية الاسلوب تقتضى (وعليهم عقاب شديد) * ففى ابدال (على) باللام و (العقاب) بالعذاب و (الشديد) بالعظيم مع ان كلامها يليق بالنعمة «رمز» الى نوع تهكم توبيخى تعريضى كأنه ينعى بهم مامنفعتهم * ولالذتهم * ولانعمتهم العظيمة الا العقاب نظير «تحية بينهم ضرب وجيع» و (فبشرهم بعذاب اليم) اذاللام لعاقبة العمل وفائدته فكأنه يتلو عليهم «خذوا اجرة عملكم» * وفى لفظ العذاب رمز خفى الى ان يذكرهم استعذابهم واستلذاذهم بالمعاصى فى الدنيا فكأنه يقرأ عليهم «ذوقوا مرارة

حلاوتكم » ❊ وفى لفظ العظيم اشارة خفية الى تذكيرهم حال صاحب النعمة العظيمة فى الجنة فكأنه يلقنهم « انظروا الى ماضيعتم على انفسكم » من النعمة العظيمة وكيف وقعتم فى الالم الاليم ❊ ثم ان عظيم تاكيد لتنوين عذاب ﴿ ان قلت ﴾ ان معصية الكفر كانت فى زمان قليل والجزاء ابدى غير متناه فكيف ينطبق هذا الجزاء على العدالة الآلهية ❊ وان سلم فكيف يوافق الحكمة الازلية ❊ وان سلم فكيف تساعده المرحمة الربانية ﴿ قيل لك ﴾ مع تسليم عدم تناهى الجزاء ان الكفر فى زمان متناه جناية غير متناهية بست جهات ❊ منها ان من مات على الكفر لوبقى ابدا لكان كافراً ابداً لفساد جوهر روحه فهذا القلب الفاسد استعد لجناية غير متناهية ❊ ومنها ان الكفر وان كان فى زمان متناه لكنه جناية على غير المتناهى وتكذيب لغير المتناهى اعنى عموم الكائنات التى تشهد على الوحدانية ❊ ومنها ان الكفر كفران لنعم غير متناهية ❊ ومنها ان الكفر جناية فى مقابلة الغير المتناهى وهو الذات والصفات الآلهية ❊ ومنها ان وجدان البشر بسر حديث (لايسعنى ارضى ولاسمائى) وان كان فى الظاهر والملك محصوراً ومتناهيا لكن ملكوتيته بالحقيقة نشرت ومدت عروقها الى الابد فهو من هذه الجهة كغير المتناهى وبالكفر تلوث واضمحل ❊ ومنها ان الضد وان كان معانداً لضده لكنه مماثل له فى اكثر الاحكام فكما ان الايمان ثمر اللذائذ الابدية كذلك من شأن الكفر ان يتولد منه الآلام الابدية ❊ فمن مزج هذه الجهات الست يستنتج ان الجزاء الغير المتناهى انما هو فى مقابلة الجناية الغير المتناهية وماهو الاعين العدالة ﴿ ان قلت ﴾ طابق العدالة لكن اين الحكمة الغنية عن وجود الشرور المنتجة للعذاب ﴿ قيل لك ﴾ كما قد سمعت مرة اخرى انه لايترك الخير الكثير لتخلل الشر القليل لانه شر كثير اذ لما اقتضت الحكمة الآلهية تظاهر ثبوت الحقائق النسبية التى هى ازيد بدرجات من الحقائق الحقيقية ولا يمكن هذا التظاهر الا بوجود الشر ولا يمكن توقيف الشر على حده ومنع طغيانه الا بالترهيب ولا يمكن تأثير الترهيب حقيقة فى الوجدان الا بتصديق الترهيب وتحقيقه بوجود عذاب خارجى اذ الوجدان لايتأثر حق التأثر كالعقل والوهم بالترهيب الا بعد ان تحدس بالحقيقة الخارجية الابدية بتفاريق الامارات فمن عين الحكمة بعد التخويف من النار فى الدنيا وجود النار فى الآخرة ﴿ ان قلت ﴾ قد وافق الحكمة فما جهة المرحمة فيه ﴿ قلت ﴾ لايتصور فى حقهم الا العدم اوالوجود فى العذاب والوجود ولو فى جهنم مرحمة وخير بالنسبة الى العدم ان تأملت فى وجدانك اذ العدم شر محض حتى ان العدم مرجع كل المصائب والمعاصى ان تفكرت فى تحليلها واما الوجود فخير محض فليكن فى جهنم وكذا ان من شأن فطرة الروح اذا علم ان العذاب جزاء مزيل لجنايته وعصيانه ان يرضى به لتخفيف حمل خجالة الجناية ويقول هو حق وانا مستحق بل حبا للعدالة قد يلتذ معنى وكم من صاحب ناموس فى الدنيا يشتاق الى اجراء الحد على نفسه ليزول عنه حجاب خجالة الجناية وكذا ان الدخول وان كان الى خلود دائم وجهنم بيتهم ابدا لكن بعد مرور جزاء العمل دون الاستحقاق يحصل لهم نوع

الفة وتطبع مع تخفيفات كثيرة مكافاةً لاعمالهم الخيرية اشارت اليها الاحاديث فهذا مرحمة لهم مع عدم لياقتهم ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ﴾ وجه النظم انه كما يعطف المفرد على المفرد للاشتراك فى الحكم والجملة على الجملة للاتحاد فى المقصد كذلك قد تعطف القصة على القصة للتناسب فى الغرض ومن الاخير عطف قصة المنافقين على الكافرين اى عطف ملخص اثنى عشر آية على مآل آيتين اذ لما افتتح التنزيل بثناء ذلك الكتاب فاستتبع ثمرات ثنائه من مدح المؤمنين فاستردف ذم اضدادهم بسر انما تعرف الاشياء باضدادها ولتم حكمة الارشاد ناسب تعقيب المنافقين تكميلا للاقسام ﴿ان قلت﴾ لم اوجز فى حق الكافرين كفرا محضا بآيتين واطنب فى النفاق باثنى عشر آية ﴿قيل لك﴾ لنكات منها ان العدو اذا لم يعرف كان اضر واذا كان مخنسا كان اخبث واذا كان كذابا كان اشد فساداً واذا كان داخلياً كان اعظم ضرراً اذ الداخلى يفت الصلابة ويشتت القوة بخلاف الخارجى فانه يتسبب لتشدد الصلابة العصبية فاسفا ان جناية النفاق على الاسلام عظيمة جدا وماهذه المشوشية الامنه ولهذا اكثر القرآن من التشنيع عليهم * ومنها ان المنافق لاختلاطه بالمؤمنين يستأنس شيأ فشيأ ويألف بالايمان قليلا قليلا ويستعد لان يتنفر عن حال نفسه بسبب تقبيح اعماله وتشنيع حركاته فيتقطر كلمة التوحيد من لسانه الى قلبه * ومنها ان المنافق يزيد على الكفر جنايات اخر كالاستهزاء والخداع والتدليس والحيلة والكذب والرياء * ومنها ان المنافق فى الاغلب يكون من اهل الكتاب ومن اهل الجربذة الوهمية فيكون حيالاً دساساً ذاذكاء شيطانى والاطناب فى حقه اعرق فى البلاغة * اما تحليل كلمات هذه الآية فاعلم ان (من الناس) خبر مقدم لمن على وجه ﴿ان قلت﴾ كون المنافق انسانا بديهى ﴿ قيل لك ﴾ اذا كان الحكم بديهيا يكون الغرض واحداً من لوازمه وهنا هو التعجب كأنه يقول كون المنافق الرزيل انسانا (عجيب) اذ الانسان مكرم ليس من شأنه ان يتنزل الى هذه الدركة من الخسة ﴿ان قلت﴾ فلم قدم ﴿قيل لك﴾ من شأن انشاء التعجب الصدارة وليتمركز النظر على صفة المبتدأ التى هى مناط الغرض والا لانتظر ومر الى الخبر * ثم ان عنوان الناس يترشح منه لطائف * منها انه لم يفضحهم بالتعين بل سترهم تحت عنوان الناس ايماءً الى ان سترهم وعدم كشف الحجاب عن وجوههم القبيحة انسب بسياسة النبى عليه السلام اذ لو فضحهم بالتشخيص لتوسوس المؤمنون اذ لا يؤمن من دسائس النفس والوسوسة تجر الى الخوف والخوف الى الرياء والرياء الى النفاق * ولانه لو شنعهم بالتعين لقيل ان النبى عليه السلام متردد لايثق باتباعه * ولان بعضا من الفساد لو بقى تحت الحجاب لانطفى شيأ فشيأ واجتهد صاحبه فى اخفائه ولو رفع الحجاب فبناءً على ماقيل «اذا لم تستحح فافعل ماشئت» ليقول فليكن ماكان ويأخذ فى النشر ولا يبالى * ومنها ان التعبير بالناس يشير الى انه مع قطع النظر عن سائر الصفات المنافية للنفاق فاعم الصفات اعنى الانسانية ايضاً منافية له اذ الانسان مكرم ليس من شأنه هذه الرزالة * ومنها انه رمز الى ان النفاق لا يختص بطائفة ولا طبقة بل يوجد فى نوع

الانسان أية طائفة كانت ❊ ومنها انه يلوح بان النفاق يخل بحيثية كل من كان انسانا فلابدان يحرك غضب الكل عليه ويتوجه الكل الى تحديده لئلا ينتشر ذلك السم كما يخل بناموس طائفة ويهيج غضبهم شناعة فرد منهم واما (من يقول آمنا) ﴿فان قلت﴾ لم افرد يقول وجمع آمنا مع ان المرجع واحد ﴿قيل لك﴾ فيه اشارة الى لطافة ظريفة هى اظهار ان المتكلم مع الغير متكلم وحده «فيقول» للتلفظ وحده و«آمنا» لانه مع الغير فى الحكم ❊ ثم ان هذا حكاية عن دعواهم ففى صورة الحكاية اشارة الى رد المحكى بوجهين كما ان فى المحكى اشارة الى قوته بجهتين اذ «يقول» يرمز بمادته الى ان قولهم ليس عن اعتقاد وفعل بل يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم وبصيغته يومى الى ان سبب استمرار مدافعتهم وادعائهم مراآة الناس لاتحرك وجدانى ❊ وفى الدعوى ايماء منهم بصيغة الماضى الى «انا معاشر اهل الكتاب قد آمنا قبل فكيف لانؤمن الآن» ❊ وفى لفظ «نا» رمز منهم الى «انا جماعة متحزبون لسنا كفرد يكذب اويكذب» ❊ واما (بالله وباليوم الآخر) فاعلم ان للتنزيل ان يأخذ المحكى بعينه اويتصرف فيه باخذ مآله اوتلخيص عبارته ❊ فعلى الاول ذكروا الاول والآخر من اركان الايمان اظهاراً للقوى ولما هو اقرب لان يقبل منهم واشاروا الى سلسلة الاركان بتكرار الباء مع القرب ❊ وعلى الثانى بان يكون كلامه تعالى ففى ذكر القطبين فقط اشارة الى ان اقوى مايدعونه ايضا ليس بايمان اذليس ايمانهم بهما على وجههما وكرر الباء للتفاوت اذالايمان بالله ايمان بوجوده ووحدته وباليوم الآخر بحقيته ومجيئه كما مر ❊ واما (وماهم بمؤمنين) ﴿فان قلت﴾ لم لم يقل وماآمنوا الاشبه بآمنا ﴿قيل لك﴾ لئلا يتوهم التناقض صورة ولئلا يرجع التكذيب الى نفس آمنا الظاهر انشائيته المانعة من التكذيب بل ليرجع النفى والتكذيب الى الجملة الضمنية المستفادة من آمنا وهى (فنحن مؤمنون) ❊ وايضا ليدل باسمية الجملة على دوام نفى الايمان عنهم ﴿ان قلت﴾ لم لايدل على نفى الدوام مع ان (ما) مقدم ﴿قيل لك﴾ ان النفى معنى الحرف الكثيف والدوام معنى الهيئة الخفيفة فالنفى اغمس واقرب الى الحكم ﴿ان قلت﴾ ما نكتة الباء على خبرما ﴿قيل لك﴾ ليدل على انهم ليسوا ذواتا اهلا للايمان وان آمنوا صورة اذفرق بين مازيد سخيا ومازيد بسخى ❊ اذالاول لهوائية الذات معناه زيد لايسخو بالفعل وان كان اهلا ومن نوع الكرماء ❊ واما الثانى فمعناه زيد ليس بذات قابل للسماحة وليس من نوع الاسخياء وان احسن بالفعل (يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا انفسهم ومايشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) اعلم ان وجه النظم اشارات جملها الى التوبيخ على النفاق ❊ ثم تشنيعه ❊ ثم تقبيحهم ❊ ثم التهديد عليه ❊ ثم ترهيبهم ❊ ثم التعجب منهم ❊ ثم بيان مقصدهم من قولهم المذكور ❊ ثم بيان علة قولهم ❊ ثم بيان اول الجنايات الاربع الناشئة من النفاق وهى الخداع ❊ والافساد ❊ وتسفيه المؤمنين ❊ والاستهزاء بهم ❊ ثم تمثيل جناياتهم وحيلهم باسلوب استعارة تمثيلية هكذا بان صور معاملتهم مع احكام الله تعالى ومع النبى عليه السلام والمؤمنين باظهارهم الايمان

لاغراض دنيوية مع تبطن الكفر ومعاملة الله والنبى والمؤمنين معهم باجراء احكام المؤمنين عليهم استدراجا معانهم اخبث الكفرة عندالله بصورة خداع شخصين اوالصياد مع الصيدالذى يحس الصياد بالخروج عن القاصعاء ثم يفر من النافقاء * اما نظم جمل الجناية الاولى من (يخادعون) الى (بما كانوا يكذبون) فانظر الى ماتضمنت من النتائج المتسلسلة المترتبة فى الجمل السبع * وهى تحميقهم بطلب المحال * ثم تسفيههم باضرار نفسهم بنية المنفعة * ثم تجهيلهم بعدم التميز بين الضر والنفع * ثم ترزيلهم بخبث الطينة ومرض معدن الصحة وموت منبع الحيات * ثم تذليلهم بتزييد المرض فى طلب الشفاء * ثم تهديدهم بألم محض يولد ألما صرفا * ثم تشهيرهم بين الناس باقبح العلامات اعنى الكذب * واما اتساق وانتظام تلك الجمل السبع وانصباب الحكم فيما بينها فهو انك كما اذا اردت زجر واحد عن شئ ونصحه تقول له اولا ياهذا ان كان لك عقل فهذا محال * ثم ان كنت تحب نفسك فهذا يضرها * ثم ان كان لك حس فلم لاتميز بين الضر والنفع * ثم ان لم يكن اختيار فلااقل من ان تعرف فساد سجيتك وفيها مرض يحرف الحقيقة ويريك الحلو مراً ثم ان تطلب الشفاء فهذا يزيد مرضك ولايشفى مثلك كمثل من ابتلى بداء السهر فاجتهد فى النوم فانتج له قاقاطير نعاسه ايضا اوكمن اصيب قلبه بداء المرق فاغتم لوجود المصيبة حتى صير المصيبة مصيبتين * ثم ان تحر اللذة فهذا فيه ألم شديد ينتج ألما اشد ليس كامثاله التى فيها لذة مزخرفة * ثم ان لم تنتبه ولم تنزجر لايبقى الا ان يوسم على خرطومك بوسم قبيح وتعلن بين الناس لمنع سراية فسادك الى الناس كذلك ان الله تعالى قال لزجر المنافقين (يخادعون الله) بدل يخادعون النبى لتحميقهم اى كيف يخادعون النبى عليه السلام والنبى مبلغ عن الله تعالى فحيلتهم راجعة الى الله والاحتيال مع الله تعالى محال وطلب المحال حمق ومثل هذا الحمق مما يتعجب منه ثم اتبعه (وما يخادعون الا انفسهم) لتسفيههم اى ليس فى فعلكم نفع بل فيه ضرر وضرره يعود على انفسكم فكأنكم تخادعون انفسكم ثم عقبه (ومايشعرون) لتجهيلهم اى ايها الجهلا قدصرتم اضل من الحيوان كالاحجار الجامدة لاتحسون بالفرق بين الضر والنفع ثم اردفه (فى قلوبهم مرض) لترزيلهم بانفساد الجوهر اى ان لم يكن لكم اختيار فلااقل من ان تعرفو المرض مرضا وان سجيتكم فسدت وان النفاق والحسد مرض فى الروح من شأنه تحريف الحقيقة وتغييرها حتى تظنون الحلو مراً والمر حلواً والسوداء بيضاء والابيض اسود فلا تتبعوه ثم زاد (فزادهم الله مرضا) لتذليلهم اى ان كنتم تطلبون بهذا الدواء والتشفى من غيظكم وحسدكم فهذا داء لايزيدكم الا مرضا على مرض فانتم كمن كسر احد يده فاراد الانتقام فضربه بتلك اليد المكسورة فازداد كسراً على كسر ثم قال (ولهم عذاب اليم) لتهديدهم اى ان تحروا اللذة فما نفاقكم هذا الافيه ألم شديد عاجل ينتج ألما اشد آجلا ليس كسائر المعاصى التى فيها نوع من اللذة السفلية العاجلة ثم اتمه بقول (بماكانوا يكذبون) لتوسيمهم باشنع الوسم اى ان لم تنتبهوا ولم تنتهوا لم يبق الا ان تشهروا بين الناس بالكذب المانع للاعتماد لئلا يتعدى مرضكم * اماوجه النظم بين اجزاء كل جملة * ففى الاولى اعنى جملة (يخادعون الله والذين آمنوا) هو ان فى التعبير

عن عملهم بالخداع مع المضارعية لاسيما من باب المشاركة خصوصا مع اقامة لفظة الله مقام النبي واقامة الذين آمنوا مقام المؤمنين تنصيصاً وتصريحاً بمحالية غرضهم من حيلتهم وجعل المحالية نصب العين بصورة تتنفر عنها النفوس وترتعد * اذ فيما فى الخداع من الاستعارة التمثيلية مايوقظ النفرة * وفيما فى المضارعية من التصوير مع الاستمرار مايشمأز منه القلب * وفيما فى المشاركة من المشاكلة نظير جزاء سيئة سيئة مثلها ماينتج عدم انتاج حيلتهم اذ فى باب المشاركة فعل الفاعل سبب لفعل المفعول وهنا فعل المفعول صار سببا لعقم خداع الفاعل وعدم تأثيره بل جعل الخداع صورة واهية كانعكاس المقصد فيما اذا استهزيت باحد لجهله مع انه مستبطن علماً ومستخف استهزاءً بك * وفيما فى التصريح بلفظة الله من التنصيص على محالية العرض اذ خداع النبي عليه السلام يجر اليه تعالى مايشبط العقل عن الحيلة * ومافى الذين آمنوا من جعل الصلة مداراً اشارة الى ان المنافقين يتحببون اليهم بصفة الايمان ويهيجون عرق ايمانهم للتحبب والتداخل فيهم * وفيه ايماء ايضا الى ان جماعة المؤمنين المنورين عقولهم بنور الايمان لاتستتر عنهم الحيلة فينتج ايضا عقم حيلتهم * وفى الثانية اعنى جملة (ومايخدعون الا انفسهم) هوان فى هذا الحصر اشارة الى كمال سفاهتهم بعكس العمل فى معاملتهم كمن رمى حجراً الى جدار فانثنى لكسر رأسه اذ رشوا النبال لضرر المؤمنين فاصيبت انفسهم فكأنهم يخادعون بالذات ذواتهم * وفى تبديل يضرون يخدعون اشارة الى نهاية سفاهتهم اذ يوجد فى اهل العقل من يضر نفسه قصداً ولايوجد من يخادع نفسه عمداً الا ان يكون حماراً فى صورة انسان * وفى عنوان انفسهم رمز خفى الى ان نفاقهم وحيلتهم لما كان لحظ نفسانى وغرض نفسى انتج نقيض مطلوبهم لنفسهم ﴿ ان قلت ﴾ هذا الحصر يومى الى ان خداعهم ماضر الاسلام والمسلمين مع ان الاسلام مارأى من شئ ضرراً مثل مارأى من انواع النفاق وشعباته المنتشرة كالسم فى عناصر العالم الاسلامى ﴿ قيل لك ﴾ وماتراه من الضرر المتعدى والسم السارى انما هو من طبيعتهم المتفسدة وفطرتهم المتفسخة ووجدانهم المتعفن نظير سراية المرض وليس نتيجة حيلتهم وخداعهم باختيارهم اذ يريدون خداع الله والنبي وجماعة المؤمنين والله عالم بكل شئ والنبي عليه السلام يوحى اليه وجماعة المؤمنين لاتستطيع الحيلة ان تستتر عنهم مدة مديدة فهم لايخدعون * فثبت انهم لايخدعون الا انفسهم فقط * وفى الثالثة اعنى جملة (ومايشعرون) اى لايحسون هو ان فى هذه الفذلكة تجهيلا أى تجهيل لهم لانها تشعر بانهم ان كانوا عقلاء فهذا ليس من شأن العقل وان كانوا حيوانات يتحركون بميل نفسانى فشأنهم ان يحسوا ويشعروا بمثل هذا الضرر المحسوس فثبت انهم صاروا مثل جمادات لااختيار لها * وفى الرابعة اعنى جملة (فى قلوبهم مرض) هو ان سوقها يفيد انهم لما لم يعملوا بمقتضى المحاكمة العقلية والشعور الحسى ظهر ان فى روحهم مرضا فلااقل من ان يعرفوا انه مرض ليجتنبوا عن القضايا ولايحكموا عليها اذ من شأن المرض تغير الحقيقة وتشويه المزين وتحلية المر كامر * وفى لفظ (فى) رمز الى ان حسدهم وحقدهم مرض فى ملكوت القلب وهى اللطيفة التى مر ذكرها وفى عنوان القلب اشارة الى انه كما ان جسم القلب اذا مرض اختل

جميع افعال البدن كذلك اذا مرض معنى القلب بالخداع والنفاق انحرف كل افعال الروح عن منهج الاستقامة اذ هو منبع الحياة وما كنيتها وفى تقديم (فى قلوبهم) على (مرض) ايماء الى الحصر بجهتين ومن الايماء اشارة بطريق التعريض الى ان الايمان نور شأنه ان يعطى لجميع افعال الانسان وآثاره صحة واستقامة * وايضا فى ايماء الحصر رمز الى ان الفساد فى الاساس فلا يجدى تعمير الفروعات * وفى لفظ المرض رمز الى قطع عذرهم والقامهم الحجر بان الفطرة مهيئة للحقيقة وما الفساد والخراب الامرض عارض وفى تنوين التنكير اشارة الى انه فى مكمن عميق لا يرى حتى يداوى * وفى الخامسة اعنى جملة (فزادهم الله مرضا) هو انهم حين مالم يعرفوا انه مرض حتى يجتنبوا منه بل طلبوه مستحسنين له زادهم الله تعالى اذ من طلب وجد وفى الفاء التى هى للتعقيب السببى مع ان وجود المرض ليس سببا لزيادته رمز الى انهم لما لم يشخصوا المرض فلم يتحروا وسائل الشفاء بل توسلوا باسباب الزيادة كمن يضارب خصما غالبا بيده العليلة صاروا كأنهم طلبوا الزيادة فزادهم الله مرضا بقلب املهم يأسا مزعجا بسبب ظفر المؤمنين وقلب خصومتهم حقداً محرقا للقلب بسبب غلبة المؤمنين فتولد من مرضى اليأس والحقد داء الخوف وعلة الضعف ومرض الذلة فاستولت على القلب * ثم ان الله تعالى لم يقل فزاد الله مرضهم بل جعل المفعول تمييزاً للاشارة الى ان المرض الباطنى القلبى سرى الى الظاهر ايضا وتعدى الى جميع الافعال فكأن هذا الداء الخبيث استولى على وجودهم فكأن وجودهم نفس الداء فزيادة جراحات المرض ونفاطاته زيادة لنفس ذواتهم اذ « اشتعل البيت ناراً » يفيد ان النار سرت الى تمام البيت حتى كأن تمام البيت نار تلتهب بخلاف « اشتعل نار البيت » فانه يصدق بتلهب النار من أى جانب كان * وفى السادسة اعنى جملة (ولهم عذاب اليم) هو ان اللام التى هى للنفع اشارة الى انه لو كان لهم منفعة لكانت البتة ألما معذبا دنيويا او عذابا اخرويا مؤلما وكونه منفعة من المحال فحال لهم المنفعة * وفى وصف العذاب بالاليم اى المتألم مع ان الاليم هو الشخص رمز الى ان العذاب استولى على وجودهم واحاط بذواتهم ونفذ فى بواطنهم بحيث تحولوا بنفس العذاب وصار العذاب عين ذواتهم كانقلاب الفحم جمرة نار بنفوذ النار * فاذا نظر الخيال الى صورة العذاب واستمع من جوانبه أنينا وتألما وعويلاً تتولد من الحياة المتجددة تحت العذاب يخيل ان العذاب هو الذى يأن ويتألم فما اشد التهديد لمن تأمل * وفى السابعة اعنى جملة (بما كانوا يكذبون) هو ان فى تعليق العذاب من بين جناياتهم المذكوره بالكذب فقط اشارة الى شدة شناعة الكذب وقبحه وسماجته وهذه الاشارة شاهد صدق * على شدة تأثير سم الكذب * اذ الكذب اساس الكفر بل الكفر كذب ورأس الكذب وهو الاولى من علامات النفاق وما الكذب الا افتراء على القدرة الالهية * وضد للحكمة الربانية وهو الذى خرب الاخلاق العالية * وهو الذى صير التشبثات العظيمة كالشبحات المنتنة * وبه انتشر السم فى الاسلام وبه اختل احوال نوع البشر وهو الذى قيد العالم الانسانى عن كمالاته * واوقفه عن ترقياته وبه وقع

امثال مسيلمة الكذاب فى اسفل سافلين الخسة ❊ وهو الحمل الثقيل على ظهر الانسان فيعوقه عن مقصوده ❊ وهو الاب للرياء والام للتصبع ❊ فلهذه الاسباب اختص بالتلعين والتهديد والنعى النازل من فوق العرش ❊ فيا ايها الناس لاسيما ايها المسلمون ان هذه الآية تدعوكم الى الدقة ﴿فان قلتم﴾ ان الكذب للمصلحة عفو ﴿قيل لكم﴾ اذا كانت المصلحة ضرورية قطعية مع انه عذر باطل اذتقرر فى اصول الشريعة ان الامر الغير المضبوط اى الذى لايحصل بسبب كونه قابلا لسوء الاستعمال لايصير علة ومداراً للحكم ❊ كان المشقة لعدم انضباطها ماصارت علة للقصر بل العلة السفر ولئن سلمنا « فغلبة الضرر على منفعة شئ تفتى بنسخه وتكون المصلحة فى عدمه » ❊ وماترى من الهرج والمرج فى حال العالم شاهد على غلبة ضرر عذر المصلحة ❊ الا ان التعريض والكناية ليسا من الكذب (فالسبيل مثنى) ❊ اما السكوت اذلايلزم « من لزوم صدق كل قول » « قول كل صدق» ❊ واما الصدق اذالصدق هو اساس الاسلامية وهو خاصة الايمان بل الايمان صدق ورأسه وهو الرابط لكل الكمالات ❊ وهو الحياة للاخلاق العالية وهو العرق الرابط للاشياء بالحقيقة وهوتجلى الحق فى اللسان وهو محور ترقى الانسان وهونظام العالم الاسلامى وهو الذى يسرع بنوع البشر فى طريق الترقى كالبرق الى كعبة الكمالات وهو الذى يصير احمد الناس وافقره اعز من السلاطين ❊ وبه تفوق اصحاب النبى عليه الصلاة والسلام على جميع الناس ❊ وبه ارتفع سيدنا محمد الهاشمى عليه الصلاة والسلام الى اعلى عليين مراتب البشر (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) اعلم ان وجه نظم هذه الآية بماقبلها هوان الله تعالى لماذكر الاولى من الجنايات الناشئة عن نفاقهم وهى ظلمهم انفسهم وتجاوزهم على حقوق الله تعالى بنتائجها المتسلسلة المذكورة عقبها بثانية الجنايات وهى تجاوزهم على حقوق العباد وايقاعهم الفساد بينهم مع تفرعاتها ❊ ثم ان (اذاقيل) كانه مربوط باعتبار القصة بيقول فى (ومن الناس من يقول) وباعتبار المآل (يخادعون) كذلك يرتبط باعتبار نفسه (بيكذبون) وتغير الاسلوب من الحملية الى الشرطية امارة ورمز خفى الى مقدر بينهما كأنه يقول (لهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) اذ «اذا كذبوا فتنوا » واذافتنوا افسدوا واذانوصحوا لم يقبلوا (واذاقيل لهم لاتفسدوا الخ) ❊ واماوجه النظم بين الجمل الصريحة والضمنية فى هذه الآية فهوعين النظم والربط فى ماامثل لك وهوانك اذارأيت احدا يسلك فى طريق تجر الى هلاكه فاولا تنصحه قائلا له مذهبك هذا ينهار بك فى البوار فتجنب ❊ وان لم ينته بنهاه تعودعليه بالزجر والنهى والنعى وتؤيد نهيك وتديمه فى ذهنه اما بتخويفه بنفرة العموم وامابترقيق قلبه بالشفقة الجنسية كماسيأتيك بيانهما ❊ فان كان ذلك الشخص متعنتا لجوجا مصراً الد راكبا متن الجهل المركب فهولايسكت بل يدافع نفسه كماهو شأن كل مفسد يرى فساده صلاحا اذالانسانية لاتخلى ان يرتكب الفساد من حيث هو فساد. ❊ ثم يستدل ويدعى بان طريقى هذا حق ❊ ومعلوم انه كذلك ❊ فلاحق لك فى النصيحة

* فلااحتياج الى نصيحتك * بل انت محتاج الى التعلم * فما السبيل السوى الا سبيلنا * فلاتعرض بوجود طريق اصوب * وان كان ذلك الشخص اللجوج ذا الوجهين * يكون كلامه ذا لسانين * يدارى الناصح لالزامه بوجه * ويحفظ على مسلكه بآخر فيقول انامصلح اى ظاهراً كماتطلب وباطنا كما اعتقد * ثم من شأنه تأييد وتأكيد دعواه بان الصلاح من صفتى المستمرة لانى كنت صالحا الآن بعد فسادى قبل * ثم اذا كان ذلك الشخص متمردا ومتمرا ومصرا فى نشر مذهبه * وترويج مسلكه * وتزييف ناصحه وتعريض اهل الحق بهذه الدرجة ظهر انه لايجدى له دواء ولم يبق الاآخر الدواء اعنى المعالجة لعدم السراية وما هذه المعالجة * الاتنبيه الناس واعلامهم بانه مفسد لااصلاح فيه * اذ لا يستعمل عقله ولا يستخدم شعوره حتى يحس بهذا الشئ الظاهر المحسوس * فاذا تفهمت الحلقات المسردة فى هذا المثال تفطنت مابين الجمل المنصوصة والمرموزة اليها بالقيود فى (واذا قيل لهم الى آخره) فان فيما بينها نظما فطريا بايجاز يحمر من تحته الاعجاز * واما نظم هيأت كل جملة جملة فاعلم ان جملة (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض) القطعية فى اذا اشارة الى لزوم النهى عن المنكر ووجوبه وبناء المفعول فى (قيل) رمز الى ان النهى فرض كفاية على العموم وفى لام لهم ايماء الى ان النهى لابد ان يكون على وجه النصيحة دون التحكم والنصيحة على وجه اللطف دون التقريع و (لاتفسدوا) فذلكة وخلاصة لصورة قياس استثنائى اى لاتفعلوا هكذا والانشأ منه الهرج والمرج فينقطع خيط الاطاعة فيتشوش نظام العدالة فتنحل رابطة الاتفاق فيتولد منه الفساد فلاتفعلوا لئلا تفسدوا * ولفظ (فى الارض) تأييد وتأكيد للنهى وادامة للزجر اذ نهى الناصح موقت لابد من ادامته فى ذهن المنصوح بتوكيل وجدانه ليزجره دائما من تحته وهو امابتحريك عرق الشفقة الجنسية وامابتهييج عرق التنفر من نفرة العموم و(فى الارض) هو الذى يوقظ العرقين وينعشهما اذ لفظ (فى الارض) يناجيهم بان فسادكم هذا يسرى الى نوع البشر فأى حقد وغيظ لكم على جميع الناس الذين فيهم المعصومون والفقراء والذين لاتعرفونهم أفلاتتوجعون لهم ولم لاتترحمون بهم هب ان ليست لكم تلك الشفقة الجنسية فلااقل من ان تلاحظوا ان حركتكم هذه تجلب عليكم معنى نفرة العموم ﴿فان قلت﴾ اى غرض لهم بالعموم وكيف ينجر فسادهم الى الكل ﴿قيل لك﴾ كما ان من نظر بمرآة البصر السوداء رأى كل شئ اسود قبيحا كذلك من احتجبت بصيرته بالنفاق وفسد قلبه بالكفر رأى كل شئ قبيحا مبغوضا يحصل فى قلبه عناد وحقد مع كل البشر بل كل الكائنات * ثم كما ان انكسار سن من چرخ من دولاب من ساعة يتأثر به الكل كليا اوجزئيا كذلك بنفاق الشخص يتأثر نظام هيئة البشر التى انتظمت بالعدالة و الاسلامية والاطاعة فاسفاً قد تظاهر سمومهم المتسلسلة حتى انتجت هذه السفالة * واماجملة (قالوا انما نحن مصلحون) ففى (قالوا) بدل لايقبلون النصيحة الظاهر من السياق اشارة الى انهم يدّعون ويدعون الى مسلكهم * وفى (انما) خاصيتان الاولى ان مدخوله لابد ان يكون معلوما حقيقة اوادعاء ففيها رمز الى تزييف الناصح واظهار ثباتهم على جهلهم المركب * والثانية الحصر

ففيها اشارة الى ان صلاحهم لايشوبه فساد فليسوا كغيرهم ففي الاشارة رمز الى التعريض بالمؤمنين وفى اسمية (مصلحون) بدل نصلح اشارة الى ان الصلاح صفتنا الثابتة المستمرة فحالنا هذه عين الاصلاح بالاستصحاب ❊ ثم انهم ينافقون فى هذا الكلام ايضا اذ يبطنون خلاف مايظهرون فباطناً يدعون فسادهم صلاحا وظاهراً يراؤن ان عملهم لصلاح المؤمنين ومنفعتهم واما جملة (ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) فاعلم انهم لما ادرجوا فى معاطف الجملة السابقة معانى من ترويج مسلكهم ودعوى ثبوت الصلاح لهم وان الصلاح صفتهم المستمرة وانهم منحصرون عليه ❊ وان الفساد لايشوب صلاحهم وان هذا الحكم ظاهر معلوم ومن تعريضهم بالمؤمنين ومن تجهيلهم للناصح اجابهم القرآن بهذه الجملة المتضمنة لاحكام من اثبات الفساد لهم وانهم متحدون مع حقيقة المفسدين وان الفساد منحصر عليهم ❊ وان هذا الحكم حقيقة ثابتة ومن تنبيه الناس على شناعتهم ❊ ومن تجهيلهم بنفى الحس عنهم كأنهم جمادات وان شئت فانظر الى (ألا) التى للتنبيه كيف تزيف بتنبيها ترويجهم الناشئ من دعواهم المترشح من (قالوا) والى (ان) التى للتحقيق كيف ترد دعواهم المعلومية بانما كأن (ان) تقول حالهم فى الحقيقة والباطن فساد فلايجديهم الصلاح ظاهراً ❊ والى الحصر فى (هم) كيف يقابل تعريضهم الضمنى فى (انما ونحن) والى تعريف (المفسدون) الذى معناه حقيقة المفسدين ترى فى ذاتهم فهم هى كيف يدافع حصرهم المستفاد من انما ايضا والى (ولكن لايشعرون) كيف يدافع تزييفهم الناصح وانهم ليسوا مستحقين للنصيحة بدعوى المعلومية فتأمل ﴿واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون﴾ اعلم ان وجه نظم هذا النوع بالنوع الاول من حيث انهما نصيحة وارشاد عطف الامر بالمعروف والتحلية والترغيب على النهى عن المنكر والتخلية والترهيب ومن حيث انهما من الجناية عطف تسفيههم للمؤمنين وغرورهم على افسادهم كما ربط افسادهم بفسادهم اللاتى كل منها غصن من شجرة زقوم النفاق ❊ واما وجه النظم بين جمل هذه الآية فاعلم انه لما قيل (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) واشير بهيأتها الى وجوب النصيحة على سبيل الكفاية بايمان خالص اتباعا للجمهور الذين هم الناس الكمل ليأمرهم الوجدان دائما بهذا الامر حكى وقال (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) اشارة الى تمردهم وغرورهم ودعواهم انهم على الحق كما هو شأن كل مبطل يرى باطله حقا و يعلم جهله علما اذ بالنفاق تفسد قلبهم وبالفساد نشأ غرور وميل افساد وبحكم التفسد تمردوا وبحكم الافساد يقول بعضهم لبعض متناجيا بالاضلال وبحكم الغرور يرون شدة الديانة وكمال الايمان المقتضيين للاستغناء والقناعة سفالة وسفاهة وفقراً ثم بحكم النفاق ينافقون فى كلامهم هذا ايضا ❊ اذ ظاهره كيف نكون كالسفهاء ولسنا مجانين ونحن اخيار كما تطلبون ❊ وباطنه كيف نكون كالمؤمنين الذين اكثرهم فقراء وهم فى نظرنا سفهاء تحزبوا من اوباش الاقوام ❊ واليك التطبيق بين دقائق الجزئين من الشرطية ❊ ثم القمهم الحجر بقوله (ألا انهم هم السفهاء) اذ من كان متمردا بهذه الدرجة وجاهلا بجهله فحقهم الاعلان بين الخلق وتشهيرهم بانحصار السفاهة وانه من الحقائق الثابتة

وان تسفههم لسفاهة نفسهم * ثم قال (ولكن لايعلمون) اشارة الى انهم جاهلون بجهلهم فيكون جهلا مركبا فلا يجديهم النصيحة فلابد ان يعرض عنهم صفحا اذ لايفهم النصيحة الامن يعلم جهله * واما وجه النظم فى هيأت كل جملة جملة ففى جملة (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) لفظ اذا بجزميته رمز الى لزوم الارشاد بالامر بالمعروف وبناء المفعول فى (قيل) ايماء الى ان وجوب النصيحة على سبيل الكفاية كامر ولفظ (آمنوا) بدل اخلصوا فى ايمانكم اشارة الى ان الايمان بلا اخلاص ليس بايمان ولفظ (كما آمن) تلويح بالاسوة الحسنة وحسن المثال ليخلصوا على منواله وفى لفظ (الناس) نكتتان وهما السبب فى جعل الوجدان آمراً بالمعروف دائما * اذ (كما آمن الناس) يترشح بفاتبعوا جمهور الناس اذ مخالفة الجمهور خطأ من شأن القلب ان لايقدم عليه وايضا يلوح بانهم هم الناس فقط كأن من عداهم ليسوا بانسان الاصورة امابترقى هؤلاء فى الكمالات وانحصار حقيقة الانسانية عليهم وامابتدنى اولئك عن مرتبة الانسانية * اما جملة (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) التى مآلها لانقبل النصيحة كيف نكون كهؤلاء الاذلاء * اذهم فى نظرنا سفهاء ولا نقاس نحن معاشر اهل الجاه عليهم * ففى لفظ (قالوا) رمز الى تبرية النفس وترويج المسلك والاستغناء عن النصيحة والغرور والدعوى * وفى لفظ (أنؤمن) بالاستفهام الانكارى اشارة الى شدة تمردهم فى جهلهم المركب كأنهم بصورة الاستفهام يقولون ايها الناصح راجع وجدانك هل ترى انصافك يقبل ردنا * ثم ان فى متعلق قالوا وجوه ثلاثة مترتبة اى قالوا لانفسهم ثم لابناء جنسهم ثم لمرشدهم كما هو شأن كل متنصح اذا نصحه الناصح فاول الامر يشاور مع نفسه ثم يحاور مع ابناء جنسه ثم يراجعك بنتيجة محاكمتهم * فعلى هذا لما قيل لهم ماقيل راجعوا قلوبهم المتفسدة ووجدانهم المتفسح فاشارت عليهم بالانكار فقالوا مترجمين عما فى ضميرهم ثم راجعوا بنظر الافساد الى اخوانهم فاشاروا عليهم ايضا بالانكار فاخذوا نجواهم ومحاورتهم * ثم راجعوا بطريق الاعتذار والسفسطة الى الناصح فشاغبوا وقالوا بيننا فرق لانقاس عليهم اذهم فقراء مضطرون مجبورون فشدتهم فى الديانة وتصوفهم بالاضطرار * امانحن فاهل عزة وجاه فبحكم الغرور يحيلون الناصح على انصافه * وبحكم الخداع والحيلة يتكلمون بكلام ذى لسانين اى ايها المرشد لاتظننا سفهاء ولانكون كالسفهاء فى نظركم بل نفعل كما يفعل المؤمنون الخلص مع ان مرادهم باطناً لانكون كهؤلاء المؤمنين الفقراء اذلا اعتدادهم فى نظرنا ففى هذا اللفظ رمز خفى الى فسادهم وافسادهم وغرورهم ونفاقهم (كما آمن السفهاء) اى الذين تظنونهم الناس الكاملين هم فى نظرنا اذلاء فقراء مجبرون مع كثرتهم كل منهم سفيه قوم ففى دعواهم الفرق فى القياس اشارة الى ان الاسلامية كهف المساكين وملجأ الفقراء وحامية الحق وحافظة الحقيقة ومانعة الغرور وقامعة التكبر وما مقياس الكمال والمجد الاهى وايضا فى الفرق اشارة الى ان سبب النفاق فى الاغلب هو الغرض والغرور والتكبر كما يفسره (ومانريك اتبعك الاالذين هم اراذلنا بادى الرأى) وايضا فى الفرق اشارة خفية الى ان الاسلامية لاتصير وسيلة التحكم والتغلب فى ايدى اهل الدنيا والجاه بل انماهى واسطة لاحقاق الحق فى ايادى

اهل الفقر والضرورة خلاف سائر الاديان ويشهد على هذه الحقيقة التاريخ ❊ اماجملة (ألاانهم هم السفهاء) فاعلم ان القرآن انما اكثر من التشديد والتشنيع على النفاق لاجل ان اكثر بليات العالم الاسلامى من انواع النفاق ثم ان لفظ (ألا) للتنبيه وتشهير سفاهتهم على رؤس الاشهاد ولاستشهاد فكر العموم على سفاهتهم واصل معنى (ألا) ألاتعلمون انهم سفهاء اى فاعلموا ثم ان (ان) مرآة الحقيقة ووسيلة اليها كأنه يقول راجعوا الحقيقة لتعلموا ان سفسطتهم الظاهرية لااصل لها ❊ ثم لفظ (هم) للحصر لرد تبرية انفسهم ❊ ودفع تسفيههم للمؤمنين الذى اشاروا اليه بكما آمن السفهاء اى ان السفيه من ترك الآخرة بالغرور والغرض واللذة الفانية دون من اشترى الباقى بترك الهوسات الفانية ❊ ثم ان الالف واللام فى (السفهاء) لتعريف الحكم اى معلوم انهم سفهاء ❊ وللكمال اى كمال السفاهة فيهم ❊ اما (ولكن لايعلمون) ففيه اشارات ثلاث ❊ احديها ان تميز الحق عن الباطل وتفريق مسلك المؤمنين عن مسلكهم محتاج الى نظر وعلم بخلاف افسادهم وفتنتهم فانه ظاهر يحس به من له ادنى شعور ولهذا ذيل الآية الاولى بولكن لايشعرون ❊ والثانية ان لايعلمون وامثالها من فواصل الآيات من (لايعقلون) (ولايتفكرون) (ولايتذكرون) وغيرها تشير الى ان الاسلامية مؤسسة على العقل والحكمة والعلم فمن شأنها ان يقبلها كل عقل سليم لاكسائر الاديان المبنية على التقليد والتعصب ففى هذه الاشارة بشارة كما ذكرت فى موضع آخر ❊ والثالثة الاعراض عنهم وعدم الاهتمام بهم اذ النصيحة لاتجديهم اذ لايعلمون جهلهم حتى تحروا زواله (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) اعلم ان وجه نظم مآل هذه الآية بمآل سابقتها عطف الجناية الرابعة اعنى الاستهزاء والاستخفاف على الجنايات السابقة من التسفيه والافساد والفساد ❊ وان وجه النظم بين جملها هو انه كما ان للايمان الذى هو نقطة استناد عن الآلام ونقطة استمداد للآمال ثلاث خواص حقيقية ❊ احديها عزة النفس الناشئة من «نقطة الاستناد» ومن شأن عزة النفس عدم التنزل للتذلل ❊ والثانية الشفقة التى من شأنها عدم التذليل والتحقير ❊ والثالثة احترام الحقائق ومعرفة قيمتها لان صاحب غالى القيمة ذو حقيقة وعنده الجوهر الفريد وعدم الاستخفاف بالحقيقة لانه ايضا رزين كذلك لضد الايمان اعنى النفاق اضداد خواصه الثلاث فخواص النفاق الناشئة منه ذلة النفس ❊ وميل الافساد والغرور تحقير الغير ❊ اذا عرفت هذا فاعلم ان النفاق يولد ذلة النفس وهى تنتج التذلل وهو الرياء وهو المداهنة وهى الكذب فاشار اليه بقوله (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) ❊ ثم لما كان النفاق مفسداً للقلب وفساده ينتج يتم الروح اى عدم الصاحب والحامى والمالك فيتولد الخوف وهو يلجأه الى التستر اشار اليه بلفظ (واذا خلوا) ثم لما كان النفاق قاطعا للرحم وقطعه يزيل الشفقة ❊ وزوالها ينتج الافساد وهو الفتنة وهى الخيانة وهى الضعف وهو يضطره الى الالتجاء الى ظهير ومستند اشار اليه بلفظ (الى شياطينهم) ثم لما كان النفاق جهلا ترددياً انتج تذبذب الطبيعة ❊ وهو عدم الثبات وهو عدم المسلك وهو عدم الامنية

بهم وهو يجبرهم على تجديد عهدهم اشار الى هذه السلسلة بلفظ (قالوا انا معكم) ثم لما احتاجوا الى الاعتذار * استخفوا بالحقيقة لخفتهم ورخصوا غالى القيمة لعدم قيمتهم واهانوا بالعالى لهون نفسهم وضعفها الذى ينشأ منه الغرور فقال (قالوا انما نحن مستهزؤن) ثم بينما كان السامع منتظراً من انصباب الكلام مقابلة المؤمنين لهم رأى ان الله تعالى قابلهم بدلا عن المؤمنين اشارة الى تشريفهم ورمزاً الى ان استهزائهم فى مقابلة جزاء الله تعالى كالعدم * وايماءً الى حمقهم وزجرهم وردهم اذ كيف يستهزء بمن كان الله حاميه فقال تعالى (الله يستهزء بهم) اى يعاقبهم على استهزائهم اشد جزاء بصورة استخفاف وتهكم بهم فى الدنيا والآخرة مع الاستمرار التجددى * وجملة (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) كشف وتفصيل وتصوير لجزاء استهزاءهم بطرز الاستهزاء * اما وجه نظم هيأت كل جملة جملة فاعلم ان جملة (اذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا) التى سيقت فى مداهنتهم قطعية اذ فيها ايماء الى الجزم والتعمد والقصد اى عزموا بعمد وقصد ملاقاتهم * ولفظ (لقوا) ايماء انهم تعمدوا مصادفتهم فى الطرق بين ظهرانى الناس * ولفظ (الذين آمنوا) بدل المؤمنين اشارة الى مباشرتهم معهم وتماسهم بهم والى ان ارتباطهم معهم بصفة الايمان والى ان مدار النظر بين اوصاف المؤمنين صفة الايمان فقط * ولفظ (قالوا) تلويح الى انهم يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم وان قولهم للتصنع والرياء والمداهنة ودفع التهمة والحرص على جلب منافع المؤمنين والاطلاع على اسرارهم ولفظ (آمنا) بلا تأكيد مع اقتضاء المقام اياه وبايراده جملة فعلية اشارة الى ان ليس فى قلوبهم شوق وعشق محرك ليتشددوا وتجلدوا فى كلامهم وايضا ان فى ترك التأكيد ايماءً الى تشددهم فى دفع التهمة عنهم كأنهم يقولون انكاركم ليس فى موقعه بل فى منزلة العدم اذ لسنا اهلا للتهمة وايضا فيه رمز الى ان التأكيد لايروج عنهم * وايضا فيه لمح الى ان هذا الحجاب الرقيق الضعيف على الكذب اذا شدد تمزق وايضا فى فعليته اشارة الى انه لايمكن لهم ان يدعوا الثبات والدوام وانما غرضهم من هذا التصنع الاشتراك فى منافع المؤمنين والاطلاع على اسرارهم بادعاء حدوث الايمان * واما جملة (واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم) فالواو الجامعة فى واذا ايماء ان هذا الكلام سيق لبيان ان لامسلك لهم ولبيان تذبذبهم المفصل بهاتين الشرطيتين * والجزمية فى اذا رمز الى انهم بحكم الفساد والافساد يرون الالتجاء وظيفةً ضروريةً * ولفظ (خلوا) اشارة الى انهم بحكم الخيانة يخوفون وبحكم الخوف يتسترون * ولفظ (الى) بدل (مع) المناسب لخلوا اشارة الى انهم بحكم العجز والضعف يلتجؤن وبحكم الفتنة والافساد يوصلون اسرار المؤمنين الى الكافرين * ولفظ (الشياطين) اشارة الى ان رؤسائهم كالشياطين متسترون موسوسون والى انهم كالشياطين يضرون والى انهم على مذهب الشياطين لايتصورون الا الشر * واما جملة (قالوا انا معكم) المسوقة لتبرية ذمتهم وتجديد عهدهم وثباتهم فى مسلكهم فاعلم انه اكد مع غير المنكر هنا وترك التأكيد مع المنكر هناك اشارةً ودلالةً على عدم الشوق المحرك فى قلب المتكلم هناك ووجوده هنا * اما اسمية هذا وفعلية ذاك فلان المقصود اثبات الثبوت والدوام فى ذا والحدوث فى ذلك * اما (انما نحن مستهزؤن) فاعلم انه لم يعطف اذ الوصل

انما هو بالتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع ان هذه الجملة بدل بجهة وتأكيد بجهة وهما من كمال الاتصال وجواب سؤال مقدر بجهة اخرى وهو من كمال الانقطاع لخبرية الجواب وانشائية السؤال فى الاغلب ❊ اماوجه التأكيد ويقرب منه البدل فهو ان مآلها اهانة الحق واهله فيكون تعظيما للباطل واهله وهو مآل (انا معكم) ❊ واماوجه الجوابية للسؤال المقدر فكأن شياطينهم يقولون لهم ان كنتم معنا وفى مسلكنا فمابالكم توافقون المؤمنين فاما انتم فى مذهبهم اولا مذهب لكم فاعتزروا مجيبين بانمانحن مستهزؤن فصرحوا بانهم ليسوا من الاسلام فى شئ واشاروا بحصر انما الى انهم ليسوا مذبذبين بلامذهب معلوم وباسمية مستهزؤن الى ان الاستهزاء شأنهم وصفتهم ففعلهم هذا ليس بالجد واماجملة (الله يستهزء بهم) فاعلم انها لم توصل بسوابقها بل فصلت فصلا لانها لو عطفت فاماعلى (انمانحن مستهزؤن) وهو يقتضى ان تكون هذه ايضا تأكيدا لانامعكم ❊ واماعلى (انامعكم) وهو يقتضى ان تكون هذه ايضامقولا لهم واماعلى (قالوا) وهو يقتضى ان تكون هذه ايضا مقيدة بوقت الخلوة مع ان استهزاء الله بالدوام ❊ واماعلى (اذاخلوا) وهو يقتضى ان تكون هذه من تتمة صفة تذبذبهم ❊ واماعلى (اذالقوا) وهو يستلزم ان يكون الغرض منهماواحداً مع ان الاول لبيان العمل والثانى للجزاء واللوازم باطلة فالوصل لايصح فلم يبق الا ان تكون مستأنفة جوابا لسؤال مقدر ❊ ثم ان فى هذ الاستيناف ايماءً ورمزاً الى ان شناعتهم وخباثتهم بلغت درجة تجبر روح كل سامع وراء ان يسئل بكيف جزاء من هذا عمله ❊ ثم ان الافتتاح بلفظة (الله) مع ان ذهن السامع كان منتظراً لتلقى مقابلة المؤمنين معهم اشارة الى تشريف المؤمنين وترحمه عليهم اذقد قابل بدلاعنهم ❊ وايضا رمز الى زجرهم اذلايستهزء بمن استناده بعلام الغيوب ❊ وايضا ايماء بالانقطاع وعدم النظر الى تقرر استهزائهم الى ان استهزائهم كالعدم بالنظر الى جزائه ❊ ثم ان التعبير عن نكايات الله تعالى معهم بالاستهزاء الذى لايليق بشأنه تعالى للمشاكلة فى الصحبة ❊ وللرمز الى ان النكاية جزاء للاستهزاء ونتيجة ولازمة له مع ان المراد لازم الاستهزاء اعنى التحقير ❊ وايضا ايماء الى ان استهزائهم الذى لايفيد بل يضر عين استهزاء الله تعالى معهم كمن يظن انه يستهزء مع انك تراه كالمجنون تريد ان يتكلم ولويشتمك لتضحك منه فاستهزاؤه بعض استهزائك ❊ ثم فى يستهزؤن مضارعا مع ان السابق مستهزؤن اسم فاعل اشارة الى ان نكايات الله تعالى وتحقيراته تجدد عليهم ليحسوا بالالم ويتأثروا به اذ ما استمر على نسق يقل تأثيره بل قديعدم ولذا قيل شرط الاحساس الاختلاف ❊ اما (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) اى توسلوا باسباب الضلالة وطلبوها فاعطاهم الله تعالى ❊ ففى لفظ (يمد) رمز الى رد الاعتزال وفى تضمن يمد للاستمداد ايماء الى رد الجبر اى اختاروا بسوء اختيارهم واستمدوا فامدهم الله تعالى وارخى عنانهم ❊ وفى اضافة الطغيان الى (هم) اى ان لهم فيه اختياراً رمز الى رد عذرهم بالمجبورية ❊ وفى الطغيان اشارة الى ان ضررهم متعد استغرق المحاسن كالسيل وهدم اساس الكمالات فلم يبق الاغثاء احوى (ويعمهون) اى تحيرون ويترددون ❊ وفيه اشارة الى انه لامسلك لهم وليس

لهم مقصود معين ﴿ اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فماربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين ﴾
اعلم ان وجه نظمها بسابقها هو ان هذه الآية فذلكة واجمال للتفاصيل السابقة ❊ وتصوير لها بصورة عالية مؤثرة ❊ وتخصيص اسلوب التجارة للتمثيل لاجل ان المخاطبين فى الصف الاول قد ذاقوا حلو التجارة ومرها برحلتى الصيف والشتاء ❊ ووجه المناسبة هو ان نوع البشر ارسل الى الدنيا لا للتوطن فيها بل ليتجروا فى رأس مالهم من الاستعدادات والقابليات ليزرعوا ثم يتصرفوا فى غلاتها ❊ ثم ان وجه النظم بين جمل هذه الآية هو انها ترتبت ترتبا فطريا سليسا على نسق اسلوب التمثيل ❊ وهو هذا ان تاجراً مغبونا مخذولا اعطى له رأس مال غال فاشترى به السموم ومايضره فتصرف فيه فلم يربح ولم يفد بل القاه فى خسارة على خسارة فاضاع رأس ماله ثم اضل الطريق بحيث لايستطيع ان يرجع ❊ امانظم هيأت جملة جملة فلفظ (اولئك) موضوع لاحضار المحسوس البعيد ❊ اما الاحضار فاشارة الى ان من شأن كل سامع اذاسمع تلك الجنايات المذكورة ان يحصل شيأ فشيأ فى قلبه نفرة وغيض يتشدد تدريجا بحيث يريد ان يراهم ليتشفى الغيظ منهم ويقابلهم بالنفرة والتحقير ❊ واما المحسوسية فرمز الى ان الاتصاف بهذه الاوصاف العجيبة يجسمهم فى الذهن حتى صاروا محسوسين نصب الخيال ومن المحسوسية رمز الى علة الحكم بسر انجرار المعصية الى المعصية ❊ واما البعدية فاشارة الى شدة بعدهم عن الطريق الحق ذهبوا الى حيث لايرجعون فالذهاب فى ايديهم دون الاياب ❊ ولفظ (الذين) اشارة الى ان هذا نوع من التجارة عجيب خبيث تحدث وطفق ان يصير اساسا ومسلكا يمر عليه ناس ❊ اذ قدمر ان الموصول اشارة الى الحقائق الجديدة التى اخذت فى الانعقاد ❊ ولفظ (اشتروا) اشارة الى رد اعتذارهم بان فطرتنا هكذا فكأن القرآن يقول لهم (لا) ولقد اعطاكم الله انفاس العمر رأس مال واودع فى روحكم استعداد الكمال وغرس فى وجدانكم نواة الحقيقة وهى الهداية الفطرية لتشتروا السعادة فاشتريتم بدلها بل بتركها اللذائذ العاجلة والمنافع الدنيوية فاخترتم بسوء اختياركم مسلك الضلالة على منهج الهداية فافسدتم الهداية الفطرية وضيعتم رأس مالكم ❊ ولفظ (الضلالة بالهدى) فيه اشارة الى انهم خسروا خسارة على خسارة اذكما خسروا بالضلالة كذلك خسروا بترك النعمة العظيمة التى هى الهداية ❊ اماجملة (فماربحت تجارتهم) فاعلم ان فى تخصيص نفى الربح مع انهم كما قدخسروا فقد اضاعوا رأس المال ايضا اشارة الى ان من شأن العاقل ان لايقدم على تجارة لاربح فيها فضلا عمافيها خسارة واضاعة رأس المال ❊ ثم فى اسناد الفعل الى التجارة مع ان الاصل فماربحوا فى تجارتهم اشارة الى ان تجارتهم هذه بجميع اجزائها وكل احوالها وقاطبة وسائطها لافائدة فيها لاجزئيا ولاكليا لا كبعض التجارات التى لايكون فى محصلها وفذلكتها ربح ولكن فى اجزائها فوائد ولوسائط خدمتها استفادات ❊ اما هذه فشر محض وضرر بحت ونظير هذا الاسناد « نام ليله » بدل نام فى الليل اذ الاول يفيد ان ليله ايضا ساكن وساكت كالنائم لايحرك ليلته شئ ولايموجه

طارق * واما جملة (وماكانوا مهتدين) اى كما خسروا واضاعوا المال كذلك قداضلوا الطريق فترشيح وتزيين كسابقتها لاسلوب اشتروا * وايضا فيها رمز خفى الى هدى للمتقين فى رأس السورة كأنه يقول اعطى القرآن الهداية فما قبل هؤلاء (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما اضائت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولوشاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شئ قدير) اعلم ان اساس اعجاز القرآن فى بلاغة نظمه وبلاغة النظم على قسمين قسم كالحلية وقسم كالحلة فالاول كاللآلى المنثورة والزينة المنثورة والنقش المرصع ومعدنه الذى يتحصل منه هو توخى المعانى النحوية الحرفية فيما بين الكلم كاذابة الذهب بين احجار فضة وثمرات هذا النوع هى اللطائف التى تعهد بيانها فن المعانى * والقسم الثانى هو كلباس عال وحلة فاخرة قدت من اسلوب على مقدار قامات المعانى وخيطت من قطعات خيطا منتظما فيلبس على قامة المعنى او القصة او الغرض دفعة وصناع هذا القسم والمتكفل به فن البيان * ومن اهم مسائل هذا القسم التمثيل * ولقد اكثر القرآن من التمثيلات الى ان بلغت الالف لان فى التمثيل سراً لطيفا وحكمة عالية اذ به يصير الوهم مغلوبا للعقل والخيال مجبورا للانقياد للفكر وبه يتحول الغائب حاضراً والمعقول محسوسا والمعنى مجسما وبه يجعل المتفرق مجموعاً والمختلط ممتزجا والمختلف متحداً والمنقطع متصلا والاعزل مسلحا * وان شئت التفصيل فاستمع مما يترنم به صاحب دلائل الاعجاز فى اسرار بلاغته * حيث قال (فصل فى مواقع التمثيل وتأثيره) اعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل اذا جاء فى اعقاب المعانى اوبرزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورتها الاصلية الى صورته كساها ابهة وكسبها منقبة ورفع من اقدارها وشب من نارها وضاعف قوبها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب اليها واثار لها من اقاصى الافئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على ان تعطيها محبة وشغفا * فان كان مدحا كان ابهى وافخم وانبل فى النفوس واعظم واهز للعطف واسرع للالف واجلب للفرح واغلب على الممدح واوجب شفاعة للمادح واسير على الالسن واذكر واولى بان تعلقه القلوب واجدر * وان كان ذما كان مسه اوجع وميسمه الذع ووقعه اشد وحده احد * وان كان حجاجا كان برهانه انور وسلطانه اقهر وبيانه ابهر * وان كان افتخاراً كان شأوه ابعد وشرفه اجد ولسانه ألد * وان كان اعتذاراً كان الى القلوب اقرب وللقلوب اخلب وللسخائم اسل ولغرب الغضب افل وفى عقد العقود انفث وعلى حسن الرجوع ابعث * وان كان وعظا كان اشفى للصدر وادعى الى الفكر وابلغ فى التنبيه والزجر واجدر بان تجلى العناية ويبصر الغاية ويبرأ العليل ويشفى الغليل وهكذا الحكم اذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت ابوابه وشعوبه انتهى * ثم ان فى الآيات الآتية دلائل اعجاز واسرار بلاغة فذكرناها هنا لمناسبتها لمسائل المقدمة الآتية فمثال التمثيل فى مقام المدح ما ذكره

القرآن فى وصف الصحابة من (ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) وقس نظائره * و فى مقام الذم (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث اوتتركه يلهث) و (مثلهم كمثل الحمار يحمل اسفاراً) و (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون) وقس * وفى مقام الاحتجاج والاستدلال (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) و(او كصيب من السماء فيه ظلمات الى آخره) و (مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء) و (مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) و (وانزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية اومتاع زبد مثله) و (وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا) وقس عليه * ونظير مثال الافتخار وان لم يسم افتخاراً بيان عظمته تعالى وكمالاته الالٓهية قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) وقس عليه *ومثال التمثيل فى مقام الاعتذار لايوجد الاحكايات اهل الاعذار الباطلة للاحتجاج عليهم كقوله (وقالوا قلوبنا غلف فى اكنة مما تدعوننا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) وقس ومن الشعر

لاتحسبوا ان رقصى بينكم طرب * فالطير يرقص مذبوحا من الالم

* ومثاله من الوعظ فى وصف نعيم الدنيا ماذكره القرآن من (كمثل الغيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما) و (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه) و (انا عرضنا الامانة على السموات والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) و(لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) و (فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) و (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) و(كمثل جنة بربوة اصابها وابل فطل) وفى احباط العمل الصالح بالايذاء والرياء (أيود احدكم ان يكون له جنة من نخيل واعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) و (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد) ومثاله من طبقات الكلام فى مقام الوصف (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا اوكرها قالتا اتينا طائعين) و(قيل ياارض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) و (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها) و (مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) و من الشعر

والليل تجرى الدرارى فى مجرته * كالروض تطفو على نهر ازاهيره

اعلم ان فى كل آية من هذه الآيات التمثيلية طبقات ومراتب وصور واساليب متنوعة كل منها فى كل منها كفيل وضامن لطائفة من الحقائق وكما انك اذا اخذت قوارير من فضة وزينتها بذوب الذهب ثم نقشتها بجواهر ثم صيرتها ذوات نور بادراج « الكتريق » ترى فيها طبقات حسن وانواع زينة كذلك فى كل من تلك الآيات من المقصد الاصلى الى الاسلوب التمثيلى قد شرعت اشارات ومدت رموز الى مقامات كأن اصل المقصد تدحرج على المراتب واخذ من كل لونا وحصة حتى صارت تلك الكلمات من جوامع الكلمات بل من جمع الجوامع

فصل ومقدمة

اعلم ان المتكلم كما يفيد المعنى ثم يقنع العقل بواسطة الدليل كذلك يلقى الى الوجدان حسيات بواسطة صور التمثيل فيحرك فى القلب الميل او النفرة ويهيئه للقبول فالكلام البليغ ما استفاد منه العقل والوجدان معا فكما يتداخل الى العقل يتقطر الى الوجدان ايضا والمتكفل لهذين الوجهين التمثيل اذ هو يتضمن قياسا وينعكس به فى مرآة الممثل القانون المندمج فى الممثل به فكأنه دعوى مدلل كما تقول فى رئيس يكابد البلايا لراحة رعيته الجبل العالى يتحمل مشاق الثلج والبرد وتخضر من تحته الاودية * ثم ان اساس التمثيل هو التشبيه ومن شأن التشبيه تحريك حس النفرة او الرغبة او الميلان او الكراهية او الحيرة او الهيبة فقد يكون للتعظيم او التحقير او الترغيب او التنفير او التشويه او التزيين او التلطيف الى آخره فبصورة الاسلوب يوقظ الوجدان وينبه الحس بميل او نفرة ثم ان مما يحوج الى التمثيل عمق المعنى ودقته ليتظاهر بالتمثيل او تفرق المقصد وانتشاره ليرتبط به * ومن الاول متشابهات القرآن اذ هى عند اهل التحقيق نوع من التمثيلات العالية واساليب لحقائق محضة ومعقولات صرفة ولان العوام لا يتلقون الحقائق فى الاغلب الا بصورة متخيلة ولا يفهمون المعقولات الصرفة الا باساليب تمثيلية لم يكن بد من المتشابهات (كاستوى على العرش) لتأنيس اذهانهم ومراعات افهامهم * ثم انى استخرجت فيما مضى من الزمان من اس اساس البلاغة مقدمة لبيان اعجاز القرآن ثنتى عشرة مسئلة كل منها خبط لحقائق ولما ذكر هذه الآيات التمثيلية هنا دفعة ناسب تلخيص تلك المسائل فنقول وبالله التوفيق **المسئلة الاولى** ان منشأ نقوش البلاغة انما هو نظم المعانى دون نظم اللفظ كما جرى عليه اللفظيون المتصلفون وصار حب اللفظ فيهم مرضا مزمنا الى ان رد عليهم عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز واسرار البلاغة وحصر على المناظرة معهم اكثر من مائة صحيفة * ونظم المعانى عبارة عن توخى المعانى النحوية فيما بين الكلمات اى اذابة المعانى الحرفية بين الكلم لتحصيل النقوش الغريبة وان امعنت النظر لرأيت ان المجرى الطبيعى للافكار والحسيات انما هو نظم المعانى ونظم المعانى هو الذى يشيد بقوانين المنطق واسلوب المنطق هو الذى يتسلسل به الفكر الى الحقائق والفكر الواصل الى الحقائق هو الذى ينفذ فى دقائق الماهيات ونسبها ونسب الماهيات هى الروابط للنظام الاكمل والنظام

الا كل هو الصدف للحسن المجرد الذى هو منبع كل حسن والحسن المجرد هو الروضة لازاهير البلاغة التى تسمى لطائف ومزايا وتلك الجنة المزهرة هى التى يجول ويتنزه فيها البلابل المسماة بالبلغاء وعشاق الفطرة واولئك البلابل نغماتهم الحلوة اللطيفة انما تتولد من تقطيع الصداء الروحانى المنتشر من انابيب نظم المعانى * والحاصل ان الكائنات فى غاية البلاغة قدانشأها وانشدها صانعها فصيحة بليغة فكل صورة وكل نوع منها بالنظام المندمج فيه معجزة من معجزات القدرة * فالكلام اذا حزى حزو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها والا بان توجه الى نظم اللفظ وقع فى التصنع والرياء كأنه يقع فى ارض يابسة وسراب خادع * والسر فى الانحراف عن طبيعة البلاغة انه لما انجذب واستعرب العجم بجاذبة سلطنة العرب صارت صنعة اللفظ عندهم اهم وفسد بالاختلاط ملكة الكلام المضرى التى هى اساس بلاغة القرآن وتلون معكس اساليب القرآن وانما معدنها من حسيات قوم « مضر » ومزاجهم فاستهوى حب اللفظ كثيرا من المتأخرين ﴿ تزييل ﴾ تزيين اللفظ انما يكون زينة اذا اقتضته طبيعة المعانى وشعشعة صورة المعنى انما تكون حشمة له اذا اذن به المآل وتنوير الاسلوب انما يكون جزالة اذا ساعده استعداد المقصود ولطافة التشبيه انما تكون بلاغة اذا تأسست على مناسبة المقصود وارتضى به المطلوب وعظمة الخيال وجولانه انما تكون من البلاغة اذالم تؤلم الحقيقة ولم تثقل عليها ويكون الخيال مثالا للحقيقة متسنبلا عليها * وان شئت الامثلة الجامعة لتلك الشرائط فعليك بتلك الآيات التمثيلية المذكورة ﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان السحر البيانى اذاتجلى فى الكلام صير الاعراض جواهر والمعانى اجساما والجمادات ذوات ارواح والنباتات عقلاء فيوقع بينها محاورة قد تجر الى المخاصمة وقد توصل الى المطايبة فترقص الجمادات فى نظر الخيال * وان شئت مثالا فادخل فى هذا البيت

يناجينى الاخلاف من تحت مطله * فتختصم الآمال واليأس فى صدرى

او استمع معاشقة الارض مع المطر فى

تشكى الارض غيبته اليه * وترشف ماءه رشف الرضاب

فهذه الصورة انما تسنبلت على تصوت الارض اليابسة بنزول المطر بعد تأخر ولابد فى كل خيال من نواة من الحقيقة نظير هذا المثال ولابد فى زجاجة كل مجاز من سراج الحقيقة والا كانت بلاغته الخيالية خرافة بلاعرق لاتفيد الاحيرة ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ اعلم ان كمال الكلام وجماله وحلته البيانية باسلوبه واسلوبه صورة الحقائق وقالب المعانى المتخذ من قطعات الاستعارة التمثيلية وكأن تلك القطعات « سيموطوغراف » خيالى كارائة لفظ الثمرة جنتها وحديقتها ولفظ « بارز » معركة الحرب * ثم ان التمثيلات مؤسسة على سر المناسبات بين الاشياء والانعكاسات فى نظام الكائنات واخطار امور اموراً كاخطار رؤية الهلال فى الثريا فى ذهن ابناء النخلة غصنها الابيض بالقدم المتقوس بتدلى العنقود * وفى التنزيل ﴿ حتى

عاد كالعرجون القديم) ثم ان فائدة اسلوب التمثيل كما فى الآيات المذكورة هى ان المتكلم بواسطة الاستعارة التمثيلية يظهر العروق العميقة ويوصل المعانى المتفرقة واذا وضع بيد السامع طرفا امكن له ان يجر الباقى الى نفسه وينتقل اليه بواسطة الاتصال فبرؤية بعض يتدرج شيأ فشيأ ولومع ظلمة الى تمامه * فمن سمع من الجوهرى ماقال فى وصف الكلام البليغ « الكلام البليغ مانقبته الفكرة » ومن الحمار ماقال فيه « ماطبخ فى مراجل العلم » ومن الجمال ماقال فيه « ماالخذت بخطامه وانخته فى مبرك المعنى » ينتقل الى تمام المقصد بملاحظة الصنعة * ثم ان الحكمة فى تشكل الاسلوب هى ان المتكلم بارادته ينادى ويوقظ المعانى الساكتة فى زوايا القلب كأنها حفاة عراة فيخرجون ويدخلون الخيال فيلبسون مايجدون من الصور الحاضرة بسبب الصنعة اوالتوغل اوالالفة اوالاحتياج ولااقل من لف منديل من تلك الصنعة برأسه اوالانصباغ بلون ما * وما تجده فى ديباجة الكتب من براعة الاستهلال من اظهر امثلة هذه المسئلة * ثم ان اسلوب الكلام قديكون باعتبار خيال المخاطب كما فى اساليب القرآن فلاتنس * ثم ان مراتب الاسلوب متفاوتة فبعضها ارق من النسيم اذا سرى يرمز اليه بهيآت الكلام وبعضها اخفى من دسائس الحرب لايشمه الاذو دهاء فى الحرب كاستشمام الزمخشرى من (من يحيي العظام وهى رميم) اسلوب « من يبرز الى الميدان » وان شئت فتأمل فى الآيات المذكورة ترى فيها مصداق هذه المسائل بالطف وجه * وان شئت زر الامام البوصيرى وانظر كيف كتب رجته باسلوب الحكيم فى قوله

واستفرغ الدمع من عين قدامتلئت * من المحارم والزم حمية الندم

ورمز الى الاسلوب بلفظ الحمية * اواستمع هدهد سليمان كيف اومأ الى هندسته بقوله (لايسجدون لله الذى يخرج الخبأ فى السموات والارض) ﴿ المسئلة الرابعة ﴾ اعلم ان الكلام انما يكون ذاقوة وقدرة اذا كان اجزائه مصداقا لما قيل

عباراتنا شتى وحسنك واحد * وكل الى ذاك الجمال يشير

بان يتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته ويأخذ كل بيد الآخر ويظاهره ويمد كل بقدره الغرض الكلى مع ثمراته الخصوصية كأن الغرض المشترك حوض يتشرب من جوانبه الرطبة فيتولد من هذه المجاوبة المعاونة ومنها الانتظام ومنه التناسب ومنه الحسن والجمال الذاتى * وهذا السر من البلاغة يتلألأ من مجموع القرآن لاسيما فى (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) كاسمعته مع التنظير بقوله (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) ﴿ المسئلة الخامسة ﴾ اعلم ان غناء الكلام وثروته ووسعته هو انه كما ان اصل الكلام يفيد اصل المقصد كذلك كيفياته وهيأته ومستتبعاته تشير وترمز وتلوح الى لوازم الغرض وتوابعه وفروعه فكأنما تترائى طبقة بعد طبقة ومقاما خلف مقام * وان شئت مثالا تأمل فى (اذاقيل لهم لاتفسدوا فى الارض الى آخره) (واذا لقوا الذين آمنوا الى آخره) على الوجه المفسر سابقا ﴿ المسئلة السادسة ﴾ اعلم ان المعانى المجتنات من خريطة الكلام المأخوذة المنقوشة « بفوطغراف »

اللفظ على انواع مختلفة ومراتب متفاوتة فبعضها كالهواء يحس به ولا يرى وبعضها كالبخار يرى ولا يؤخذ وبعضها كالماء يؤخذ ولا ينضبط وبعضها كالسبيكة ينضبط ولا يتعين وبعضها كالدر المنتظم والذهب المضروب يتشخص ثم بتأثير الغرض والمقام قد يتصلب الهوائى وقد تعتور على المعنى الواحد الحالات الثلاث * ألا ترى انه اذا ترامى خارجى فى وجدانك يتهيج قلبك فتثير الحسيات فيتطاير معان هوائية فيتولد ميول ثم يتحصل بعضها ثم يتشكل من ذلك البعض قسم ثم ينعقد من ذلك القسم بعض ففى كل من هذه الطبقات يتوضع وينعقد البعض ويبقى البعض الآخر معلقا كمعلقية بعض الصوت عند تشكل الحروف والتبن عند انعقاد الحبوب * فمن شأن البليغ ان يقيد بصريح الكلام ما تعلق به الغرض واقتضاه المقام وطلبه المخاطب ثم يحيل الطبقات الآخر بمقدار نسبة درجة القرب من الغرض على دلالة القيود واشارة الفحوى ورمز الكيفيات وتلويح مستتبعات التراكيب وتلميح الاساليب وايماء اطوار المتكلم * ثم ان من تلك المعانى المعلقة معانى حرفية هوائية ليس لها الفاظ مخصوصة ولا لها وطن معين بل كالسياح السيار قد يستتر فى كلمة وقد يتشرب به كلام وقد يتداخل فى قصة فان عصرت تقطر كالتحسر فى (انى وضعتها انثى) والتأسف فى «ليت الشباب الخ» والاشتياق والتمدح والخطاب والاشارة والتألم والتحير والتعجب والتفاخر وغير ذلك * ثم ان شرط حسن المعاشرة بين تلك المعانى المتزاحمة تقسيم العناية والاهتمام على نسبة خدمتها للغرض الاساسى * وان شئت مثالا لهذه المسئلة فمن رأس السورة الى هنا مثال بين على الوجه المشروح سابقا ﴿المسئلة السابعة﴾ اعلم ان الخيال المندمج فى اسلوب لابد ان يتسنبل على نواة حقيقة ويكون كالمرآة فى ان ينعكس به فى المعنويات القوانين والعلل المندرجة فى سلسلة الخارجيات * وفلسفة النحو التى هى المناسبات المذكورة فى كتبه ايضا من هذا القبيل كما يقال الرفع للفاعل لان القوى يأخذ القوى وقس عليه ﴿المسئلة الثامنة﴾ اعلم ان سيبويه نص على ان الحروف التى تعدد معانيها كمن والى والباء وغيرها اصل المعنى فيها واحد لا يزول لكن باعتبار المقام والغرض قد يتشرب معنى معلقا ويجذبه الى جوفه فيصير المعنى الاصلى صورة واسلوبا لمسافره وكذلك ان العارف بفقه اللغة اذا تأمل عرف ان اللفظ المشترك فى الاغلب معناه واحد ثم بالمناسبات وقع تشبيهات ثم منها مجازات ثم منها حقائق عرفية ثم يتعدد حتى ان العين التى معناه الواحد البصر والمنهل يطلق على الشمس ايضا بالرمز الى ان العالم العلوى ينظر الى العالم السفلى بها او ان ماء الحيات الذى هو الضياء يسيل من ذلك المنبع فى الجبل الابيض المشرف وقس ﴿المسئلة التاسعة﴾ اعلم ان اعلى مراتب البلاغة الذى يعجز الارادة الجزئية والفكر الشخصى والتصور البسيط هو ان يحافظ ويراعى وينظر المتكلم دفعة نسب قيود الكلام وروابط الكلمات وموازنة الجمل التى يظهر كل مع الآخر نقشا متسلسلا الى النقش الاعظم حتى كان المتكلم استخدم عقولا الى عقله كالبانى لقصر يضع الاحجار المتلونة بوضعية تحصل بها نقوش غريبة من مناظرة وموازاة الكل مع الكل كالعين فى الخط امشترك بين الخلفاء الراشدين ومن اظهر مسائل هذه المسئلة قوله تعالى

(الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) على ماسمعت سابقا * وايضا من اسباب علو الكلام ان يكون كشجرة النسب يتسلسل متناسلا الى المقصد التى تتدلى على المقام والغرض وايضا من اسباب رفعة طبقة الكلام ان يكون مستعدا لاستنباط كثير من الفروع والوجوه كقصة موسى على نبينا وعليه السلام ﴿المسئلة العاشرة﴾ اعلم ان سلاسة الكلام المنتجة للطافته وحلوه هو ان يكون المعانى والحسيات المندمجة فيه ممتزجة تحدا ومختلفة تنتظم لئلا يتشرب الجوانب قوة الافادة والغرض بل يجذب المركز القوة من الاطراف * وايضا من السلاسة ان يتعين المقصد وايضا منه ان يتظاهر ملتقى الاغراض ﴿المسئلة الحادية عشر﴾ اعلم ان سلامة الكلام التى هى سبب صحته وقوته هى ان يكون الكلام بحيث يشير الى المبادى والدلائل ويرمز الى اللوازم والتوابع وبقيود الموضوع والمحمول وكيفياتهما يؤمى الى رد الاوهام ودفع الشبهات كأن كل قيد جواب لسؤال مقدر وان شئت مثالا فعليك بفاتحة الكتاب ﴿المسئلة الثانية عشر﴾ اعلم ان الاساليب على ثلاثة انواع احدها الاسلوب المجرد الذى لونه واحد وخاصته الاختصار والسليقية والسلامة والاستقامة فهو املس سوى ومحل استعماله المعاملات والمحاورات والعلوم الآلية * وان شئت مثالا سليسا منه فعليك بكتب السيد الجرجانى * والثانى الاسلوب المزين وخاصته التزيين والتنوير وتهييج القلب بالتشويق او التنفير والمقام المناسب له الخطابيات كالمدح والذم وغيرهما والاقناعيات ونظائرهما واذا تحريت المثال المزين فادخل فى دلائل الاعجاز واسرار البلاغة ترى منها جنانا مزينة * والثالث الاسلوب العالى وخاصته الشدة والقوة والهيبة والعلوية الروحانية ومقامه المناسب الالهيات والاصول والحكمة * وان شئت مثلا بينا وتمثالا معجزا فعليك بالقرآن فان فيه مالا عين رأت ولا خطر على قلب بليغ انتهى الفصل بتلخيص * ثم اعلم ان مدار النظر فى آيتنا هذه وهى (مثلهم كمثل الذى استوقد الخ) اولا نظمها بسابقها وثانيا النظم بين جملها وثالثا نظم كيفية جملة جملة فمع استحضار ما مضى اعلم ان القرآن لما صرح بحقيقة حال المنافقين ونص على جناياتهم عقبها بالتمثيل لثلاث نكت * احديها تأنيس الخيال الذى هو اطوع للمتخيلات من المعقولات * وتأمين اطاعة الوهم الذى شأنه التشكيكات ومعارضة العقل وانقياده باظهار الوحشى بصورة المأنوس وتصوير الغائب بصورة الشاهد * والثانية تهييج الوجدان وتحريك نفرته ليتفق الحس والفكر بتمثيل المعقول بالمحسوس * والثالثة ربط المعانى المتفرقة واراءة رابطة حقيقية بينها بواسطة التمثيل * وايضا الوضع نصب عين الخيال ليجتنى بالنظر الدقائق التى اهملها اللسان * واعلم ان مآل جمل هذه الآية كما يناسب مآل مجموع قصة المنافقين كذلك يناسب آية آية منها الا ترى ان مآل القصة انهم آمنوا صورة للمنافع الدنيوية ثم تبطنوا الكفر ثم تحيروا وترددوا ثم لم يتحروا الحق ثم لم يستطيعوا الرجوع فيعرفوا وما انسب هذا بحال من اوقدوا لهم نارا اومصباحا ثم لم يحافظوا عليها ثم انطفت ثم اظلموا ثم لايترااى لهم شئ حتى يكون كل شئ معدوما فى حقهم فلسكون الليل كانهم صم ولتعامى الليل وانطفاء انواره كأنهم عمى ولعدم المخاطب والمغيث لايستغيثون كأنهم بكم ولعدم استطاعة الرجوع كأنهم اشباح جامدة لاارواح لها * ثم ان فى المشبه به نقطا اساسية تناظر النقط اساسية فى المشبه مثلا الظلمة تنظر الى الكفر والحيرة الى التذبذب والنار الى الفتنة وقس ﴿ان قلت﴾

ان فى التمثيل نوراً فاين نور المنافق حتى تم تطبيق التمثيل ﴿ قيل لك ﴾ ان لم يكن فى الشخص نور ففى محيطه يمكن له الاستنارة وان لم ففى قومه يمكن الاستضائة وان لم ففى نوعه يمكن له الاستفادة وان لم ففى فطرته كان يمكن له الاستفاضة كامر وان لم تقنع ففى لسانه بالنظر الى نظر غيره او بالنظر الى نفسه لترتب المنافع الدنيوية وان لم فباعتبار البعض الذى آمنوا ثم ارتدوا وان لم فيجوز ان يكون النور اشارةً الى ما استفادوا كما ان النار اشارة الى الفتنة وان لم ترض بهذا ايضا فبتنزيل امكان الهداية منزلة وجودها كما اشار اليه (اشتروا الضلالة بالهدى) فانه هو جار الجنب للتمثيل ❊ اما وجه النظم بين الجمل فاعلم ان نظم جملة (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) مناسبتها للموقع نعم حال هذا المستوقد على هذه الصورة تطابق مقتضى حال الصف الاول من مخاطبي القرآن وهم ساكنوا جزيرة العرب ❊ اذ ما منهم الا وقد عرف هذه الحالة بالذات اوبالتسامع ويحس بدرجة تأثيرها ومشوشيتها اذ بسبب طلم الشمس يلتجؤن الى ظلمة الليل فيسيرون فيها وكثيراً مايغمى عليهم السماء فيصادفون حزن الطرق وقد يجربهم الطريق الى الورطة ❊ وايضا قد يجولون فى معاطف الكهوف المشحونة بالمؤذيات فيضلون الطريق فيحتاجون لايقاد النار اواشتعال المصباح ليبصروا رفقائهم حتى يستأنسوا ويروا اهبتهم واشيائهم كى يحافظوا عليها ويعرفوا طريقهم ليذهبوا فيها ويتراآى لهم الضوارى والمهالك ليجتنبوا فبيناهم استضاؤا بنورهم اذ اختطفته آفة سماوية وبيناهم فى ذروة كمال الرجاء وآن الظفر بالمطلوب اذ سقطوا فى حضيض اليأس المطلق فنص على هذا الحال بقوله (فلما اضاأت ماحوله ذهب الله بنورهم) اعلم ان هذه الفاء تشير الى انهم اوقدوا النار ليستضيؤا فاضائت فاطمئنوا بالاستضائة فتعقبهم الخيبة وسقطوا فى ايديهم وما اشد تأثير العدم عليهم فى آن انتظار الحصول ❊ ثم ان هذه الشرطية تستلزم استلزام الاضائة لذهاب النور وخفاء هذا الاستلزام يشير الى تقدير مايظهر به اللزوم هكذا فلما اضائت استضاؤا بها فاشتغلوا فلم يحافظوا فلم يهتموا بها ولم يعرفوا قدر النعمة فيها فلم يمدوها فلم يديموها فانطفت ❊ لانه لما كانت الغفلة عن الوسيلة للاشتغال بالنتيجة بسر ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى سببا لعدم الادامة المستلزم للانطفاء كان كأن نفس الاضائة سبب لذهاب النور ❊ اما جملة (وتركهم فى ظلمات) فبعد ما اشار الى خسرانهم بذهاب النعم بزوال النور عقبه بخذلانهم بنزول النقم بالسقوط فى الظلمات ❊ اما جملة (لايبصرون) فاعلم ان الانسان اذا اظلم عليه واضل السبيل فقد يسكن ويتسلى برؤية رفقائه ومرافقه واذا لم يبصرهما كان السكون مصيبة عليه كالحركة بل اوحش ❊ اما (صم بكم عمى فهم لايرجعون) فاعلم ان الانسان اذا وقع فى مثل هذا البلاء قد يتسلى ويأمل ويرجو النجاة من جهات اربع مترتبة فاولا يرجو ان يسمع تناجى الخلق من القرى اوابناء السبيل ان يستمد يمدوه ولما كانت الليلة ساكنة بكماء استوى هو والاصم فقال (صم) لقطع هذا الرجاء وثانيا يأمل انه ان نادى اواستغاث يحتمل ان يسمع احد فيغيثه ولما كانت الليلة صماء كان ذو اللسان

والابكم سواء فقال (بكم) لالقامهم الحجر بقطع هذاالرجاء ايضا ❊ وثالثا يأمل الخلاص
برؤية علامة اونار اونير تشيرله الى هدف المقصد ولما كانت الليلة طامية رمداء عبوسة عمياء
كان ذوالبصر والاعمى واحداً فقال (عمى) لاطفاء هذاالامل ايضا ❊ ورابعاً لايبقى لهالاان
يجهد فىالرجوع ولمااحاط به الظلمة كان كمن دخل فى وحل باختياره وامتنع عليه الخروج
❊ نعم كم من امر تذهب اليه باختيارك ثم يسلب عنك الاختيار فىالرجوع عنه تخليه انت
ولايخليك هو فقال تعالى (فهم لايرجعون) لسد هذاالباب عليهم وقطع آخر الحبل الذى
يتمسكون به فسقطوا فىظلمات اليأس والتوحش والسكونة والخوف ❊ اما الجهة الثالثة اعنى
نظم قيودات جملة جملة فانظر الى (مثلهم كمثلالذى استوقد ناراً) كيف تتطاير شرارات
النكت من قيوداتها ❊ امالفظ المثل فاشارة الى غرابة حال المنافقين وان قصتهم العجوبة
اذالمثل هوالذى يجول علىالالسنة و يتناقله الناس لتضمنه لغرابة اذاخص صفاته الغرابة ثم
لاندماج قاعدة اساسية فىالامثال يقال لها «حكمة العوام» وفلسفة العموم فالمراد بالمثل هنا
صفتهم الغريبة وقصتهم العجيبة وحالهم الشنيعة ففىالتعبير بالمثل مجازاً اشارة الى الغرابة وفى
الاشارة رمز الى ان من شأن صفتهم ان تدور على لسان النفرة والتلعين كضرب المثل
❊واماالكاف ﴿فان قلت﴾ انحذفكان تشبيها بليغا فهو ابلغ ﴿قيل لك﴾ الابلغ فىهذاالمقام
ذكرهاذالتصريح به يوقظ الذهن بان ينظر الى المثال تبعيا فينتقل عن كل نقطة مهمة منهالىنظيرها
من المشبه والا فقديتوغل فيه قصداً فيفوت منه دقائق التطبيق ❊ واماالمثل الثانى فاشارة
الىان حال المستوقد بغرابته ووجوده فىحس العموم كان فىحكم ضرب المثل ❊ واماالذى
﴿فان قلت﴾ كيفافرد معانهمجاعة ﴿قيل لك﴾ اذاتساوى الجزء و الكل والفرد والجماعة
ولم يؤثر الاشتراك فىصفة الفرد زيادة ونقصانا جاز الوجهان مثل كمثل الحمار ففى افراده
اشارة الى استقلال كل فرد فى تمثل الدهشة وتصوير شناعتهم اوكان الذى الذين فاختصر
❊ واما استوقد ففيه اشارة الى التكلف والتحرى وفى افراده مع جمع الضمير فى نورهم
رمز لطيف الى ان فرداً يوقدلجماعة ولقد الطف فىالافراد ايقاداً والجمع استنارة ❊ واما
(ناراً) بدل المصباح اوغيره فاشارة الىالمشقة فىنور التكليف ورمز الىانهم يوقدون تحت
النور الظاهرى نار فتنة ❊ واما تنكيره فايماء الى شدة احتياجهم حتى انهم يرضون بأية نار
كانت ❊ ثماجل النظر فيما حول جملة (فلما اضائت ماحوله ذهبالله بنورهم) لترى كيف
تضئ قيوداتها على ظلمات الدهشة التى هى الغرض الاساسى ولقد سمعت فىالمسئلة الرابعة
ان قوة الكلام بتجاوب القيود ❊اماالفاء فايماء الى ان هجوم اليأس المطلق تعاقب كمال الرجاء
❊ واما (لما) فلتضمنه قياسا استثنائيا مستقيما مع دلالته على تحقق المقدم ينتج تحقق التالى
وقطع التسلى ❊ واما (اضائت) فاشارة الى ان الايقاد للاستنارة لاللاصطلاء وفيه رمزالى
شدة الدهشة اذما افادلهم الاضائة الارؤية المهالك والعلم بوجودها ولولاها لامكن مغالطة
النفس وتسكينها ❊ واما (ماحوله) فاشارة الى احاطة الدهشة من الجهات الاربع والىلزوم

التحفظ بالاضائة عن هجوم الضرر عن الجهات الست * واما (ذهب) فلانه جزاء الشرط لابد ان يكون لازما و لخفاء اللزوم كأمر يرمز الى انهم لم يتعهدوها ولم يعرفوا قدر النعمة فبا فبنفس الاضائة اخذوا عن انفسهم و انساهم البطر و الفرح تعهدها فاخذها الله عنهم * واما اسناد (ذهب) الى الله فاشارة الى قطع رجائين رجاء التعمير ورجاء الرحمة لانه يشير الى ان الآفة سماوية لاتقبل التعمير ويرمز الى انه جزاء لقصور المرء ولهذا يأخذالله تعالى فينقطع المتمسك به عند انقطاع الاسباب وهوامل الرحمة اذلايستعان من الحق على ابطال الحق * واما الباء فاشارة الى اليأس عن العود اذلاراد لما اخذه الله للفرق البين بين ذهب به اى استصحبه وبين اذهبه اى ارسله وذهب اى انطلق لامكان العود فى الاخرين دون الاول * واماالنور ففيه ايماء لطيف الى تذكر حالهم على الصراط * واماالاضافة فى (هم) المفيدة للاختصاص فاشارة الى شدة تأثرهم اذ من انطفت ناره فقط مع ان نار الناس تلتهب اشد تألما * ولله درالتنزيل ما الطفه فى فنون البلاغة ألم تر كيف توجهت هيأتها الى الغرض الكلى اعنى الدهشة مع اليأس كالحوض فى ملتقى الاودية * ثم امعن النظر فى (وتركهم فى ظلمات لايبصرن) اما الواو فاشارة الى انهم جمعوا بين الخسارتين سلبوا ضياءً والبسوا ظلمةً * اما (ترك) بدل ابقى اوغيره فاشارة الى انهم صاروا كجسد بلا روح وقشر بلا لب فمن شأنهم ان يتركوا سدى ويلقوا ظهريا * واما (فى) فرمز الى انه انعدم فى نظرهم كل شئ ولم يبق الاعنوان العدم وهوالظلمة فصارت ظرفاً وقبراًلهم * واما جمع (ظلمات) فايماء الى ان سواد الليل وظلمة السحاب اولدتا فى روحهم ظلمة اليأس والخوف وفى مكانهم ظلمة التوحش والدهشة وفى زمانهم ظلمة السكون والسكوت فاحاطت بهم ظلمات متنوعة واما تنكيرها فايماء الى انها مجهولة لهم لم يسبق لهم الفة بمثلها فتكون اشد وقعا * واما (لايبصرون) فتنصيص على اساس المصائب اذ من لم ير كان ارأى للبلايا وبفقدالبصر يبصر اخفى المصائب * واما المضارعية فلتصوير وتمثيل حالهم نصب عين الخيال ليرى السامع دهشتهم فيتحسس بوجدانه ايضا * واماترك المفعول فللتعميم اى لايرون منافعهم ليحافظوها * ولايبصرون المهالك كى يجتنبوا عنها * ولايتراأى الرفقاء ليستأنسوا بهم * فكأن كل واحد فردبرأسه * ثم انظر الى جمل (صم بكم عمى فهم لايرجعون) لتسمع ماتناجى به اذهذه الاربعة حدمشترك بين المثل والممثل به وبرزخ بينهما ومتوجهة اليهما تتكلم عن حال الطرفين ومرآة لهما تريك شأنهما ونتيجة لهما تسمعك قصتهما * اما الجهة الناظرة الى الممثل به فاعلم ان من سقط فى مثل هذه المصيبة يبقى له رجاء النجاة باستماع نجوى منج فاستلزمت ابكمية الليلة اصميته ثم اسماع مغيث فاقتضت اصمية الليل ابكميته * ثم الهدى برؤية نار اونير فانتج تعامى الليل عميه ثم العود الى بدأ فانسد عليه الباب كمن سقط فى وحل كلما تحرك انغمس * واماالجهة الناظرة الى الممثل فاعلم انهم لماوقعوا فى ظلمات الكفر والنفاق امكن لهم النجاة عن تلك الظلمات بطرق اربعة مترتبة * فاولا كان عليهم ان يرفعوا رؤسهم ويستمعوا الى الحق ويصغوا

الى ارشاد القرآن لكن لماصارت غلغلة الهوى مانعة لان يخلص صداء القرآن الى صماخهم واخذ التهوس بآذانهم جاراً لهم عن تلك الطريق نعى عليهم القرآن بقوله (صم) اشارة الى انسداد هذا الباب ورمزاً الى ان آذانهم كأنها قطعت وبقيت ثقبات مشوهة اوقطعات متدلية فى جوانب رؤسهم * وثانيا لابدلهم ان يخفضوا رؤسهم ويشاوروا وجدانهم فيسئلوا عن الحق والصراط لكن لما اخذ العناد على يد لسانهم وجره الحقد من خلف الى الجوف القمهم القرآن الحجر بقوله (بكم) اشارةً الى انسداد هذا الباب ايضا فى وجوههم ورمزاً الى انهم بالسكوت عن الاقرار بالحق كانوا كمن قلع لسانه فبقى الفم ككهف خلا عن ساكنه مشوها للوجه * وثالثا لزمهم ان يرسلوا انظار العبرة لتجتنى لهم الدلائل الآفاقية لكن وضع التغافل يده على عيونهم ورد وطرد التعامى الانظار الى اجفانهم فقال القرآن (عمى) اشارة الى انهم عموا عن هذا الطريق ايضا ورمز بحذف اداة التشبيه الى ان عيونهم التى هى انوار الرأس كأنها قلعت فبقيت نقرات مشوهة فى جباههم * ورابعا لابد من ان يعرفوا قبح حالهم القبيح ليتنفروا فيندموا فيتوبوا فيرجعوا لكن لمازينت لهم انفسهم لاجل فساد الفطرة بالاصرار وغلبة الهوى والشيطان تلك القبائح قال القرآن ﴿فهم لايرجعون﴾ اشارة الى انسداد آخر الطرق عنهم ورمزاً الى انهم وقعوا باختيارهم فيما لااختيار لهم فى الخروج كالمضطرب فى بحر الرمل ﴿او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شئ قدير﴾ اعلم ان مدار النظر فى هذه الآية ايضا من ثلاثة وجوه نظمها بسابقها والنظم بين جملها ثم النظر بين هيآت جملة جملة مثلها فى الارتباط كمثل الاميال العادة للساعات والدقائق والثوانى * اما وجه النظم بينها وبين سابقها فهو انه كرر التمثيل واطنب فى التصوير اشارةً الى احتياج تصوير حال المنافقين فى دهشتهم وحيرتهم الى نوعين منه * اذ خلاصة التمثيل الاول هى ان المنافق يرى نفسه فى صحراء الوجود منفردة عن الاصحاب مطرودة عن جمعية الكائنات خارجة عن حكم شمس الحقيقة يصير كل شئ فى نظره معدوما ويرى المخلوقات اجنبية كلها ساكتة وساكنة استولى عليها الوحشة والخمود واين هذا من حال المؤمن الذى يرى بنور الايمان كل الموجودات احبائه ويستأنس بكل الكائنات * وخلاصة التمثيل الثانى هى ان المنافق يظن ان العالم باجزائه ينعى عليه بمصائبه ويهدده ببلاياه ويصيح عليه بحادثاته ويحيط به بنوازله كأن الانواع اتفقوا على عداوته فانقلب النافع ضارا * وما هذه الحالة الا لعدم تقطى الاستمداد والاستناد كامر واين هذا من حال المؤمن الذى يسمع بالايمان تسبيحات الكائنات وتبشيراتها * وايضا تكرار التمثيل ايماء الى انقسام المنافقين الى الطبقة السفلية العامية المناسبة للتمثيل الاول والى الطبقة المتكبرة المغرورة الموافقة للتمثيل الثانى * واما مناسبة هذا التمثيل لمقامه بالنظر الى السامع فهى ان الصف الاول من مخاطبى القرآن ابناء الفيافى يفترشون الصحارا

ويخيمون بفسطاس السماء وما منهم الا وقدرأى بنفسه اوسمع من ابناء جنسه مثل هذه الحادثة حتى استأنس بها حس العموم بحيث تؤثر فيه كضرب المثل ❊ واما مناسبته للتمثيل الاول فاظهر من ان يخفى اذهو كالتكملة والتتمة له مع الاتحاد فى كثير من النقط واما مناسبة التمثيل للمثل له فبخمسة وجوه ❊ منها وقوعهما كليهما فى شدة الحيرة بانسداد كل طرق النجاة عليهم وبان ضل جميع اسباب الخلاص عنهم ❊ ومنها وقوعهما فى شدة الخوف حتى تخيل كل من المشبه والمشبه به ان الموجودات اتفقت على عداوته ولايأمن من بقائه فى كل دقيقة ❊ ومنها وقوعهما فى شدة الدهشة المنتجة لاختبال العقل حتى ان كلا منهما يشبه كمثل من يرى برق السيوف فيتحفظ بغمض بصره اويسمع تقتقة البنادق فيتجنب عن الجرح بسد سمعه اوكمثل من لايحب غروب الشمس فيمسك دولاب ساعته لئلايدور جرخ الفلك الدوار فما اخبلهم اذالصاعقة لاتنتى بسد الاسماع والبرق المحرق لايترحم عليهم بغض الابصار ومن هنا يرى ان لم يبق لهم ممسك ❊ ومنها ان الشمس والمطر والضياء والماء كما انها منابع حيات الازاهير وتربية النباتات وسبب تعفن الميتات ونتن القاذورات كذلك ان الرحمة والنعمة اذالم تصادفا موقعهما المنتظر لهما والعارف بقيمتهما تنقلبان زحمة ونقمة ❊ ومنها انه كما يوجد التناسب بين المآلين الذى هو الاصل فى انعقاد الاستعارة التمثيلية بلانظر الى تطبيق الاجزاء كذلك يوجد مناسبات هنا بين اجزائهما اذالصيب حياة النباتات كما ان الاسلامية حياة الارواح والبرق والرعد يشيران الى الوعد والوعيد والظلمات تريك شبهات الكفر وشكوك النفاق ❊ واما وجه النظم بين الجمل فاعلم ان التنزيل لماقال (او كصيب من السماء) مشيراً الى انهم كالذين اضطروا الى السفر فى صحراء متوحشة فى ليلة مظلمة تحت مطر شديد كأن قطراته مصائب تصيب مرماها بصوبها وقد ملئت الجو بكثرتها استيقظ ذهن السامع منتظراً لبيان السبب فى ان صار الصيب الذى هو فى الاصل رحمة مرغوبة مصيبة هائلة فقال مصوراً لدهشته (فيه ظلمات) مشيراً الى ان المطر كما هو ظرف لظلمة السحاب والكثافة كذلك لاجل عمومه وكثرته واحاطته كأنه ظرف لليلة المتفتة قطرات مسودة بين قطراته ثم ما من سامع يسمع (فيه ظلمات) الا وينتظر لبيان كأن المتكلم سمع صداء الرعد من ذهن السامع فقال (ورعد) مشيراً الى تهويل الحال وتشديدها بان السماء امين الموجودات عزمت على اهلاكهم وتصيح عليهم برعدها اذالمصاب المدهوش تخيل من الكائنات المتعاونة على اضراره حركة مزعجة تحت سكونها ونطقا مهيبا تحت سكوتها فاذ سمع الرعد توهم انها تتكلم بمايهدده وتصيح عليه اذبالخوف يحسب كل صيحة عليه ❊ ثم ان السامع لايسمع الرعد الا ويستهل فيبرق فى ذهنه رفيقه الدائمى ولذلك قال (وبرق) مشيراً بالتنكير الى انه غريب عجيب نعم هو فى نفسه عجيب اذبتولده يموت عالم من الظلمات فتطوى وتلقى الى العدم وبموته فجأة يحيى ويحشر عالم من الظلمات كأنه نارحين ماانطفى تورث ملأ الدنيا دخانا ❊ ومن شأن المصاب بها ان يمعن النظر ولايمر بنظر سطحى

بناء على الالفة والمناسبة حتى يتكشف عن دقائق صنع القدرة ثم بعد هذاالتصوير كأن ذهن السامع تحرك سائلا كيف يعملون وبما يتشبثون فقال ﴿ يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ مشيراً الى ان لامناص ولاملجأ ولامنجألهم حتى انهم كالغريق يتمسكون بما لايتمسك به فمن التدهش يستعملون الاصابع موضع الانامل كأن الدهشة تضرب على ايديهم فيدخلون الاصابع من الوجع فى الآذان ومن التبله انهم يسدون الآذان لئلا تصيبهم الصواعق ثم بعد هذا تجرى ذهن السامع سائلا أعمت المصيبة ام خصت فيرجى فقال ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ مشيراً الى ان هذه المصيبة جزاء لكفرانهم النعمة يؤاخذهم الله تعالى به لشذوذهم عن القانون الالٓهى المودع فى الجمهور ثم لماسمع شدة الرعد يحدث نفسه بألا يفيدهم البرق بارائة الطريق فقال ﴿ يكاد البرق يخطف ابصارهم ﴾ مشيراً الى انه كما ان الرعد يعاديهم فلايستطيعون السمع كذلك البرق يخاصمهم باضائته فيظلم ابصارهم ثم بعد سماع تجاوب الكائنات على عداوتهم ينادى ذهن السامع بفما مصير حالهم ومايفعلون وبه يشتغلون فقال ﴿ كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ﴾ مشيراً الى انهم مشوشون مترددون متحيرون مترقبون لادنى فرصة ولادنى رؤية للطريق فكما تراأت لهم يتحركون لكن لحركة المذبوح لاضطراب ارواحهم ويخطون خطى يسيرة مع علمهم بان لافائدة وكما غشيتهم الظلمة فجأة يجمدون فى مقامهم ثم يستعد ذهن السامع للاستفسار بلم لايموتون اويعمون اويصمون بالمرة فيخلصون عن الاضطراب فقال ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ﴾ اى ليسوا مستحقين للخلاص عن الاضطراب ولهذا لاتتعلق المشيئة باماتتهم ولو تعلقت لتعلقت بذهاب سمعهم وبصرهم لكن بقاء السمع لاستماع العقاب ووجود البصر لرؤية العذاب اجدر بمن شذ ونشز عن قانونه تعالى ثم ان هذه القصة لما احتوت على نقاط يتلوح من معاطفها استطراداً العظمة والقدرة الالهية وتصرفه تعالى فى الكائنات ولاسيما يتذكر السامع تبعا فى تلافيفها عجائب الرعد والبرق والسحاب كان من حق السامع المتيقظ وجدانه ان يعلن ويقول سبحانه مااعظم قدرة من هذه الكائنات تجلى هيبته وهذه المصيبات تجلى غضبه فقال ﴿ ان الله على كل شئ قدير ﴾ واما نظم هيأت جملة جملة فاعلم ان او فى (او كصيب) اشارة الى انقسام حال الممثل الى قسمين ورمز الى تحقيق المناسبة بين التمثيلين وبينهما وبين الممثل له وايماء الى مسلمية المشابهة ※ وايضا متضمن لبل الترقية اذ التمثيل الثانى اشد هولا ※ وان (كصيب) لعدم مطابقته للممثل يقتضى تقدير لازم والسكوت عن اظهار المقدر للايجاز والايجاز فى اللفظ لاطناب المعنى باحالته على خيال السامع بالاستمداد من المقام فبعدم المطابقة كأنه يقول اوكالذين سافروا فى صحراء خالية وليلة مظلمة فاصابتهم مصائب بصيب ※ وان العدول عن لفظ المطر المأنوس المألوف الى الصيب رمز الى ان قطرات ذلك المطر كمصائب ترمى اليهم بقصد فتصيبهم مع فقد الساتر عليهم ※ وان ذكر (من السماء) مع بداهة ان المطر لايجئ الامن جهتها ايماء بالتخصيص الى التعميم وبالتقييد الى الاطلاق نظير التقييد فى ﴿ ومامن دابة فى الارض ﴾

(وما من طائر يطير بجناحيه) اى مطبق آخذ بآفاق السماء وما استدل بعض المفسرين بلفظ (من السماء) هنا وفى آية (وننزل من السماء من جبال فيها من برد) على نزول المطر من جرم السماء حتى تخيل (بعض) وجود بحر تحت السماء فنظر البلاغة لايرى عليه سكة الحقيقة بل المعنى من جهة السماء والتقيد لماعرفت وقدقيل السماء ماعلاك فالسحاب كالهواء سماء * وتحقيق المقام هو انك ان نظرت الى القدرة تتساوى الجهات اى يمكن النزول من أية جهة كانت وان نظرت الى الحكمة الالهية المؤسسة للنظام الاحسن فى الاشياء المستلزم لمحافظة الموازنة العمومية المرجحة لاقرب الوسائل فالمطر انما هو من تكاثف البخار المائى المنتشر فى كرة الهواء التى احد اجزائها العشرة ذلك البخار المائى المنتشر فى اعماقها * وتوضيحه ان ذراته اذا امرها الارادة الالهية يتمثل كل ويتسللن من الاطراف ومن كل فج عميق فيتحزبن سحابا هامراً ثم بارادة آمرها يشتد تكاثف بعض فتصير قطرات تأخذها بايديهم الملائكة الذين هم ممثلو القوانين ومعكس النظامات لئلا يزاحم ويصادم بعض بعضا فيضعونها على الارض ولاجل محافظة الموازنة فى الجو لابد من بدل ماتحلل بالتقطر فيبخر البحر والارض فيملأ منازلها * واما تخيل «بعض» وجود بحر سماوى فمحمله انه تصور المجاز حقيقة اذ لارائة خضرة الجو لون البحر ولاحتواء الجو على ماء اكثر من البحر المحيط مااستبعد تشبيهه بالبحر * اما (وننزل من السماء من جبال فيها من برد) فاعلم ان الجمود على الظاهر مع التوقد فى استعارتها جمود بارد وخمود ظاهر اذكما تضمن (قوارير من فضة) استعارة بديعة كذلك يحتوى (من جبال فيها من برد) على استعارة بديعة عجيبة مستملحة فكما ان ظروف الجنة لم تكن من الزجاجة ولا من الفضة بل فى شفافية الزجاج وبياض الفضة ومن حيث ان الزجاجة لاتكون من الفضة لتخالف النوعين اشار الى الاستعارة بالاضافة بذكر (من) كذلك (من جبال فيها من برد) متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعرى بالنظر الى السامع وذلك الخيال مبنى على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين تمثل العالم العلو وتشكل العالم السفلى وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الارض والجو فى لبس الصور من يد القدرة كأن الارض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حلل الثلج والبرد فى الشتاء والمتعممة بها فى الربيع ثم تزينت فى الصيف ببساتينها المتلونة فاظهرت فى نظر الحكمة بانقلاباتها معجزة القدرة الالهية قابلها جو السماء محاكيا لها مسابقا معها لاظهار معجزة العظمة الالهية فبرز متبرقعا ومتقمصا بالسحاب المتقطع جبالا واطواداً واودية والمتلون بالوان مختلفة مصورة لبساتين الارض ملوحا ذلك الجو باجلى دلائل العظمة واجلها * فبناء على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخيالى استحسن اسلوب العرب تشبيه السحاب لاسيما الصيفى بالجبال والسفن والبساتين والاودية وقافلة الابل كما تسمع من العرب فى خطبهم فيخيل الى نظر البلاغة ان قطعات السحاب الصيفى سيارة وسباحة فى الجو كأن الرعد راعيها وحاديها كلما هز عصا برقه على رؤسهم فى البحر المحيط الهوائى اهتزت تلك القطعات وارتجت * وترائت جبالا صادفت الحشر * اوسفنا يلعب بها يد العاصفة *

اوبساتين ترججها من تحتها الزلزلة * اوقافلة شردت من هجوم قطاع الطريق * ومع ذلك يسيرون ويجرون بامر خالقهم حتى كأن كل ذرة من ذرات ذلك البخار تمكنت فى مكانها اولا ساكنة ساكتة منتظرة لامر خالقها ولما ناديها الرعد كالآلة المعروفة فى العسكر يحى على الاجتماع والاتحاد تسارعوا من منازلهم مهطعين الى داعيهم فيحشرون سحابا * ثم بعد ايفاء الوظيفة وامرهم بالاستراحة يطير كل الى وكره * فبناء على هذه المناسبة الخيالية وعلى المجاورة بين السحاب والجبال اذالجبل لجذب الرطوبة يتظاهر ويتشكل السحاب عليه بمقداره ويلبس لباسه وعلى تلون السحاب بنظير بياض الثلج والبرد وتكيفه برطوبتهما وبرودتهما وعلى وجود الاخوة بينهما ومبادلة الصورة واللباس لهما فى كثير من مواضع القرآن ومصافحتهما فى منازل التنزيل كمحاورتهما ومعانقتهما فى كثير من سطور صحيفة الارض من كتاب العالم فترى السحاب متوضعا على الجبل ويصير الجبل كأنه مرسى لسفن السحاب ترسى عليه اومجلس تتشاور عليه اووكر تطير اليه استحق بحكم المجاورة فى نظر البلاغة ان يتبادلان ويستعيران لوازمهما فيعبر عن السحاب بالجبل مع تناسى التشبيه * فاذ قد عرفت ماسمعت من المناسبات (فتنزل من السماء) اى من جهة السماء (من جبال) اى من سحاب كالجبال (من برد) اى فى لونه ورطوبته وبرودته * فياهذا ما اجبرك مع وجود هذا التأويل الذى تقبله البلاغة على اعتقاد نزول المطر بدقيقتين من مسافة خمس مائة سنة المخالف لحكمة الله الذى اتقن كل شئ صنعا * اما هيأت جملة (فيه ظلمات) المسوقة للتهويل فتقديم «فيه» اشارة الى ان خيال المصاب المدهوش والسامع المستحضر خياله لتلك الحال يتوهم ان ظلمات الليالى الكثيرة افرغت بتمامها فى تلك الليلة * واما الظرفية مع ان الصيب مظروف فرمز الى ان المتدهش بتلك المصيبة يظن فضاء العالم حوضا قدملئ من المطر فما الليل الامظروف مفتت بين اجزائه * واما جمع الظلمات فايماء الى تنوعها من ظلمة سواد السحاب وكثافته وانطباقه ومن تقارب دفعات المطر وتكاثف قطره ومن تضاعف ظلمة الليل * واما تنكير ظلمات فللاستنكار ولجهل المخاطب فهو تأكيد ظلمات * واما جملة (ورعد وبرق) فاعلم ان المقصد تصوير حيرتهم ودهشتهم وان المصاب المتحير يجمع تمام دقته ونظره الى ادنى حادث فلامعان النظر يتفطنون لما فى الرعد والبرق من الانقلابات العجيبة والتحول الغريب اذ بينما يرى المصابون ظلمة استولت على الكائنات وابتلعت الموجودات نظير العدم فينقلب حيرتهم بالغم اليتمى والسكوت الميتى اذيرون اظهر دلائل الوجود وهوتكلم العلويات ثم ظهورها بكشف الحجاب فينقلب نظرهم الى نظر المدهوش المتحير الخائف * اذكما انهم اذا رأوا ظلمات غير محصورة فى فضاء غير متناه لاضعف بجانب يبقى لهم املا ينظرون نظر اليأس كذلك اذا فاجأهم بغتة انعدام الظلمات بان افرغت من الفضاء وملئ بدلها نوراً ينقلب يأسهم المطلق الى رجاء * اعلم ان الرعدوالبرق آيتان ظاهرتان من جهة العالم الغيبي فى ايدى الملائكة الموكلين على عالم السحاب لتنظيم

قوانينه ثم ان الحكمة الالهية ربطت الاسباب بالمسببات فاذا تشكل السحاب من بخار الماء المنتشر فى الهواء صار قسم حاملا للالكتريق المنفى وقسم حاملا للالكتريق المثبت فحينما يتقاربان يتصادمان دفعة فيتولد البرق ثم بالهجوم والانقلاع دفعة وامتلاء موضعه بآخر لعدم الخلو يهتز وتموج الطبقات فيتولد صداء الرعد ولاتجرى هذه الحالات الا تحت نظام وقانون يتمثلهما ملك الرعدوالبرق * واماظرفية الصيب لهما مع ان الظرف هوالسحاب فلان المدهوش والسامع المتدهش بدهشته يرى الصيب محيطا بكل شئ لاحاطته بنفسه * واما افراد الرعد والبرق مع جمع الظلمات فاشارة الى ان منشأ الدهشة تخيل المصاب تكلم السماء وتهديدها بالارعاد وكشف الحجاب بالابراق وهما معنى مصدرى لا الكلام واليد البيضاء وايضا كل منهما نوع واحد وان تعددت افراده * واماتنوين (رعد وبرق) فبدل من الصفة اى رعدقاصف وبرق خاطف ودالة على عدم الالفة بهما بسبب التفطن بالدقة لمافيهما من العجائب * وايضا فيها ايماء الى انهم لايعرفون ذلك الرعد والبرق لسد السمع وغض البصر * واماهيأت جملة (يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذرالموت) فاعلم انها جواب لسؤال مقدر واستيناف حسن اذالسامع لماتوجه الى هذه القصة الحسية التمثيلية حصل له ميلان شديد لكشف حال المصيبة ثم بعدان كمل التصوير التصوير وقضى منه الوطر انثنى مجرى الميلان الى كشف حال المصاب فكأنه يقول السائل كيف حال المصاب حينئذ وبمه يتشبث للنجاة فاجاب القرآن بقوله (يجعلون اصابعهم الخ) اى لامناص لهم وانهم كالغرقى يتمسكون بغيرمتمسك فيريدون التحفظ من مجانيق السماويين بسد الاسماع وكونه سببا محال فلاسبب *واما لفظ (يجعلون) بدل يدخلون فايماء الى انهم تحروا الاسباب فماصادفوا الاما سببيته بجعلهم وظنهم فقط * وصورة المضارع المستحضرة للحال فرمز الى ان السامع فى مثل هذاالمقام المهيج للحيرة يحضر بخياله زمان الواقعة ومكان الحادثة * ثم فى المضارع استمرار تجددى وفى استمراره ايماء الى تواتر تقتقة السحاب * واما (اصابعهم) بدل انامِلهم فاشارة الى شدة الحيرة باستعمال الاصابع موضع الانامل * واما (فى آذانهم) فايماء الى شدة الخوف من صداء الرعد حتى يخيل اليهم انه لو دخل الرعد فى شبكة الآذان لطير الارواح من ابواب الافواه وفيه رمز لطيف الى انهم لمالم يفتحوا آذانهم لنداء الحق والنصيحة عوقبوا من تلك الجهة بنعرات الرعد فسدوا هنا ماسدوا هناك كمن اخرج كلاما شنيعا من فيه يضرب على فمه فيدخل يمين الندامة فى فيه ويضع يسار الخجالة على عينه * واما (من الصواعق) فاشارة الى اتحاد الرعد والبرق على اضراره اذالصاعقة صوت شديد معه نار محرقة تصرع من صادف * واما (حذرالموت) فاشارة الى ان البلاء جذاللحم الى العظم وجاز الاحوال الى الحيات فمايعنيهم الا غم الموت وحفظ الحيات * واماهيأت جملة (والله محيط بالكافرين) فاعلم ان الواو تقتضى المناسبة وماالمناسبة الا بين هذه وبين التابع لمآل السابقة فكأن هذه الواو تقرأ عليهم دهم قوم فروا من العمارة ونفروا من الحضارة وعصوا قانون كون الليل سباتا ولم يطيعوا نصيحة الناصح فظنوا النجاة بالخروج الى الصحراء فخابوا واحاطبهم بلاء الله * واماالفظ

(الله) فرمز الى قطع آخر رجائهم اذالمصاب انما يلتجئ ويتسلى اولا و آخراً الى رحمة الله فحين استحقوا غضب الله تعالى انطفى ذلك الرجاء * واما لفظ (محيط) فايماء الى ان هذه المصائب المحيطة آثار غضبه تعالى فكما ان السماء والسحاب والصيب والليل تهجم عليهم من الجهات الست كذلك غضبه تعالى وبلياته محيطة بهم * وايضا علمه تعالى وقدرته محيطان بكل الكائنات وامره شامل لكل الذرات فكأن (محيط) يتلو عليهم لاتنفذوا من اقطار السموات والارض وايماتولوا فثمه وجه الله * واما تعلق الباء فرمز الى انهم وقعوا فيما هربوا عنه فصاروا هدفا للسهام واما التعبير بالكافرين فاشارة الى اراءة تمثال الممثل اعنى المنافقين فى مرآة التمثيل لئلا يتوغل فيه ذهن السامع فينسى المقصد * ورمز الى ان المشابهة وصلت الى درجة وتضايق المسافة بينهما الى حد يتراآن معا فتمتزج الحقيقة بالخيال * وايضا ايماء الى ظلمة قلوبهم اذوجدانهم ايضا يعذبهم لقصورهم وجنايتهم اذ من رأى جزاء جنايته لايستريح وجدانه * واما هيأت جملة (يكاد البرق يخطف ابصارهم) فاستينافها يشير الى ان السامع يقول ألا ينتفعون بالبرق المخفف لبلاء الظلمة عنهم فاجيب بأنهم يخافون من الضرر فضلا عن الفائدة * واما (يكاد) فيشير باعتبار خاصته المشهورة الى وجود سبب زوال البصر لكن لم يزل لوجود مانع * واما (يخطف) باعتبار استعماله كاختطفته الغول والعقاب ففيه بلاغة لطيفة تبرق للذهن وتشير الى ان البرق يسارق شعاع العين من قبل ان يصل الى الاشياء ليأخذ صورها يمر هو عليه فيقطعه ويضرب على جفنه فيذهب بنوره كأن نور العين لما خرج من بيته مسرعا لاجتناء صور الاشياء يسارع البرق الذى هو شعاع عين الليل فيأخذ من يد شعاع العين صورته قبل ايصاله الى المخزن اى يختلس البرق صورته من يده * واما (ابصارهم) فرمز بناء على كونها مرآة للقلوب الى عمى بصائر المنافقين المتعامية عن البراهين القاطعة القرآنية * واما هيأت جملة (كلما اضاء لهم مشوا فيه و اذا اظلم عليهم قاموا) فاستينافها يشير الى ان السامع حينما رأى اختلاف المصيبة وتغيرها سئل عن شأنهم فى الحالتين فاجيب بذلك * واما (كلما) فى الاضائة و (اذا) فى الاظلام فاشارة الى شدة حرصهم على الضياء ينتهزون ادنى الضياء فرصة * وايضا كلما متضمن لقياس مستقيم استثنائى * واما (اضاء لهم) بلام الاجلية والنفع فرمز الى ان المصاب المدهوش يستغرق فى حاجة نفسه حتى يظن الضياء الذى تنشره يد القدرة فى العالم لآلاف حكم كلية انه المراد به خاصة ويد القدرة انما ارسلته لاجله * واما (مشوا) مع اقتضاء الفرصة السير السريع فاشارة الى ان المصيبة اقعدتهم فما سيرهم السريع الامشى وحركة على مهل * واما (فيه) فاشارة الى ان مسافة حركتهم الضياء الذى هو لون الزمان فكأنه يحددلهم المكان * واما (واذا) فالواو رمز الى تجديد المصيبة لتشديد التأثير * واما الاهمال والجزئية فى (اذا) عكس (كلما) فاشارة الى شدة نفرتهم وتعاميهم فتأخذهم وهم منغمسون فى آن الفرصة * واما (اظلم) بالاسناد الى البرق فاشارة الى ان الظلمة بعد الضياء اشد وايماء الى ان خيال المصاب لما رأى البرق طرد الظلمة ثم ذهب وامتلاء موضعه بالظلمات تخيل انه انطفى واورث دخانا

* واما (عليهم) الملوح بالضرر فاشارة الى ان الاظلام ليس تصادفيا بل جزاء لعملهم ورمز الى ان المدهوش يتخيل الظلمة المالئة للفضاء كأنها تقصد من بين الاشياء ذلك الانسان الصغير الذليل وتجعله خاصة هدف هجومها واضرارها * واما (قاموا) بدل سكنوا فاشارة الى انهم بالمصيبة وشدة التشبث تقوسوا كالراكعين كما هوشأن المجدين فى العمل * واما هيأت جملة (ولو شاءالله لذهب بسمعهم) فالواو بسر الربط تلوح الى ان يد القدرة تتصرف تحت حجاب الاسباب وان نظر الحكمة يراقب من فوق جميع العلل * واما (لو) فتضمنة لقياس استثنائى غير مستقيم اى عدم المشيئة علة لعدم ذهابهما كما ان عدم الذهاب دليل على العلم بعدم المشيئة بذهابهما * وايضا رمز الى ان السبب بلغ النهاية * واما (شاء) فاشارة الى ان الرابط بين السبب والمسبب انما هى المشيئة والارادة الالهية فالتأثير للقدرة وما الاسباب الاحجاب العزة والعظمة لئلا تباشر يدالقدرة بالامور الخسيسة فى ظاهر نظر العقل * واما التصريح بلفظة الله فاشارة الى زجر الناس عن الابتلاء بالاسباب والانغماس فيها * وايضا لدعوة الاذهان الى رؤية يدالقدرة خلف كل الاسباب * واما حذف مفعول (شاء) وان كان واجبا بالقاعدة المطردة فيجوز بقرينة اخواته ان يكون ايماء الى عدم تأثر المشيئة والارادة الالهية باحوال الكائنات وعدم تأثير الاشياء فى الصفات الالهية كما تتأثر ارادة البشر بحسن الاشياء وقبحها وعظمتها وصغرها * واما (لذهب فاشارة الى ان الاسباب ليست مسلطة ومستولية على المسببات حتى اذا رفعت بقيت المسببات فى جوف العدم يلعب بها يدالتصادف وتشتتها بالاتفاق بل يد القدرة حاضرة خلف الاسباب اذا اخرجت الاشياء تأخذها يدالحكمة الالهية بقانون الموازنة والانتظام ترسلها الى مواقع اخر ولاتهملها كما ان الحرارة اذاخربت بنية الماء فبالنظام المندمج فى الهواء يذهب البخار فى مجرى معين ويسوقه صانعه الى موقع معين * وكذا فى ذهب رمز الى ان الحواس الخمس الظاهرة ليست متولدة عن الطبيعة ولالازمة لتجاويف السمع والبصر بل انما هى هداياه تعالى وعطاياه وما التجاويف والاسباب الاشرائط عادية * واما التعدية بالباء بدل الهمزة فايماء الى ان يدالقدرة لاتطلق الاشياء عن حبل الاسباب غاربها على عنقها بل تضع ازمتها بيد نظام * واما افراد السمع مع جمع البصر فاشارة الى افراد المسموع وتعدد المبصر اذا الف رجل يسمعون شيأ واحداً مع تخالف المبصرات * واما هيأت جملة (ان الله على كل شئ قدير) فاعلم انها فذلكة لتحقيق الدهشة فى التمثيل والممثل له تشير الى انه كما لاتهمل دقائق احوال المصابين المتمثلة لجزئيات احوال المنافقين كذلك يرى فى كل ذرة تصرف القدرة الالهية واما (ان) فمع اشارتها الى ان هذا الحكم من الحقائق الراسخة رمز الى عظمة المسئلة ووسعتها ودقتها وعجز البشر وضعفه وقصوره عنها المولدة للاوهام المنتجة للتردد فى اليقينيات * واما التصريح بلفظة الله فايماء الى دليل الحكم اذ القدرة التامة الشاملة لازمة للالوهية * واما (على) فايماء الى ان القدرة المخرجة للاشياء من العدم لاتتركها سدى هملاً بل ترقب عليها الحكمة

وتربيها * واما (كل) فاشارة الى ان آثار الاسباب والحاصل بالمصدر من الافعال الاختيارية ايضا بقدرته تعالى * واما لفظ (شئ) بمعنى مشئ اى تعلقت به المشيئة فاشارة الى ان الموجودات بعد وجودها لاتستغنى عن الصانع بل تفتقر فى كل آن لبقائها الذى هو تكرر الوجود الى تأثير الصانع * واما لفظ (قدير) بدل قادر فرمز الى ان القدرة ليست على مقدار المقدورات فقط وانها ذاتية لاتغير فيها ولازمة لاتقبل الزيادة والنقصان لعدم امكان تخلل ضدها حتى تترتب شدة ونقصانا وتلويح الى ان القدرة كالجنس وكميزان الصرف اعنى (فعل) لجميع الاوصاف الفعلية من الرزاق والغفار والمحيي والمميت وغيرها تفكر فيما سمعت حق التفكر (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون) مقدمة اعلم ان العبادة هى التى ترسخ العقائد وتصيرها حالا وملكة اذ الامور الوجدانية والعقلية ان لم تمها وتربها العبادة التى هى امتثال الاوامر واجتناب النواهى تكن آثارها وتأثيراتها ضعيفة * وحال الاسلام الحاضرة شاهدة * واعلم ايضا ان العبادة * سبب لسعادة الدارين * وسبب لتنظيم المعاش والمعاد * وسبب للكمال الشخص والنوعى * وهى النسبة الشريفة العالية بين العبد وخالقه * اما وجه سببيتها لسعادة الدنيا التى هى مزرعة الآخرة فمن وجوه * منها ان الانسان خلق ممتازاً ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب انتج ذلك المزاج فيه ميل الانتخاب وميل الاحسن وميل الزينة وميلانا فطريا الى ان يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالانسانية * ثم لاجل تلك الميول احتاج الانسان فى تحصيل حاجاته فى مأكله وملبسه ومسكنه الى تلطيفها واتقانها بصنائع جمة لايقتدر هو بانفراده على كلها ولهذا احتاج * الى الامتزاج مع ابناء جنسه * ليتشاركوا * فيتعاونوا * ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم لكن لما لم يحدد الصانع الحكيم قوى البشر الشهوية والغضبية والعقلية بحد فطرى لتأمين ترقيهم بزمبرك الجزء الاختيارى لا كالحيوانات التى حددت قويها (حصل انهماك) وتجاوز * ثم لانهماك القوى وتجاوزها بسر عدم التحديد تحتاج الجماعة الى العدالة فى تبادل ثمرات السعى * ثم لان عقل كل احد لايكفى فى درك العدالة احتاج النوع الى عقل كلى للعدالة يستفيد منه عقل العموم * وماذلك العقل الاقانون كلى * وماهو الا الشريعة * ثم لمحافظة تأثير تلك الشريعة وجريانها لابد من مقنن وصاحب ومبلغ ومرجع وماهو الا النبى عليه السلام * ثم ان النبى لادامة حاكميته فى الظواهر والبواطن وفى العقول والطبائع يحتاج الى امتياز وتفوق مادةً ومعنى سيرةً وصورةً خلقا وخلقا ويحتاج ايضا الى دليل على قوة المناسبة بينه وبين مالك الملك صاحب العالم وما الدليل الا المعجزات * ثم لتأسيس اطاعة الاوامر وتأمين اجتناب النواهى يحتاج الى ادامة تصور عظمة الصانع وصاحب الملك فى الاذهان وماهو الا تجلى العقائد * ثم لادامة التصور ورسوخ العقائد يحتاج الى مذكر مكرر وعمل متجدد وما المذكر المكرر الا العبادة * ومنها ان العبادة لتوجيه الافكار

الى الصانع الحكيم ❊ والتوجه لتأسيس الانقياد ❊ والانقياد للايصال الى الانتظام الاكمل والارتباط به ❊ واتباع النظام لتحقيق سر الحكمة ❊ والحكمة يشهد عليها اتقان الصنع فى الكائنات ❊ ومنها ان الانسان كالشجر الذى علق على ذروته كثير من خطوط الآلة البرقية قد التفت على رئسه رؤس نظامات الخلقة وامتدت مشرعة اليه قوانين الفطرة وانعكست متمركزة فيه اشعة النواميس الآلهية فى الكائنات فلابد للبشر ان تممها وربطها وينتسب اليها ويتشبث باذيالها ليسرى بالجريان العمومى حتى لايزلق ولايطرد ولايلقى عن ظهر هذه الدواليب المتحركة فى الطبقات وماهى الا بالعبادة التى هى امتثال الاوامر واجتناب النواهى ❊ ومنهـا ان بامتثال الاوامر واجتناب النواهى يحصل للانسان نسب كثيرة الى مراتب عديدة فى الهيئة الاجتماعية فيصير الشخص كنوع اذ كثير من الاوامر لاسيما التى لها تماس بالشعائر والمصالح العمومية كالخيط الذى نيط به حيثيات ونظم فيه حقوق لولاه لتمزقت وتطايرت ❊ ومنها ان الانسان المسلم له مناسبات ثابتة وارتباط قوى مع كل المسلمين وهماسببان لاخوة راسخة ومحبة حقيقية بسبب العقائد الايمانية والملكات الاسلامية اما سبب ظهور تلك العقائد وتأثيرها وصيرورتها ملكة راسخة فانما هى العبادة ❊ واما جهة الكمال النفسى فاعلم ان الانسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيوان من الحيوانات ينطوى على روح غال ويحتوى على استعداد كامل ويتبطن ميولا لا حصر لها ويشتمل على آمال لانهاية لها ويحوز افكاراً غير محصورة ويتضمن قوى غير محدودة مع ان فطرته عجيبة كأنه فهرستة للانواع والعوالم ❊ فالعبادة هى السبب لانبساط روحه وجلاء قيمة ❊ وايضا هى العلة لانكشاف استعداده ونموه ليناسب السعادة الابدية ❊ وكذا هى الزريعة لتهذيب ميوله ونزاهتها ❊ وهى الوسيلة لتحقيق آماله وجعلها مثمرة ريانة ❊ وكذلك هى الواسطة لتنظيم افكاره وربطها ❊ وايضـا هى السبب لتحديد قواه والجامها ❊ وايضا هى الصيقل لرين الطبيعة على اعضائه المادية والمعنوية التى كل منها كأنه منفذ الى عالم مخصوص ونوع اذائف ❊ وايضا هى الموصل للبشر الى شرفه اللائق وكماله المقدر اذا كانت بالوجدان والعقل والقلب والقالب ❊ وكذلك هى النسبه اللطيفة العالية والمناسبة الشريفة الغالية بين العبد والمعبود وتلك النسبة هى نهاية مراتب كمال البشر ❊ ثم ان الاخلاص فى العبادة هو ان تفعل لانه امر بها وان اشتمل كل امر على حكم كل منها يكون علة للامتثال الا ان الاخلاص يقتضى ان تكون العلة هى الامر فان كانت الحكمة علة فالعبادة باطلة وان بقيت مرجحة فجائزة ❊ ثم ان المخاطبين لما سمعوا (ياايها الناس اعبدوا) استفسروا بلسان الحال ما الحكمة ولم وما المجبورية ولاى شئ اما الحكمة فقد سمعت فى المقدمة واما العلة فاجاب القرآن باثبات الصانع وتوحيده بقوله (ربكم الذى خلقكم) الخ واثبات النبوة بقوله (وان كنتم فى ريب مما نزلنا الخ) مقدمة فى نكات هذه الآية اعلم ان البرهان اما لمى وهو الاستدلال بالمؤثر على الاثر واما انى وهو الاستدلال بالاثر على المؤثر وهذا اسلم وهو اما امكانى بالاستدلال بتساوى الطرفين على المرجح ❊

واما حدوثى بالاستدلال بالتحول والتبدل على الموجد وكل منها اما باعتبار ذوات الاشياء اوباعتبار صفاتها وكل منهما اما باعطاء الوجود اوبادامة البقاء وكل منها اما دليل اختراعى اودليل عنايى وهذه الآية اشارة الى هذه الانواع فالملخص منها هنا وقدفصلناه فى كتاب آخر اما دليل العناية على اثبات الصانع الذى يلوح به هذه الآية هو (النظام المندمج فى الكائنات) اذالنظام خيط نيط به المصالح والحكم فجميع الآيات القرآنية التى تعد منافع الاشياء وتذكر حكمها (انما هى نساجة لهذالدليل) ومظاهر لتجلى هذا البرهان اذالنظام المرعى به المصالح والحكم كما يثبت وجود نظام كذلك يدل على قصد الصانع وحكمته وينفى من البين وهم التصادف الاعمى والاتفاقية العمياء * ياهذا ان لم يحط نظرك بهذا النظام العالى المزين بفصوص الحكم ولاتقتدر على الاستقراء التام فانظر بجواسيس الفنون التى هى الحواس لنوعك الحاصلة من تلاحق الافكار الذى هو فى حكم فكر النوع لترى نظاما يبهر العقول وتعلم ان كل فن من فنون الكائنات كشاف بكلية قواعده عن اتساق وانتظام لايعقل اكمل منهما اذكل نوع من الكائنات اما تشكل فيه فن اويقبل ان يتشكل والفن عبارة عن قواعد كلية وكلية القاعدة تدل على حسن النظام اذما لانظام له لاتجرى فيه الكلية * الاترى ان قولنا كل عالم فهو ذوعمامة بيضاء انما يصدق كلية اذا كان فى ذلك النوع انتظام فانتج ان كل فن من الفنون الكونية بسبب كلية قواعده ينتج بالاستقراء التام نظاما كاملا شاملا وان كل فن برهان نير يشير الى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد فى حلقات سلاسل الموجودات ويلوح الى الحكم والفوائد المستترة فى معاطف انقلابات الاحوال فترفع الفنون اعلام الشهادة على قصدالصانع وحكمته كأن كل فن نجم ثاقب فى طرد شياطين الاوهام * وان شئت فعليك بهذالمثال مع قطع النظر عن العموم وهو ان الحيو ان المكر سكوبى الذى لايرى بالعين بلا واسطة اشتملت صورته الصغيرة على ماكينة دقيقة بديعة الصنعة فبالضرورة والبداهة ان تلك الماكينة المكنة فى ذاتها وصفاتها ماوجدت بنفسها بلا علة لامكان ذاتها وصفاتها واحوالها والممكن متساوى الطرفين ككفتى الميزان ولووجد الترجح لكان فى العدم فباتفاق العقلاء لابدلها من علة مرجحة ومن المحال ان تكون العلة اسبابا طبيعية اذما فيها من النظام الدقيق يقتضى نهاية علم وكمال شعور لايمكن تصورهما فى تلك الاسباب التى يخادعون انفسهم بها مع انها اسباب بسيطة قليلة جامدة لم يتعين مجاريها ولم يتحدد محاركها مع ترددها بين الوف من الامكانات التى لا اولوية لبعضها فكيف تجرى فى مجرى معين وتحرك على محرك محدود وكيف يترجح بعض وجوه الامكانات حتى يتولد هذه الماكينة العجيبة المنتظمة التى حيرت العقول فى دقائق حكمها بل انما تقنع نفسك وتطمئن بتولدها منها ان اعطيت لكل ذرة شعور افلاطون وحكمة جالينوس واعتقدت بين تلك الذرات مخابرة عمومية وماهذه الاسفسطة يخجل منها السوفسطائى معان اس الاسباب المادية وجود القوة الجاذبة والقوة الدافعة معا فى جزء لايتجزى والجوهر الفرد وان هذا

كاجتماع الضدين * نعم قانون الجاذبة والدافعة وامثالهما اسماء لقوانين عادات الله تعالى وشريعته الفطرية المسماة بالطبيعة فهذا القوانين مقبولة بشرطان لا تنتقل من القاعدية الى الطبيعية وان لا تخرج من الذهنية الى الخارجية وان لا تحول من الاعتبارية الى الحقيقية وان لا تترقى من الآلتية الى المؤثرية فاذ تفهمت ما فى هذا المثال ورأيت عظمته مع صغره ووسعته مع ضيقه فارفع رأسك وانظر فى الكائنات ترى وضوح دليل العناية وظهوره بمقدار درجة وسعة الكائنات فكل الآيات القرآنية العادة لنعم الاشياء والمذكرة لفوائدها (مظاهر لهذا الدليل) فكلما امر القرآن بالتفكر فانما اشار مخاطبا للعموم الى طريق هذا الاستدلال (فارجع البصر هل ترى من فطور) * ثم ان الذى يؤمى الى هذا الدليل من هذه الآية قوله تعالى ﴿الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ واما الدليل الاختراعى المشار اليه بقوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم) فهو ان الله تعالى اعطى لكل فرد ولكل نوع وجوداً خاصا هو منشأ آثاره المخصوصة ومنبع كمالاته اللائقة اذ لا نوع يتسلسل الى الازل لامكانه ولبطلان التسلسل ولان هذا التغير فى العالم يثبت حدوث بعض بالمشاهدة وبعض آخر بالضرورة العقلية ثم انه قد ثبت بعلم الحيوانات والنباتات تكثر الانواع الى ازيد من مأتى الف نوع ولكل نوع آدم واب عال فبسر الحدوث والامكان يثبت بالضرورة صدور تلك الاوادم والاباء للانواع عن يد القدرة الالهية بلا واسطة ولا يتوهم فيها ما يتوهم فى السلسلة وتوهم انشقاق الانواع بعضها عن بعض باطل لان النوع المتوسط لا يتسلسل بالتناسل فى الاكثر فلا يكون رأس سلسلة فاذا كان المبدء والاصل هكذا فاجزاء السلسلة كذلك بالطريق الاولى * نعم كيف يتصور ان تكون الاسباب الطبيعية البسيطة الجامدة التى لا شعور لها ولا اختيار قابلة لايجاد تلك السلاسل التى تحيرت الافهام فيها ولاختراع افرادها التى كل منها صنعة عجيبة من معجزات القدرة فكل الافراد مع سلاسلها تشهد بلسان حدوثها وامكانها شهادة قاطعة على وجوب وجود خالقها جل جلاله ﴿ان قلت﴾ فمع هذه الشهادة القاطعة كيف يعتقد الانسان بامثال ضلالات ازلية المادة وحركتها ﴿قيل لك﴾ ان النظر التبعى قد يرى المحال ممكنا كالمستهل الذى رأى الشعرة البيضاء من اهدابه هلال العيد لان الانسان بسبب جوهره العالى وماهيته المكرمة انما يدور خلف الحق والحقيقة وانما يقع الباطل والضلال فى يده بلا اختيار ولا دعوة ولا تحر بل بنظره السطحى التبعى فيقبله اضطراراً لانه لما تغافل عن النظام الذى هو خيط الحكم وتعامى عن ضدية الحركة والمادة للازلية احتمل عند نظره التبعى اسناد هذا النقش البديع والصنعة العجيبة الى التصادف الاعمى والاتفاق الاعور كما قال الجسرى فى من دخل قصراً مزينا مشتملا على آثار المدنية من انه حينما لا يرى صاحبا فيعتقد عدمه يضطر لاسناد زينته واساسه الى الاتفاق والتصادف وناموس الانتخاب الطبيعى * وايضا لما تعامى وتغافل عن شهادة كل الحكم والفوائد فى نظام العالم على اختيار تام وعلم شامل وقدرة كاملة احتمل فى نظره التبعى اثبات تأثير حقيقى لهذه الاسباب الجامدة * فيا هذا مع قطع النظر عن دقائق صنعته جل جلاله تأمل فى اظهر

الآثار التى تسمى طبيعة وهو الارتسام بشرط ان تمزق حجاب الالفة كيف تقنع نفسك ويقبل عقلك ان خاصية وجه المرآة علة مؤثرة مناسبة لكشط وجه السماء وجلب صورة ارتفاعها ونقشها بنجومها فى زجيجتها وكيف يقنع عقلك بان الامر الوهمى فى الحقيقة المسمى بالجاذب العمومى علة مؤثرة كخيط المنجنيق لامساك الارض والنجوم وتحريكها وتدويرها بانتظام محكم * الحاصل ان الانسان اذا نظر نظراً سطحيا تبعيا الى الامر الباطل المحال ولم ير العلة الحقيقية احتمل صحته عنده الا انه اذا نظر اليه قصداً وبالذات وتحراه مشتريا له لا يمكن ان يقبل شيأ من تلك المسائل التى يطنطنون بها فى الحكميات الا ان يبدله بفرض عقل الحكماء وحكمة السياسين فى الذرات ﴿ان قلت﴾ فما الطبيعة والنواميس والقوى التى يدمدمون بها ويسلون انفسهم بها ﴿قيل لك﴾ ان الطبيعة (مسطر) لامصدر و(مطبعة) لاطابع و(قوانين) لاقوة بل احكام (شريعة فطرية الهية) اوقعت نظاما بين افعال اعضاء جسد عالم الشهادة * كما ان الشريعة محصل وخلاصة قواعد الافعال الاختيارية * ونظام الدولة مجموع دساتير السياسية فكما ان الشريعة والنظام امران معقولان اعتباريان كذلك الطبيعة امر اعتبارى ملخص عادة الله الجارية فى الخلقة * واما توهم وجودها الخارجى فكتوهم الوحشى الذى يرى فرقة من العسكر يتحركون بانتظام وجود امر خارجى ربط بينهم فمن كان وجدانه وحشيا يتخيل الطبيعة بسبب الاستمرار موجوداً خارجيا مؤثراً * الحاصل ان الطبيعة صنعة الله تعالى وشريعته الفطرية * واما نواميسها فمسائلها * واما قواها فاحكام تلك المسائل اما دليل التوحيد الذى اشار اليه (اعبدوا) على تفسير ابن عباس اى وحدوا فاعلم ان القرآن المعجز البيان ما ترك من دلائل التوحيد شيأ وما تضمنته آية (لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) من برهان التمانع دليل كاف ومنار نير على ان الاستقلال خاصة ذاتية ولازم ضرورى للالوهية * ثم فى هذه الآية رمز الى دليل لطيف على التوحيد وهو ان تعاون الارض والسماء ومناسبتهما فى توليد الثمرات لتعيش نوع البشر وجنس الحيوان ومشابهة آثار العالم وتعانق اطرافه واخذ بعض يد بعض بتكميل بعض انتظام بعض وتجاوب الجوانب وتلبية بعض لسؤال حاجة بعض ونظر الكل الى نقطة واحدة وحركة الكل بالانتظام على محور نظام واحد تلوح بل تصرح بان صانع هذه الماكينة الواحدة واحد وتتلو على كل

وفى كل شئ له آية * تدل على انه واحد

ثم اعلم ان الصانع كما انه واجب الوجود وواحد كذلك انه متصف بجميع الاوصاف الكمالية لان ما فى المصنوع من فيض الكمال انما هو مقتبس من ظل تجلى كمال صانعه * فبالضرورة يوجد فى الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو اعلى بدرجات غير متناهية من عموم ما فى عموم الكائنات من الحسن والكمال والجمال * اذ الاحسان فرع لثروة المحسن ودليل عليها * والايجاد لوجود الموجد والايجاب لوجوب الموجب والتحسين لحسن المحسن المناسب له * وكذلك ان الصانع منزه عن جميع النقائص لان النواقص انما تنشأ

عن عدم استعداد ماهيات الماديات وهو تعالى مجرد عن الماديات * وكذلك انه تعالى مقدس عن لوازم واوصاف نشئت من امكان ماهيات الكائنات وهو سبحانه واجب الوجود ليس كمثله شئ جل جلاله ولقد اشار الى هذين الحقيقتين بقوله (فلاتجعلوا لله انداداً) * اما الدليل الامكانى المشار اليه بقوله تعالى (هو الغنى وانتم الفقراء) فاعلم ان كل واحدة من ذرات الكائنات * باعتبار ذاتها وباعتبار فرد فرد من صفاتها وباعتبار واحد واحد من احوالها * وباعتبار جهة جهة من وجوهها بينما تراها تتردد بين الامكانات الغير المتناهية فى الذات والصفات والاحوال والوجود اذاً انتعشت وقامت وسلكت طريقا معينا منها ولبست صفة مخصوصة * وتكيفت بحالة منتظمة وركبت على قانون مسدد وتوجهت الى مقصد معين * فانتجت حكمة ومصلحة لاتحصلان الابذلك الطرز المعين أفلاتنادى بلسانها المخصوص وتصرح بقصد صانعها وحكمته فكما ان كل ذرة بنفسها دليل على الانفراد كذلك تتزايد دلالتها باعتبار كونها جزء من مركبات متداخلة متصاعدة اذلها فى كل مركب مقام وفى كل مقام لها نسبة وفى كل نسبة لها وظيفة وفى كل وظيفة تثمر مصالح وفى كل مرتبة تتلو بلسانها دلائل وجوب وجود صانعها مثلها كمثل جندى فى « طاقه وطابوره وفرقته الخ » ولنشرع فى نظم هذه الآية باعتبار نظم مجموعها بماقبلها ثم نظم جملها بعض مع بعض ثم نظم هيأت كل جملة جملة * امانظم المجموع بما قبله فاعلم ان القرآن لمابين اقسام البشر وانواع المكلفين من المؤمنين المتقين والكافرين المعاندين والمنافقين المذبذبين توجه اليهم كافة مخاطبا بقوله (ياايها الناس اعبدوا) عقبه ورتبه على سابقه * ترتيب البناء على الهندسة * والامر والنهى بالعمل على قانون العلم والقضاء على القدر * والانشاء والايجاد على القصة والحكاية * اذلما ذكر مباحث الفرق الثلاث وذكر خاصة كل وعاقبة كل تهيأ الموضع وانتبه السامع فالتفت مخاطبا بذلك الخطاب * ثم ان فى هذا الالتفات اعنى ذكرهم اولا بالغيبة ثم الخطاب معهم هنا نكتة عمومية فى اسلوب البيان وهى انه اذا ذكر محاسن شخص اومساويه شيأ فشيأ يتزايد بحكم الايقاظ والتهييج ميلان استحسان اوميل نفرة ويتقوى ذلك الميل شيأ فشيأ الى ان يجبر صاحبه للمشافهة مع ذلك الشخص وبالنظر الى المقام يقتضى ميولات السامعين لاوصافه ان يحضر المتكلم ذلك الشخص ويجره الى حضورهم فيتوجه اليه بالخطاب * وفيه نكتة خصوصية هنا وهى تخفيف اعباء التكليف بلذة الخطاب * وفيه ايضا اشارة الى ان لاواسطة فى العبادة بين العبد وخالقه واما نظم الجمل (فيا ايهاالناس اعبدوا) خطاب لكل انسان من الفرق الثلاث فى الازمنة الثلاثة من كل طبقات الفرق * اى ايها المؤمنون الكاملون اعبدوا على صفة الثبات والدوام وايها المتوسطون اعبدوا على كيفية الازدياد وايها الكافرون افعلوا العبادة مع شرطها من الايمان والتوحيد وايها المنافقون اعبدوا على كيفية الاخلاص فالعبادة هنا كالمشترك المعنوى فتأمل (ربكم) اى اعبدوه لانه رب يربيكم فلابد ان تكونوا عبادا تعبدونه * واماجملة (الذى خلقكم)

فاعلم ان الله تعالى لما امر بالعبادة وهى تقتضى ثلاثة اشياء وجود المعبود ووحدته واستحقاقه للعبادة اجاب عن هذه الاسئلة المقدرة بالاشارة الى دلائلها الثلاثة فدلائل الوجود قسمان آفاقى وانفسى والانفسى نوعان نفسى واصولى فاشار الى النفسى الاقرب الاوضح بقوله (الذى خلقكم) والى الاصولى بقوله (والذين من قبلكم) * واما نظم (لعلكم تتقون) فاعلم ان القرآن لما علق العبادة على خلقهم وآبائهم اقتضى ترتيب العبادة على خلق البشر نقطتين * احديهما ان تكون خلقتهم باستعداد العبادة وجبليتهم على قابلية التقوى حتى من يرى ذلك الاستعداد يأمل ويرجو منهم العبادة كمن يرى المخالب يامل الافتراس * والثانية ان يكون المقصد من خلقتهم ووظيفتهم التى هم مأمورون بها وكمالهم الذى يتوجهون اليه هو التقوى الذى هو كمال العبادة و (لعلكم تتقون) اى المقصد من خلقكم وكمالكم والذى هيئ له استعدادكم انما هو التقوى * واما جملة (جعل لكم الارض فراشا) فاشارة الى اقرب الدلائل الآفاقية على وجوده تعالى وايضا فيها رمز الى رد التأثير الحقيقى للاسباب الذى هو منشأ لنوع شرك اى تمهيد الارض بجعله تعالى لا بالطبيعة * واما (والسماء بناء) فاشارة بذكر السماء التى هى لصيق الارض الى اعلا الدلائل الآفاقية البسيطة * ثم اشار بقوله (وانزلنا من السماء) الى وجه دلالة المركبات والمواليد على وجود صانعها * ثم ان كلا من الجمل السابقة كما تدل على اثبات الوجود كذلك المجموع يلوح بالوحدة * وصورة الترتيب المشير الى النظام الملوح بالنعم مع دلالة (رزقا لكم) تثبت استحقاقه تعالى للعبادة لان شكر المنعم واجب * وفى (رزقا لكم) اشارة الى انه كما ان الارض والمواليد تخدم لك لابد ان تخدم لمن سخرها لك * واما نظم (فلا تجعلوا لله انداداً) فاعلم انه قد امتدت من نظمها خطوط الى (يا ايها الناس اعبدوا ربكم) والى (الذى خلقكم) والى (الذى جعل لكم) والى (وانزلنا) اى اذا عبدتم ربكم فلا تشركوا له لانه هو الرب ولانه هو الخالق لكم ولنوعكم فلا يجعل بعضكم بعضا اربابا من دون الله ولانه هو الذى خلق الارض وفرشها ومهدها لكم ولانه هو الذى خلق السماء وجعلها سقفا لبنائكم فلا تعتقدوا تأثيرا حقيقيا للاسباب الطبيعية التى هى منشأ الوثنية ولانه هو الذى ارسل الماء الى الارض لرزقكم ومعيشتكم ولا نعمة الا منه فلا شكر ولا عبادة الا له * واما نظم كيفيات و هيأت جملة جملة فاعلم ان كلمة (يا ايها) فى جملة (يا ايها الناس اعبدوا) قد اكثر التنزيل من ذكرها لنكة دقيقة ولطائف رقيقة اذ هذا الخطاب مؤكد بوجوه ثلاثة بما فى (يا) من الايقاظ وما فى (اى) من التوسم وما فى (ها) من التنبيه فالخطاب هنا رمز الى فوائد ثلاث * مقابلة مشقة التكليف بلذة الخطاب * وان ترقى الانسان من حضيض الغيبة الى مقام الحضور انما هو بواسطة العبادة * وايضا اشارة الى ان المخاطب مكلف بجهات ثلاث باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد ومن جهة عقله بالايمان والتوحيد وبالنظر الى قالبه بالعمل والعبادة * وايضا ايماء الى ان المخاطبين ثلاث فرق * وايضا تلويح الى الطبقات الثلاث من الخوص والمتوسطين والعوام * وايضا تلميح الى الطرز المألوف والنسق المأنوس وهو ان المرء اولا ينادى احداً فيوقفه ثم يتوسمه فيوجهه

ثم يخاطبه فيخدمه * فبناء على هذه النكت تكون التأكيدات فى الخطاب مؤسسة من تلك الجهات * اما النداء فى (يا) فلان المنادى هو الناس المشتمل على الطبقات المختلفة من الغافلين والغائبين والساكنين والجاهلين والمشغولين والمعرضين والمحبين والطالبين والكاملين يكون هذا النداء للتنبيه * وكذ للاحضار وكذا للتحريك وكذا للتعريف وكذا للتفريغ وكذا للتوجيه وكذا للتهييج وكذا للتشويق وكذا للازدياد وكذا لهز العطف * واما البعد فى (يا) مع ان المقام مقام القرب فاشارة الى جلالة وعظمة امانة التكليف * وايضا ايماء الى بعد درجة العبودية عن مرتبة الالوهية وايضا رمز الى بعد اعصار المكلفين عن محل وزمان ظهور الخطاب * وايضا تلويح الى شدة غفلة البشر واما (اى) الموضوع للتوسم من العموم فرمز الى ان الخطاب لعموم الكائنات فيخصص من بينها الانسان بحمل الامانة على طريق فرض الكفاية فاذاً قصور الانسان تجاوز لحق مجموع الكائنات ثم فى (اى) جزالة الاجمال ثم التفصيل * واما (ها) فمع كونه عوضا عن المضاف اليه اشارة الى تنبيه من حضر بيا * واما (الناس) فاشارة بحكم تلميح الوصفية الاصلية الى العتاب * اى ايها الناس كيف تنسون الميثاق الازلى وايضا الى العذر اى ايها الناس لابد ان يكون قصوركم عن السهو والنسيان لا بالعمد والجد * اما (اعبدوا) فبحكم جوابيته للنداء العام مناداه للطبقات المذكورة يدل على الاطاعة ويشير الى الاخلاص ويرمز الى الدوام ويلوح الى التوحيد * اى اطيعوا واخلصوا وثبتوا وازدادوا ووحدوا واما (ربكم) فاشارة الى ان العبادة كما ينبغى ان يرغب فيها لانها نسبة شريفة ومناسبة عالية كذلك لابد ان تطلب لانها شكر وخدمة لمن هو ربكم وتحتاجون اليه (تذييل)[١] فى (ربكم) رمز دقيق الى دليل امكان الذوات وفى (جعل الارض فراشا) الى دليل امكان الصفات وفى (الذى خلقكم والذين من قبلكم) الى دليل حدوث الذوات والصفات والذى ينص على دليل امكان الذوات قوله تعالى (والله الغنى وانتم الفقراء) وايضا (والى ربك المنتهى) وايضا (فانهم عدو لى الا رب العالمين) وكذا (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وايضا (ففروا الى الله) وكذلك (الا بذكر الله تطمئن القلوب) وقس فتأمل * اما هيات (الذى خلقكم والذين من قبلكم) فاعلم ان الذى الذى جهة معلوميته الصلة يشير الى ان معرفة الله تعالى انما تكون بافعاله وآثاره لا بكنهه * وان (خلق) الممتاز عن الايجاد والانشاء بكونه على وجه مقدر مستو اشارة الى ان استعداد البشر مسدد للتكليف * وايضا رمز الى ان العبادة وظيفة لانها نتيجة الخلقة واجرتها فما الثواب الا من محض فضل الله تعالى (وان الذين) بناءً على ابهامه ايماء الى ان الذين سبقوكم انقرضوا فماتوا فذهبوا فلم يبق منهم جهة المعلومية الا كونهم مخلوقين قبلكم فانتم على شفا جرف القبر فاعتبرا فلا تغتروا بالدنيا فتشبثوا باذيال العبادة التى هى وسيلة السعادة الابدية * اما كيفيات (لعلكم تتقون) فاعلم ان لعل للرجاء ففى المرغوب يقال اطماع وفى المكروه اشفاق فالرجاء فى حق المتكلم هنا حقيقة محال فهو اما باعتباره لكن مجازاً واما باعتبار المخاطب واما باعتبار المشاهدين والسامعين * اما باعتبار المتكلم فاستعارة

[١] هذا التذييل تجاوز عن موضعه سهواً

تمثيلية كما ان من جهز احداً باسباب خدمة يرجوا منه عرفا تلك الخدمة كذلك ان الله جهز البشر باستعداد الكمال وقابلية التكليف وواسطة الاختيار ففي الاستعارة اشارة الى ان حكمة خلق البشر هي التقوى وكذا رمز الى ان نتيجة العبادة مرتبة التقوى وكذلك ايماء الى ان التقوى اكبر المراتب ❊ وايضا تلميح الى طرز اسلوب الملوك بالاطماع والرمز فى موضع الوعد القطعى واما باعتبار المخاطب فكأنه يقول اعبدوا حال كونكم راجين للتقوى ومتوسطين بين الرجاء والخوف وفى هذا الاعتبار اشارة الى انه لابد ان لايعتمد الانسان على عبادته ❊ وكذا ايماء الى انه لابد ان لايكتفى بماهو فيه بل لزم ان يكون مصداقا « لعليك بالحركة غير السكون » فينظر فى كل مرتبة الى مافوقها ❊ واما باعتبار المشاهدين والسامعين فكأن من شاهد البشر مجهزا ومسلحا باستعدادات يأمل ويرجو منه العبادة كمن يرى مخالب حيوان وانيابه يأمل منه الافتراس ❊ وكذلك اشارة الى ان العبادة مقتضى الفطرة اما لفظ (تتقون) فاشارة بحكم ترتبه على عبادة الطبقات المذكورة الى مراتب التقوى وهى التقوى عن الشرك ثم التقوى عن الكبائر ثم التقوى بحفظ القلب عما سواه تعالى وكذا التقوى بالتجنب عن العقاب وايضا التقوى بالتحرز عن الغضب وكذا رمز الى ان العبادة بالاخلاص تكون عبادة ❊ وايضا ايماء الى ان العبادة مقصودة بالذات لاوسيلة محضة ❊ وكذلك رمز الى ان العبادة لابد ان لاتكون لاجل الثواب والعقاب ❊ اماهيأت آية (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) فاعلم انها اشارة الى التهييج على العبادة ببيان عظمة قدرة الصانع والى التشويق عليها بالامتنان كأنه يقول ايها الانسان ان الذى سخر لك الارض والسماء يستحق ان تعبده وكذا ايماء الى فضيلة البشر وعلو قيمته ومكرميته عند الله كأنه يقول ان الذى اكرمكم بان هيئ الاجرام العلوية والسفلية بعظمتها لاستفادتكم لابد ان تظهروا لياقتكم للكرامة بعبادته وكذا تلميح الى رد التصادف والاتفاق وتأثير الطبيعة اى ان كل ماترون بصفاتها انماهى بجعل جاعل وقصد قاصد وتخصيص مخصص ونظم نظام جلت حكمته وكذا تلويح الى رد مذهب اهل الطبيعة ومذهب الصابئين المولد لمذهب الوثنيين ❊ وايضا تنبيه على ان صفات الاجسام بامكانها تدل على الصانع اذ الاجسام متساوية ذراتها فى قابلية الاحوال والكيفيات العمومية فكل صفة ممكنة مترددة بين احتمالات كثيرة فكل جسم باعتبار كل صفة وكيفية يحتاج الى قصد وحكمة وتخصيص مخصص ❊ اماتقديم (لكم) فاشارة الى ان تفريش الارض لاجل الانسان لا ان المفترش والمستفيد هو الانسان فقط حتى يكون الزائد عبثا فتأمل ❊ واما (فراشا) فاشارة الى نكتة البلاغة التى هى نقطة الغرابة وهى قيد «مع اقتضاء طبعها الانغماس فى الماء» وايماء الى ان التفريش بالجعل خلاف الطبيعة اذ مقتضى طبيعة الكرة استيلاء الماء عليها واحاطته بها فالصانع بحكمته ومرحمته اظهر قسما منها وفرشه ووضع عليه مائدة نعمه ❊ وكذا تنبيه بقاعدة اذا ثبت الشئ ثبت بلوازمه الى ان الارض كارض البيت مبسوطة فانواع النباتات والحيوانات فيها كاساسات البيت انما وضعت بقصد وحكمة ❊ وكذا ايماء الى ان الارض توسطت بقصد

وحكمة بين المائع الذى لايتمسك عليه الاقدام وبين الصلب الشديد الذى لايقبل الاستفادة والزراعة فيكون عبثا ولوكان ذهبا * فبالتوسط اشارة الى انه تخصيص وجعل وقصدحكيم * اما (والسماء بناءً) فاشارة الى انه تعالى لماجعل لكم السماء سقفا وبناء صارت نجومها قناديل لكم فلايتوهم التصادف فى تفريق تلك القناديل وانتشارها كمايتوهم التصادف فى وضعية الجواهر التى ترمى على الارض منثرة اعلم ان فى هذه الآية اشارة ورمزاً وايماء الى سر عجيب دقيق غال وهو ﴿ان قلت﴾ ان الانسان ذرة بالنسبة الى ارضه وارضه ذرة بالنسبة الى الكائنات وكذا فرده ذرة الى نوعه ونوعه ذرة بالنسبة الى شركائه فى الاستفادة فى هذا البيت العالى وكذا جهة استفادة البشر بالنسبة الى فوائد وغايات هذاالبيت ذرة والغايات التى تحس بها العقول ذرة بالنسبة الى فوائده فى الحكمة الازلية والعلم الالهى فكيف جعل العالم مخلوقا لاجل البشر واستفادته علة غائية ﴿قيل لك﴾ نعم ولكن مع كل مامر لاجل وسعة روح الانسان وتبسط عقله وانبساط استعداده وكثرة وانتشار استفادته من الكائنات * وايضا لاجل عدم المزاحمة والتجزى والمدافعة فى جهة الاستفادة كنسبة الكلى الى جزئياته اذالكلى بتمامه موجود فى كل من جزئياته لامزاحمة ولاتجزى جعل القرآن جهة استفادة البشر التى هى غاية فذة من الوف الوف غايات السماء والارض فى منزلة العلة الغائية كأنها هى العلة بالنظر الى الانسان اى ان الانسان يستفيد من الارض عرصةً لبيته والسماء سقفاله والنجوم قناديل والنباتات ذخائر فحق لكل فرد ان يقول شمسى وسمائى وارضى فتأمل وعقلك معك * اما كيفيات (وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقالكم) فاعلم ان نسبة انزل الى الضمير اشارة الى ان القطرات انما تنزل بميزان قصد وترسل بحكمة حتى ان كل قطرة محفوفة بنظام مخصوص بامارة عدم مصادمتها لاخواتها فى تلك المسافة البعيدة مع تلعب الهواء بها فيؤذن ان ليست غواربها على اعناقها بل زمام كل فى يدملك ممثل لنظام ومعكس له * اما (من السماء) فاشارة باقامة الظاهر مقام الظمير الى ان الغرض من هذا السماء جهتها لاجرمها المخصوص * اما (ماء) مع ان المنزل ثلج وبرد ومطر فاشارة الى المنشأ القريب للاستفادة (وجعلنا من الماء كل شئ حى) اماتنكيره فاشارة الى انه ماء عجيب شأنه غريب نظامه مجهول لكم امتزاجاته الكيموية * اما فاء فاخرج الموضوعة للتعقيب بلامهلة مع المهلة بين نزول الماء وخروج الثمر فتلوح الى فاهتزت الارض وربت واخضرت وانبتت من كل زوج بهيج (فاخرج) امانسبة اخرج الى الضمير فاشارة الى ان خروج الثمار ليس بتولد وتركب فقط بل الصانع الحكيم ينشأها ويرتبها بصفات وخواص لاتوجد فى مادتها * اما (به) فبسبب تشرب المعنى الحقيقى وهو الالصاق للسببية رمز الى لطافة طراوة الثمار فيعلو اليها الماء خلاف طبيعته بوساطة «الآثار الشعرية» فيملأ اقداح الثمرات ملصقاً بها * اما (من الثمرات) فلعدم خلوها من معنى الابتداء عندسيبويه يشير الى مفعول يتنوع بتعين فهم السامع اى ان من الثمرات انواعا كماتشتهون * اماتنوين (رزقا) فاشارة الى انه رزق مجهول لكم اسباب حصوله فيجئ من حيث لايحتسب * اما (لكم)

فاشارة الى تأكيد معنى الامتنان وايضا ايماء الى ان الرزق لاجلكم فلابأس من استفادة غيركم منه تبعاً وكذا رمز الى انه تعالى كما خصكم بالنعم فخصوه بالشكر ※ امانظم هيأت (فلاتجعلوا لله اندادا) فالفاء ينظر الى الفقرات الاربعة ※ اى لانه هو المعبود فلاتشركوا ولانه هو القادر المطلق والارض والسماء فى قبضته فلاتعتقدوا له شريكا ولانه المنعم فلاتشركوا فى شكره. ولانه هو خالقكم فلاتخيلوا له شريكا ※ اما (تجعلوا) بدل تعتقدوا فاشارة الى معنى (ان هى الا اسماء سميتموها) اى اسماء لامعنى لها تخيلون لها وجودا بجعلكم ※ اما تقديم (الله) مع الاهتمام بجعله نصب العين ايماء الى ان منشأ النهى كون الشريك لله ※ اما (اندادا) فلفظ الند بمعنى المثل ومثله تعالى يكون عين ضده وبينهما تضاد ففيه ايماء لطيف الى ان الند بين البطلان بنفسه ※ اما الجمع فاشارة الى نهاية جهالة المشركين وايماء الى التهكم بهم اى كيف تجعلون لله الذى لاشبيه له بوجه ما جماعة من امثال واضداد وكذا رمز الى رد كل انواع الشرك اى لاشريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله وتلويح الى رد طبقات المشركين من الوثنيين والصابئين واهل التثليث واهل الطبيعة المعتقد للتأثير الحقيقى للاسباب ﴿تذييل﴾ منشأ الوثنية والاصنام اما تأليه النجوم او تخيل الحلول او توهم الجسمية ※ اما (وانتم تعلمون) مع اخواتها من الفواصل اشارة الى ان منشأ الاسلامية هو العلم واساسها العقل فمن شأنه ان يقبل الحقيقة ويرد سفسطة الاوهام ※ ثم انه اطنب بايجاز ترك المفعول اى وانتم تعلمون ان لامعبود حقيقيا ولاخالق ولاقادر مطلقا ولامنعم الاهو ※ وكذا وانتم تعلمون ان الآلهة والاصنام ليست بشئ لاتقدر على شئ وانها مخلوقة مجعولة تخيلونها فتدبر (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين)

﴿مقدمة فى تحقيق النبوة﴾

اعلم انه كما اثبتت الآية السابقة اول المقاصد الاساسية القرآنية وهو التوحيد كذلك تثبت هذه الآية ثانى المقاصد الاربعة وهو اثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام باكمل معجزاته الذى هو التحدى باعجاز القرآن ولقد فصلنا دلائل نبوته فى كتاب آخر فلنلخص بعضها هنا فى ست مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم ان الاستقراء التام فى احوال الانبياء مع الانتظام المطرد المسمى بالقياس الخفى ينتج ان مدار نبوة الانبياء واساسها وكيفية معاملاتهم مع اممهم بشرط تجريد المسئلة عن خصوصيات تأثير الزمان والمكان يوجد باكمل وجه فى محمد عليه الصلاة والسلام الذى هو استاد البشر فى سن كمال البشر فينتج بالطريق الاولى وبالقياس الاولوى انه ايضا رسول الله فجميع الانبياء بألسنة معجزاتهم كأنهم شاهدون على صدق محمد عليه السلام الذى هو البرهان النير على وجود الصانع ووحدته فتأمل ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم ان كل حال من احواله وكل حركة من حركاته عليه السلام وان لم يكن خارقا يلوح بالمبدأ على صدقه وبالمنتهى على حقانيته ※ ألا ترى انه عليه السلام كيف كان حاله فى امثال واقعة الغار التى انقطع بحسب العادة امل الخلاص تقول بكمال الوثوق والاطمئنان والجدية (لاتخف ان الله معنا) فكما ان ابتدائه بالحركة

بلامبالات لمعارض وبلاخوف وتردد مع كمال الاطمئنان يدل على تمسكه بالصدق كذلك تأسيسه بانتهاء حركاته لقواعد هى الاساس لسعادة الدارين واصابته للحق واتصاله بالحقيقة دليل على حقانيته فهذا فردا فردا واما اذانظرت الى مجموع حركاته واحواله يتجلى لعينك برهان نبوته كالبرق اللامع فتبصر ﴿المسئلة الثالثة﴾ اعلم ان الزمان الماضى والحال اى عصر السعادة والاستقبال اتفقت على تصديق نبوته كما ان ذاته دليل على نبوته ولنطالع هذه الصحف الاربع فاولا نتبرك بمطالعة ذاته عليه السلام ولابد اولا من تصور اربع نكت * احديها انه ليس الكحل كالتكحل اى لايصل الصنعى والتصنعى ولوكانا على اكمل الوجوه مرتبة الطبيعى والفطرى ولايقوم مقامه بل فلتات غلطات هيئة حركة الصنعى تؤمى بمزخرفيته والثانية ان الاخلاق العالية انما تتصل بارض الحقيقة بالجدية وان ادامة حياتها وانتظام مجموعها انما هى بالصدق ولو ارتفع الصدق من بينها صارت كهشيم تذروه الرياح * والثالثة هى انه كما يوجد الميل والجذب فى الامور المتناسبة كذلك يوجد الدفع والتنافر فى الامور المتضادة * والرابعة هى ان للكل حكما ليس لكل كقوة الحبل مع ضعف خيوطه * واذا تفطنت لهذه النكت فاعلم ان آثار محمد عليه الصلاة والسلام وسيره وتاريخ حياته تشهد مع تسليم اعدائه بانه لعلى خلق عظيم وبانه قداجتمع فيه الخصائل العالية كافة ومن شأن امتزاج تلك الاخلاق توليد عزة للنفس وحيثية وشرف ووقار لاتساعد التنزل للسفاسف فكما ان علوالملائكة لايساعد لاختلاط الشياطين بينهم كذلك تلك الاخلاق العالية بجمعها لاتساعد اصلا لتداخل الحيلة والكذب بينها * ألاترى ان الشخص المشتهر بالشجاعة فقط لايتنزل للكذب الابصر فكيف بالمجموع فثبت ان ذاته عليه السلام كالشمس دليل لنفسه * وايضا اذا تأملت فى حاله عليه السلام من الاربع الى اربعين مع ان من شأن الشبابية وتوقد الحرارة الغريزية ان تظهر مايخفى وتلقى الى الظاهر ما استتر فى الطبيعة من الحيل تراه عليه السلام قد تدرج فى سنيه وعاشر بكمال استقامة ونهاية متانة وغاية عفة واطراد وانتظام مااومى حال من احواله الى حيلة لاسيما فى مقابلة المعاندين الاذكياء * وبينما تراه عليه السلام كذلك اذ تنظر اليه وهو على رأس اربعين سنة الذى من شأنه جعل الحالات ملكة والعادات طبيعة ثانية لاتخالف قدتكشف عليه السلام عن شخص خارق قداوقع فى العالم انقلابا عظيما عجيبا فما هو الا من الله ﴿المسئلة الرابعة﴾ اعلم ان صحيفة الماضى المشتملة على قصص الانبياء المذكورة على لسانه عليه السلام فى القرآن برهان على نبوته بملاحظة اربع نكت ﴿احديها﴾ ان من يأخذ اساسات فن ويعرف العقد الحياتية فيه ويحسن استعمالها فى مواضعها ثم يبنى مدعاه عليها يدل ذلك على مهارته وحذاقته فى ذلك الفن ﴿النكتة الثانية﴾ هى انك ان كنت عارفا بطبيعة البشر لاترى احداً يتجاسر بسهولة على مخالفة وكذب ولو صغيراً فى قوم ولوقليلين فى دعوى ولو حقيرة بحيثية ولو ضعيفة فكيف بمن له حيثية فى غاية العظمة وفى دعوى فى غاية الجلالة فى قوم فى غاية الكثرة فى مقابلة عناد فى غاية

الشدة مع انه امى لم يقرأ يبحث عن امور لايستقل فيه العقل ويظهرها بكمال الجدية ويعلنها على رؤس الاشهاد أفلايدل هذا على صدقه وانه ليس منه بل من الله ﴿الثالثة﴾ هي ان كثيراً من العلوم المتعارفة عند المدنيين بتعليم ادات والاحوال وتلقين الوقوعات والافعال مجهولة نظرية عند البدويين فبناء عليه لابد لمن يحاكم ويتحرى حال البدويين لاسيما في القرون الخالية ان يفرض نفسه في تلك البادية ﴿الرابعة﴾ هي انه لو ناظر امى علماء فن ولو فن الصرف ثم بين رأيه في مسائله مصدقا في مظان الاتفاق ومصححا في مطارح الاختلاف افلا يدلك ذلك على تفوقه وان علمه وهبى اذا عرفت هذه النكت فاعلم ان محمداً العربى عليه السلام مع اميته قص علينا بلسان القرآن قصص الاولين والانبياء قصة من حضر وشاهد وبين احوالهم وشرح اسرارهم على رؤس العالم في دعوى عظيمة تجلب اليها دقة الاذكياء وقد قص بلا مبالات واخذ العقد الحياتية فيها واساسها مقدمة لمدعاه مصدقا فيما اتفقت عليه الكتب السالفة ومصححا فيما اختلفت فيه كأنه بالروح الجوال المعكس للوحى الالهى طى الزمان والمكان فتداخل في اعماق الماضى فبين كأنه مشاهد فثبت ان حاله هذه دليل نبوته واحد معجزاته فمجموع دلائل نبوة الانبياء في حكم دليل معنوى له وجميع معجزات الانبياء في حكم معجزته معنوية له ﴿المسئلة الخامسة﴾ في بيان صحيفة عصر السعادة لاسيما مسئلة جزيرة العرب فههنا ايضا اربع نكت ﴿احديها﴾ انك اذا تأملت في العالم ترى انه قد يتعسر ويتشكل رفع عادة ولو حقيرة في قوم ولو قليلين او خصلة ولو ضعيفة في طائفة ولو ذليلين على ملك ولو عظيما بهمة ولو شديدة في زمان مديد بزحمة كثيرة فكيف انت بمن لم يكن حاكما تشبث في زمان قليل بهمة جزئية بالنسبة الى المفعول وقلع عادات ورفع اخلاق قد استقرت بتمام الرسوخ واستأنست بها نهاية استيناس واستمرت غاية استمرار فغرس فجأة بدلها عادات واخلاق تكملت دفعة عن قلوب قوم في غاية الكثرة ولمألوفاتهم في نهاية التعصب أفلا تراه خارقا للعادات ﴿النكتة الثانية﴾ هي ان الدولة شخص معنوى تشكلها تدريجى كنمو الطفل ✻ وغلبتها للدولة العتيقة التى صارت احكامها كالطبيعة الثانية لملتها متمهلة أفلا يكون حينئذ من الخارق لعادة تشكل الدول تشكيل محمد عليه السلام لحكومة عظيمة دفعة مهيئة لنهاية الترقى متضمنة للاساسات العالية الابدية مع غلبتها للدول العظيمة دفعة مع ابقاء حاكميته لا على الظاهر فقط بل ظاهراً وباطنا ومادةً ومعنىً ﴿النكتة الثالثة﴾ هي انه يمكن بالقهر والجبر تحكم ظاهرى وتسلط سطحى لكن الغلبة على الافكار والتأثير بالقاء حلاوته في الارواح والتسلط على الطبائع مع محافظة حاكميته على الوجدان دائما لايكون الا من خوارق العادات وليس الا الخاصة الممتازة للنبوة ﴿النكتة الرابعة﴾ هي ان تدوير افكار العموم وارشادها بحيل الترهيب والترغيب والخوف والتكليف انما يكون تأثيرها جزئيا سطحيا موقتا يسد طريق المحاكمة العقلية في زمان ✻ امامن نفذ في اعماق القلوب بارشاده وهيج دقائق الحسيات وكشف اكمام الاستعدادات وايقظ الاخلاق واظهر الخصائل المستورة وجعل جوهر انسانيتهم فوارة وابرز قيمة ناطقيتهم فانما هو مقتبس من شعاع الحقيقة ومن الخوارق للعادة ✻ بينما ترى شخصا في قساوة قلبه يقبر بنته حيةً ولايتألم

ولايتأثر اذتراه بعديوم(وقداسلم) يترحم على نحو(النمل) ويتألم بألم حيوان فبالله عليك أينطبق
هذاالانقلاب الحسى على قانون * فاذا عرفت هذه النكت تأمل فى نقطة اخرى وهى ان
تاريخ العالم يشهد ان الداهى الفريد انما هوالذى اقتدر * على انعاش استعداد عمومى وايقاظ
خصلة عمومية والتسبب لانكشاف حس عمومى اذمن لم يوقظ هكذا حسا نائما يكون سعيه
هباء موقتا ولوكان جليلا فى نفسه * وايضا ان التاريخ يرينا ان اعظم الناس هوالموفق لايقاظ
واحد اواثنين اوثلاث من هذه الحسيات العمومية * كحس الحمية الملية وحس الاخوة وحس
المحبة وحس الحرية الى آخره أفلايكون اذاً ايقاظ الوف من الحسيات المستورة العالية وجعلها
فوارة منكشفة فى قوم بدويين منتشرين فى جزيرة العرب تلك الصحراء الوسيعة من الخوارق
نعم هو من ضياء شمس الحقيقة * فيا هذا من لم يدخل فى عقله هذه النقطة ندخل جزيرة
العرب فى عينه فهذه جزيرة * بعد ثلاثة عشر عصراً وبعد ترقى البشر فى مدارج التمدن
فانتخب ايها المعاند * من اكمل الفلاسفة مائة فليسعوا مائة سنة فان فعلوا جزء من مائة جزء
مما فعله محمد العربى عليه الصلاة والسلام بالنسبة الى زمانه فان لم تفعل ولن تفعل فاتق عاقبة
العناد نعم هذه الحالة خارقة للعادة وان هى الامعجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام *
واعلم ايضا ان من اراد التوفيق يلزم عليه ان يكون له مصافات مع عادات الله ومعارفة مع قوانين
الفطرة ومناسبة مع روابط الهيئة الاجتماعية والاناجابته الفطرة بعدم الموفقية جواب اسكات *
وايضا من تحرك بمسلك فى الهيئة الاجتماعية يلزمه ان لايخالف حركة الجريان العمومى والا
طيره ذلك الدولاب عن ظهره فيسقط فى يديه فاذاً من ساعده التوفيق فى ذلك الجريان كمحمد
عليه السلام يثبت انه متمسك بالحق فاذا تفهمت هذا تأمل فى حقائق الشريعة مع تلك المصادمات العظيمة
والانقلابات العجيبة وفى هذه الاعصار المديدة تراها قد حافظت على موازنة قوانين الفطرة وروابط
الاجتماعيات اللاتى بدقتها لاتترأى للعقول مع كمال المناسبة والمصافاة معها فكلما امتد الزمان
تظاهر الاتصال بينها ويتظاهر من هذه الحالة ان الاسلامية هى الدين الفطرى لنوع البشر وانها حق
لهذا لاينقطع وان رق * ألاترى ان الترياق الشافى للسموم القاتلة فى الهيئة الاجتماعية انما
هو امثال حرمة الربا و وجوب الزكاة اللتين هما مسئلتان فى الوف مسائل تلك الشريعة
* فاذعرفت هذه النكت الاربع مع هذه النقط الثلاث اعلم ان محمداً الهاشمى عليه الصلاة
والسلام معانه أمى لم يقرأ ولم يكتب ومع عدم قوته الظاهرية وعدم حاكمية له اولسلفه وعدم
ميل تحكم وسلطنة قد تشبث بقلبه بوثوق واطمأنان فى موقع فى غاية الخطر وفى مقام مهم بأمر
عظيم فغلب على الافكار وتحبب الى الارواح وتسلط على الطبائع وقلع من اعماق قلوبهم العادات
والاخلاق الوحشية المألوفة الراسخة المستمرة الكثيرة ثم غرس فى موضعها فى غاية الاحكام
والقوة كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم اخلاقا عالية وعادات حسنة وقد بدل قساوة قلوب قوم
خامدين فى زوايا الوحشة بحسيات رقيقة واظهر جوهر انسانيتهم ثم اخرجهم فى زواية الوحشة
ورقى بهم الى اوج المدنية وصيرهم معلمى عالمهم واسس لهم دولة ابتلعت الدول كعصى موسى

فلما ظهرت صارت كالشعلة الجوالة والنور النوار فاحرقت روابط الظلم والفساد وجعل سرير ذلك الدولة الدفعية فى زمان قليل الشرق والغرب أفلاتدل هذه الحالة على ان مسلكه حقيقة وانه صادق فى دعواه ﴿المسئلة السادسة﴾ فى صحيفة المستقبل لاسيما (مسئلة الشريعة) ولابد من ملاحظة اربع نكت فى هذه المسئلة ﴿احديها﴾ ان شخصا ولو خارقا انما يختص ويصير صاحب ملكة فى اربعة فنون او خمسة فقط ﴿النكتة الثانية﴾ ان كلاما واحدا قد يتفاوت بصدوره عن متكلمين فكما يدل على سطحية احد وجهله يدل على ماهرية الآخر وحذاقته مع ان الكلام هو الكلام اذا احدهما لما نظر الى المبدأ والمنتهى ولاحظ السياق والسباق واستحضر مناسبته مع اخوانه ❊ ورأى موضعا مناسبا فاحسن الاستعمال فيه وتحرى ارضا منبتة فزرعه فيها ظهر منه انه خارق وصاحب ملكة فيما هذا الكلام منه وكل فذلكات القرآن من الفنون وملتقطاته انما هى من هذا القبيل ﴿النكتة الثالثة﴾ هى ان كثيراً من الامور العادية الآن بسبب تكمل المبادى والوسائط حتى يلعب بها الصبيان لو كانت قبل هذا بعصرين لعدت من الخوارق فمايحافظ شبابيته وطراوته وغرابته على هذه الاعصار المديدة يكون البتة من خوارق العادات والعادات الخارقة ﴿النكتة الرابعة﴾ هى ان الارشاد انما يكون نافعا اذا كان على درجة استعداد افكار الجمهور الاكثر والجمهور باعتبار المعظم عوام والعوام لايقتدرون على رؤية الحقيقة عريانة ولايستأنسون بها الابلباس خيالهم المألوف فلهذه النكتة صور القرآن تلك الحقائق بمتشابهات وتشبيهات واستعارات وحافظ الجمهور الذين لم يتكملوا عن الوقوع فى ورطة المغلطة فابهم واهمل فى المسائل التى يعتقد الجمهور بالحس الظاهرى خلاف الواقع ضروريا لكن مع ذلك اومى الى الحقيقة بنصب امارات فاذ تفطنت لهذه النكت اعلم ان الديانة والشريعة الاسلامية المؤسسة على البرهان العقلى ملخصة من علوم وفنون تضمنت العقد الحياتية فى جميع العلوم الاساسية من فن تهذيب الروح وعلم رياضة القلب وعلم تربية الوجدان وفن تدبير الجسد وعلم تدوير المنزل وفن سياسة المدنية وعلم نظامات العالم وفن الحقوق وعلم المعاملات وفن الآداب الاجتماعية وكذا وكذا وكذا الخ مع ان الشريعة فسرت واوضحت فى مواقع اللزوم ومظان الاحتياج وفيما لم يلزم اولم يستعدله الاذهان اولم يساعدله الزمان اجملت بفذلكة ووضعت اساسا احالت الاستنباط منه وتفريعه ونشو نمائه على مشورة العقول والحال ان كل هذه الفنون بل ثلثه بعد ثلاثة عشر عصرا ❊ مع انبساط تلاحق الافكار وتوسع نتائجه وكذا فى المواقع المتمدنة ❊ وكذا فى الاذكياء لايوجد فى شخص فمن زين وجدانه بالانصاف يصدق بان حقيقة هذه الشريعة خارجة عن طاقة البشر دائما لاسيما فى ذلك الزمان ويصدق بمآل لم تفعلوا ولن تفعلوا «والفضل ماشهدت به الاعداء» فهذا «قارلائيل» فيلسوف امريقا نقل عن الاديب الشهير الالمانى وهو «كوته» اذقال بعد ماامعن النظر فى حقائق القرآن متعجبا أيمكن تكمل العالم المدنى فى دائرة الاسلامية فاجاب بنفسه نعم بل المحققون الآن مستفيدون بجهة من تلك الدائرة ❊ ثم قال الناقل لماطلع حقائق القرآن صارت كالنار الجوالة وابتلعت سائر الاديان فحق له اذلايحصل شئ من سفسطيات

النصارى وخرافات اليهود فصدق ذلك الفيلسوف مآل (فأتوا بسورة من مثله فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) ﴿فان قلت﴾ ان القرآن وكذا مفسره اعنى الحديث انما اخذ من كل فن فذلكة واحاطة فذلكات كثيرة ممكنة لشخص ﴿قيل لك﴾ ان الفذلكة بحسن الاصابة فى موقعها المناسب واستعمالها فى ارض منبتة مع امور مرموزة غير مسموعة قد اشرنا اليها تشف كالزجاجة عن ملكة تامة فى ذلك الفن واطلاع تام فى ذلك العلم فتكون الفذلكة فى حكم العلم ولا يمكن لشخص امثال هذه * اعلم ان نتيجة هذه المحاكمات هى ان تستحضر اولا ماسيأتى من القواعد * وهى ان شخصا لا يتخصص فى فنون كثيرة * وان كلاما واحدا يتفاوت من شخصين يكون بالنظر الى واحد ذهبا والى الآخر فحما * وان الفنون نتيجة تلاحق الافكار وتتكمل بمرور الزمان * وان كثيراً من النظريات فى الماضى صارت بديهية الآن * وان قياس الماضى على هذا الزمان قياس مشبط مع الفارق * وان اهل الصحراء لاتستر بساطتهم وصفوتهم الحيل والدسائس التى تختفى تحت حجاب المدنية * وان كثيراً من العلوم انما تحصل بتلقين العادات والوقوعات وبتدريس الاحوال لطبيعة البشر باعداد الزمان والمحيط * وان نور نظر البشر لاينفذ فى المستقبل ولا يرى الكيفيات المخصوصة * وانه كما ان لحياة البشر عمرا طبيعيا ينقطع كذلك لقانونه عمر طبيعى ينتهى البتة * وان للمحيط الزمانى والمكانى تأثيراً عظيما فى احوال النفوس * وان كثيرا من الخوارق الماضية تصير عادية بتكمل المبادى * وان الذكاء ولو كان خارقا لايقتدر على ايجاد فن وتكميله دفعة بل كالصبى يتدرج * واذا استحضرت هذه المسائل وجعلتها نصب عينك فتجرد وتعر من الخيالات الزمانية والاوهام المحيطية ثم غص من ساحل هذا العصر فى بحر الزمان ماراً تحته الى ان تخرج من جزيرة عصر السعادة ناظراً على جزيرة العرب ثم ارفع رأسك والبس ماخالطك ذلك الزمان من الافكار ثم انظر فى تلك الصحراء الوسيعة فاول ماتجلى لعينك * انك ترى انسانا وحيدا * لامعين له ولاسلطنة * يبارز الدنيا برأسه * ويهجم على العموم * وحمل على كاهله حقيقة اجل من كرة الارض * واخذ بيده شريعة هى كافلة لسعادة الناس كافة * وتلك الشريعة كأنها زبدة وخلاصة من جميع العلوم الآلهية والفنون الحقيقية * وتلك الشريعة ذات حيات لا كاللباس بل كالجلد * تتوسع بنمو استعداد البشر * وتثمر سعادة الدارين * وتنظم احوال نوع الانسان كاهل مجلس واحد فان سئلت قوانينها من اين الى اين لقالت بلسان اعجازها نجيء من الكلام الازلى وترافق فكر البشر الى الابد فبعد ماقطع هذه الدنيا نفارق صورةً من جهة التكليف ولكن نرافق دائما بمعنوياتنا واسرارنا فتغذى روحهم ونصير دليلهم * فيا هذا أفلا يتلو عليك ماشاهدت الامر التعجيزى فى (فأتوا بسورة من مثله فان لم تفعلوا ولن تفعلوا الخ) ثم اعلم ان آية (وان كنتم فى ريب مما نزلنا الخ) تشير الى ان ناسا بسبب الغفلة عن مقصود الشارع فى ارشاد الجمهور وجهلهم بلزوم كون الارشاد بنسبة استعداد الافكار وقعوا فى شكوك وريوب منبعها ثلاثة امور ﴿احدها﴾ انهم يقولون وجود المتشابهات والمشكلات فى القرآن مناف لاعجازه المؤسس على البلاغة المبنية على ظهور ووضوح الافادة ﴿والثانى﴾ انهم يقولون ان القرآن اطلق وابهم فى حقائق الخلقة وفنون الكائنات مع انه مناف

لمسلك التعليم والارشاد ﴿والثالث﴾ انهم يقولون ان بعض ظواهر القرآن اميل الى خلاف الدليل العقلى فيحتمل خلاف الواقع وهو مخالف لصدقه * الجواب وبالله التوفيق ايها المشككون اعلموا ان ما تتصورونه سببا للنقص انما هى شواهد صدق على سر اعجاز القرآن * اما الجواب عن الريب الاول وهو وجود المتشابهات والمشكلات فاعلم ان ارشاد القرآن لكافة الناس والجمهور الاكثر منهم عوام والاقل تابع للاكثر فى نظر الارشاد والخطاب المتوجه نحو العوام يستفيد منه الخواص ويأخذون حصتهم منه ولو عكس لبقى العوام محرومين مع ان جمهور العوام لايجردون اذهانهم عن المألوفات والمتخيلات فلايقتدرون على درك الحقائق المجردة والمعقولات الصرفة الا بمنظار متخيلاتهم وتصويرها بصورة مألوفاتهم لكن بشرط ان لايقف نظرهم على نفس الصورة حتى يلزم المحال والجسمية اوالجهة بل يمر نظرهم الى الحقائق * مثلا ان الجمهور انما يتصورون حقيقة التصرف الآلهى فى الكائنات بصورة تصرف السلطان الذى استوى على سرير سلطنته ولهذا اختار الكناية فى (ان الله على العرش استوى) واذا كانت حسيات الجمهور فى هذا المركز فالذى يقتضيه منهج البلاغة ويستلزمه طريق الارشاد رعاية افهامهم واحترام حسياتهم ومماشاة عقولهم ومراعاة افكارهم كمن يتكلم مع صبى فهو يتصبى فى كلامه ليفهمه ويستأنس به فالاساليب القرآنية فى امثال هذه المنازل المرعى فيها الجمهور تسمى بالتنزلات الالهية الى عقول البشر فهذا التنزل لتأنيس اذهانهم فلهذا وضع صور المتشابهات منظارا على نظر الجمهور ألاترى كيف اكثر البلغاء من الاستعارات لتصور المعانى الدقيقة اولتصوير المعانى المتفرقة فاهذه المتشابهات الا من اقسام الاستعارات الغامضة اذانها صور للحقائق الغامضة * اما كون العبارة مشكلا فاما لدقة المعنى وعمقه وايجاز الاسلوب وعلويته فمشكلات القرآن من هذا القبيل * واما الاغلاق اللفظ وتعقيد العبارة المنافى للبلاغة فالقرآن مبرأ منه * فيا ايها المرتاب أفلايكون من عين البلاغة تقريب مثل هذه الحقائق العميقة البعيدة عن افكار الجمهور الى افهام العوام بطريق سهل اذ البلاغة مطابقة مقتضى الحال فتأمل * اما الجواب عن الريب الثانى وهو ابهام القرآن فى بحث تشكل الخلقة على ماشرحته الفنون الجديدة فاعلم ان فى شجرة العالم «ميل الاستكمال» وتشعب منه فى الانسان «ميل الترقى» وميل الترقى كالنواة * يحصل نشوه ونماه بواسطة التجارب الكثيرة وينشكل ويتوسع بواسطة تلاحق نتائج الافكار * فيثمر فنونا مترتبة بحيث لاينعقد المتأخر الابعد تشكل المتقدم ولايكون المتقدم مقدمة للمؤخر الابعد صيرورته كالعلوم المتعارفة فبناء على هذا السر لواراد احد تعليم فن اوتفهيم علم وهو انما تولد بتجارب كثيرة ودعى الناس اليه قبل هذا بعشرة اعصر لايفيد الا تشويش اذهان الجمهور * ووقوع الناس فى السفسطة والمغلطة * مثلا لوقال القرآن ايها الناس انظروا الى سكون الشمس [*] وحركة الارض واجتماع مليون حيوان فى قطرة لتتصوروا عظمة الصانع لاوقع الجمهور امافى التكذيب واما فى المغالطة مع انفسهم والمكابرة معها بسبب ان حسهم الظاهرى

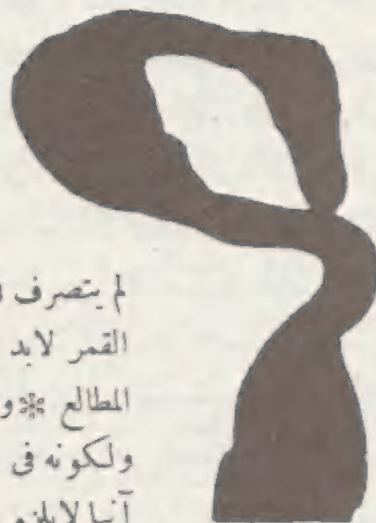
[*] قد سنح لى فى المرض بين النوم واليقظة فى (والشمس تجرى لمستقر) اى فى مستقرها لاستقرار منظومها اى جريانها لتوليد جاذبها النظامة للمنظومة الشمسية ولوسكنت لتناثرت

اوغلط الحس يرى سطحية الارض ودوران الشمس من البديهيات المشاهدة والحال ان تشويش الاذهان لاسيما فى مقدار عشرة اعصر لتشهى بعض اهل زماننا مناف لمنهاج الارشاد وروح البلاغة * ياهذا لاتظنن قياس امثالها على النظريات المستقبلة من احوال الآخرة اذ الحس الظاهرى لما لم يتعلق بجهة منها بقيت فى درجة الامكان فيمكن الاعتقاد والاطمئنان بها فحقها الصريح «التصريح بها» لكن مانحن فيه لما خرج من درجة الامكان والاحتمال فى نظرهم بحكم غلط الحس الى درجة البداهة عندهم فحقه فى نظر البلاغة «الابهام والاطلاق» احتراما لحسياتهم وحفظا لاذهانهم من التشويش * ولكن مع ذلك اشار القرآن ورمز ولوح الى الحقيقة وفتح الباب للافكار ودعاها للدخول بنصب امارات وقرائن * فياهذا ان كنت من المنصفين اذا تأملت فى دستور كلم الناس على قدر عقولهم ورأيت ان افكار الجمهور لعدم اعداد الزمان والمحيط لاتحمل ولاتهضم التكليف بمثل هذه الامور التى انما تتولد بنتائج تلاحق الافكار لعرفت ان ما اختاره القرآن من الابهام والاطلاق من محض البلاغة ومن دلائل اعجازه * اما الجواب عن الريب الثالث وهو امالة بعض ظواهر الآيات الى منافى الدلائل العقلية وماكشفه الفن فاعلم ان المقصد الاصلى فى القرآن ارشاد الجمهور الى اربعة اساسات هى اثبات الصانع الواحد والنبوة والحشر والعدالة فذكر الكائنات فى القرآن انما هو تبعى واستطرادى للاستدلال اذ ما نزل القرآن لدرس الجغرافيا والقوزموغرافيا بل انما ذكر الكائنات للاستدلال بالصنعة الالهية والنظام البديع على النظام الحقيقى جل جلاله والحال ان اثر الصنعة والعمد والنظام يتراأى فى كل شئ وكيف كان التشكل فلاعلينا اذ لايتعلق بالمقصد الاصلى فحينئذ مادام انه يبحث عنها للاستدلال * ومادام انه يجب كونه معلوما قبل المدعى * ومادام انه يستحسن وضوح الدليل كيف لايقتضى الارشاد والبلاغة تأنيس معتقداتهم الحسية وبماشاة معلوماتهم الادبية بامالة بعض ظواهر النصوص اليها لا ليدل عليها بل من قبيل الكنايات اومستتبعات التراكيب مع وضع قرائن وامارات تشير الى الحقيقة لاهل التحقيق * مثلا لو قال القرآن فى مقام الاستدلال ايها الناس تفكروا فى سكون الشمس مع حركتها الصورية وحركة الارض اليومية والسنوية مع سكونها ظاهرا وتأملوا فى غرائب الجاذب العمومى بين النجوم وانظروا الى عجائب الالكتريق والى الامتزاجات الغير المتناهية بين العناصر السبعين والى اجتماع الوف الوف حيوانات فى قطرة ماء لتعلموا ان الله على كل شئ قدير لكان الدليل اخفى واغمض واشكل بدرجات من المدعى وان هذا الا مناف لقاعدة الاستدلال ثم لانها من قبيل الكنايات لايكون معانيها مدار صدق وكذب ألاترى ان لفظ (قال) الف يفيد خفة سواء كان اصله واوا اوقافا اوكافا الحاصل ان القرآن لانه نزل لجميع الانسان فى جميع الاعصار يكون هذه النقط الثلاث دلائل اعجازه *والذى علم القرآن المعجز ان نظر البشير النذير وبصيرته النقادة ادق واجل واجلى وانفذ من ان يلتبس اويشتبه عليه الحقيقة بالخيال وان مسلكه الحق اغنى واعلى وانزه وارفع من ان يدلس اويغالط على الناس

المسألة السابعة

اعلم ان كتب السير والتاريخ قد ذكرت

كثيرا من معجزاته المحسوسة والخوارق الظاهرة المشهورة عند الجمهور وقد فسرها المحققون فلان تعليم المعلوم ضائع احلنا التفصيل على كتبهم فلنجمل بذكر الانواع فاعلم ان الخوارق الظاهرة وان كان كل فرد منها آحاديا غير متواتر لكن الجنس وكثيرا من الانواع متواتر بالمعنى * ثم ان انواعها ثلاثة ﴿الاول﴾ الارهاصات المتنوعة كانطفاء نار المجوس ويبوسة بحر ساوة وانشقاق ايوان كسرى وبشارات الهواتف حتى كأنه تخيل للانسان ان العصر الذى ولد فيه النبى عليه الصلاة والسلام صار حساسا ذا كرامة فبشر بقدومه بالحس قبل الوقوع ﴿النوع الثانى﴾ الاخبارات الغيبية الكثيرة من فتح كنوز كسرى وقيصر وغلبة الروم وفتح مكة وامثالها كأن روحه المجرد الطيار مزق قيد الزمان المعين والمكان المشخص فجال فى جوانب المستقبل فقال لنا كما شاهد ﴿النوع الثالث﴾ الخوارق الحسية التى اظهرها وقت التحدى والدعوى كتكلم الحجر وحركة الشجر وشق القمر وخروج الماء وقد قال الزمخشرى بلغ هذا النوع الى الف واصناف من هذا النوع متواترة بالمعنى حتى ان انشق القمر



لم يتصرف فى معناه من انكر القرآن ايضا ﴿فان قلت﴾ مثل انشقاق القمر لابد ان يشتهر فى العالم ويتعارف ﴿قيل لك﴾ فلاختلاف المطالع * ووجود السحاب * وعدم الترصد للسماء كما فى هذا الزمان * ولكونه فى وقت الغفلة * ولوجوده فى الليل * ولكون الانشقاق آنيا لايلزم ان يراه كل الناس او اكثرهم على انه قد ثبت فى الروايات انه قد رآه كثير من القوافل الذين كان مطلعهم ذلك المطلع ثم ان رئيس هذه المعجزات هو القرآن المبين المبرهن اعجازه بجهات سبعة اشير اليها فى هذه الآية * واذ تفهمت هذه المسائل فاستمع لما يتلى عليك من نظم الآية بوجوهها الثلاثة من نظم المجموع بما قبله ونظم الجمل بعضها مع بعض ونظم هيأت وقيود جملة جملة اما النظم الاول فمن وجهين الاول انه لما قال ياايها الناس لاثبات التوحيد على تفسير ابن عباس اثبت بهذه نبوة محمد عليه الصلاة والسلام الذى هو من اظهر دلائل التوحيد ثم ان اثبات النبوة بالمعجزات واعظم المعجزات هو القرآن وادق وجوه اعجاز القرآن ما فى بلاغة نظمه ثم انه اتفق الاسلام على ان القرآن

هذا النقش الغريب فى هذا المبحث العجيب وقع تصادفاً حينما نسخته فى ديار بكر بدار جودت بك فى تسعة عشر من شهر شباط عصر ليلة الجمعة وصادف سقوط بتليس واسارة المؤلف (بديع الزمان) تلك الليلة فكأن حصول هذا النقش على هذه الصحيفة فى تلك الليلة اشارة والله اعلم الى اراقة دماء من فى معية المؤلف من الطلبة واسارته فى تلك الليلة فى بتليس اه عبدالمجيد

وكذا يصور هذا النقش صورة حية لفت بالمؤلف ذنبها وهى مقطوعة الرأس وما هى الا الروس قطع الله رأسه وكذا يصور جدول الماء الذى سقط المؤلف فيه مجروحا و محصوراً وبقى فيه ثلاثين ساعة منتظراً للموت فى كل دقيقة اه حمزه

معجز الا ان المحققين اختلفوا فى طرق الاعجاز لكن لاتزاحم بين تلك الطرق بل كل اختار جهة من جهاته فعند بعض اعجازه اخباره بالغيوب * وعند بعض جمعه للحقائق والعلوم * وعند بعض سلامته من التخالف والتناقص وعند بعض غرابته اسلوبه وبديعيه ومقاطع ومبادى الآيات والسور * وعند بعض ظهوره من امى لم يقرأ ولم يكتب وعند بعض بلوغ بلاغة نظمه الى درجة خارجة عن طوق البشر وكذا وكذا الخ * ثم اعلم ان معرفة هذا النوع من الاعجاز تفصيلا انما تحصل بمطالعة امثال هذا التفسير * واجمالا يعرف بثلاث طرق كما حققها عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة والزمخشرى والسكاكى والجاحظ ﴿الطريق الاول﴾ هو ان قوم العرب * كانوا بدويين اميين ولهم محيط عجيب يناسبهم وقد انتبهوا بالانقلابات العظيمة فى العالم * وكان ديوانهم الشعر وعلمهم البلاغة ومفاخرتهم بالفصاحة فى امثال سوق عكاظة * وكانوا اذكى الاقوام وكانوا احوج الناس لجولان الذهن اذاً ولقد كان لاذهانهم فصل الربيع * فطلع عليهم القرآن بحشمة بلاغته فمحا وبهر تماثيل بلاغتهم وهى المعلقات السبعة المكتوبة بذوب الذهب على جدار الكعبة * مع ان اولئك الفصحاء البلغاء الذين هم امراء البلاغة وحكام الفصاحة * ماعارضوا القرآن وماحاروا ببنت شفة مع شدة تحدى النبى عليه السلام معهم * ولومه لهم وتقريعه اياهم وتسفيه لاحلامهم وتحريكه لاعصابهم فى زمان طويل * وتزيله لهم مع ان من بلغائهم من يحك بيافوخه كتف السماء ومنهم من يناطح «السماكين» بكبره فلولا انهم ارادوا وجربوا انفسهم فاحسوا بالعجز لماسكتوا عن المعارضة البتة فعجزهم دليل اعجاز القرآن ﴿والطريق الثانى﴾ هو ان اهل العلم والتدقيق واهل التنقيد الذين يعرفون خواص الكلام ومزاياه ولطائفه تأملوا فى القرآن سورةً سورةً وعشراً عشراً وآيةً آيةً وكلمةً كلمةً فشهدوا بانه جامع المزايا واللطائف وحقائق لاتجتمع فى كلام بشر فهؤلاء الشهداء الوف الوف * والذى يدل على صدق شهادتهم هو ان القرآن اوقع فى العالم الانسانى * تحولا عظيما واسس ديانة واسعة وادام على وجه الزمان ماشتمل عليه من العلوم فكلما شاب الزمان شب وكلما تكرر حلا فاذاً ان هى الاوحى يوحى ﴿والطريق الثالث﴾ كما حققه الجاحظ هو ان الفصحاء والبلغاء * مع شدة احتياجهم الى ابطال دعوى النبى عليه السلام * ومع شدة حقدهم وعنادهم له تركوا المعارضة بالحروف الطريق الاسلم والاقرب والاسهل والتجئوا الى المقارعة بالسيوف الطريق الاصعب الاطول المشكوكة العاقبة كثير الخواطر وهم بدرجة من الذكاء السياسى لايمكن ان يخفى عليهم التفاوت بين هذين الطريقين فمن ترك الطريق الاول لوامكن مع انه اشد ابطالا لدعواه واختار طريقا اوقع ماله وروحه فى المهالك فهو اما سفيه وهو بعيد ممن ساسوا العالم بعد ان اهتدوا واما انه احس من نفسه العجز عن السلوك فى الطريق الاول فاضطر للطريق الثانى ﴿فان قلت﴾ يمكن ان تكون المعارضة ممكنة ﴿قيل لك﴾ لوامكنت لطمع فيها ناس * لتحريك اعصابهم لها ولوطمعوا لفعلوا * لشدة احتياجهم ولو عارضوا لتظاهرت للرغبة وكثرة الاسباب

للظهور ولو تظاهرت لوجد من يلتزمها ويدافع عنها ويقول انه قدعورض لاسيما فى ذلك الزمان ولوكان لها ملتزمون ومدافعون ولو بالتعصب لاشتهرت لانها مسئلة مهمة ولواشتهرت لنقلها التواريخ كمانقلت هذيانات مسيلمة بقوله الفيل ماالفيل وما ادراك ماالفيل صاحب ذنب قصير وخرطوم طويل ﴿ فان قلت ﴾ مسيلمة كان من الفصحاء فكيف صار كلامه مسخرة واضحوكة بين الناس ﴿ قيل لك ﴾ لانه قوبل بمافاقه بدرجات كثيرة * ألاترى ان شخصا ولوكان حسنا اذاقوبل بيوسف عليه السلام لصار قبيحا ولوكان مليحا فثبت ان المعارضة لاتمكن فالقرآن معجز ﴿ فان قلت ﴾ للمرتابين كثير من الاعتراضات والشكوك على تراكيب القرآن وكلماته مثل (ان هذان) (والصابئون) (والذى استوقد نارا) وامثالها من الاعتراضات النحوية ﴿ قيل لك ﴾ عليك بخاتمة مفتاح السكاكى فانه القمهم الحجر بأفلا يتفطنون ان من كرر كلامه فى زمان مديد مع انه فصيح بالاتفاق كيف لايحس بالغلطات التى تظهر لنظر هؤلاء الحمقاء * اما الوجه الثانى لنظم الآية فاعلم ان الآية السابقة لما امرت بالعبادة استفسر ذهن السامع بعلى أية كيفيه نعبد فكأنه اجاب (كما علمكم القرآن) فعاد سائلا كيف نعرف انه كلام الله تعالى فاجاب بقوله ﴿وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا الخ﴾ * اما نظم الجمل بعضها مع بعض فهو ان جملة ﴿وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ قد وقعت فى موقعها المناسب اذ لما امر القرآن بالعبادة كأنه سئل كيف نعرف انه امر الله حتى يجب الامتثال فقيل له ان ارتبت فجرب نفسك لتيقن انه امر الله ومن وجوه النظم ايضا ان القرآن لما اثنى على نفسه بجملة ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ ثم استتبع مدحه مدح المؤمنين ثم استطرد مدح المؤمنين ذم الكافرين والمنافقين ثم استعقب الامر بالعبادة والتوحيد عاد القرآن الى الاول بالنظر الى (لاريب فيه) اى اما القرآن فليس قابلا للشك والريب فاريبكم الا من مرض قلوبكم وسقامة طبعكم كما قد ينكر ضوء الشمس من رمد وينفر طعم الماء من سقم * واما نظم ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فاعلم ان هذه جزاء الشرط وجزاء الشرط يلزم ان يكون لازما لفعل شرطه ولما كان الامر تعجيزيا استلزم تقدير تشبثوا ولما كان الامر انشاء والانشاء لايصير لازما يلزم ان يكون لازم الامر جزاء وهو الوجوب الذى هو من اصول معانى (الامر) ثم وجوب التشبث ايضا لايظهر لزومه للريب فاقتضى تقدير جمل مطوية تحت ايجاز الآية فالتقدير ان كنتم فى ريب انه كلام الله يجب عليكم ان تتعلموا اعجازه فان المعجز لايكون كلام البشر ومحمد عليه السلام بشر وان اردتم ظهور اعجازه فجربوا انفسكم ليظهر عجزكم فيجب عليكم التشبث باتيان سورة من مثله فلله در التنزيل مااوجزه وما اعجزه * واما نظم ﴿وادعوا شهدائكم من دون الله﴾ فثلاثة اوجه * ﴿ احدها ﴾ انهم يقولون عجزنا لايدل على عجز البشر فافحمهم بقوله (وادعوا شهدائكم) اى كبرائكم ورؤسائكم ﴿ والثانى ﴾ انهم يزعمون انا لوعارضنا فمن يلتزمنا ويدافع عنا فالقمهم الحجر بانه مامن مسلك الاوله متعصبون ولو عارضتم لظهر لكم شهداء يذبون عنكم ﴿ والثالث ﴾ ان القرآن كأنه يقول لما استشهد النبى عليه السلام الله تعالى صدقه الله وشهد له بوضع سكة الاعجاز على

دعواه فان كان فى آلهتكم وشهدائكم فائدة لكم فادعوهم وماهذا الانهاية التهكم بهم * واما نظم (فان لم تفعلوا) فظاهر اذا التقدير فان جربتم فانظروا فان لم تقدروا ظهر عجزكم ولم تفعلوا * واما نظم (ولن تفعلوا) فكأنه لما قال لم تفعلوا قيل من جانبهم عدم فعلنا فيما مضى لا يدل على عجز البشر فيما سيأتى فقال ولن تفعلوا فرمز الى الاعجاز بثلاثة اوجه ﴿احدها﴾ الاخبار بالغيب وكان كما اخبر * ألا ترى ان الملايين من الكتب العربية مع التمايل الى تقليد اسلوب التنزيل وكثرة المعاندين لو فتشتها لم يوافقه شئ منها كأن نوعه منحصر فى شخصه فماهو تحت الكل وهو باطل بالاتفاق فهو الافوق الكل ﴿والوجه الثانى﴾ ان القطع والجزم بعدم فعلهم مع التقريع عليهم وتحريك اعصابهم فى هذا المقام المشكل وفى هذه الدعوى العظيمة علامة صادقة على انه واثق امين مطمئن بحاله ومقاله ﴿والوجه الثالث﴾ ان القرآن كأنه يقول اذا كنتم امراء الفصاحة واشد الناس احتياجا اليها ولم تقدروا لم يقدر عليه البشر وكذا فيه اشارة الى ان نتيجة القرآن التى هى الاسلامية كما لم يقتدر على نظيرها الزمان الماضى كذا يعجز عن مثلها الزمان المستقبل * واما نظم (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) فاعلم ان تعقيب ان لم تفعلوا بفاتقوا يقتضى فى ذوق البلاغة تقديراً هكذا ان لم تفعلوا ولن * ظهر انه معجز فهو كلام الله فوجب عليكم الايمان به وامتثال اوامره ومن الاوامر ياايها الناس اعبدوا لتتقوا النار فاتقوا النار فاوجز فاعجز * واما نظم (التى وقودها الناس والحجارة) فاعلم ان المقصد من (فاتقوا) هو الترهيب ومعنى الترهيب انما يؤكد بالتهويل والتشديد فهوله بوقودها الناس اذ النار التى حطبها كان انسانا اخوف وادهش * ثم شدده بعطف الحجارة اذ ما تحرق الحجر اشد تأثيراً * ثم اشار الى الزجر عن عبادة الاصنام اى لو لم تمتثلوا امر الله وعبدتم احجاراً لدخلتم ناراً تأكل العباد ومعبوداتهم * واما نظم (اعدت للكافرين) فهو انها توضيح وتقرير لزوم جزاء الشرط لفعله اى هذه المصيبة ليست كالطوفان وسائر المصائب التى لا تصيب الظالمين خاصة بل تعم الابرار والاخيار فانما هذه تختص بالجانين بجرها الكفر لا سبيل للنجاة الا امتثال القرآن * ثم اعلم ان (اعدت) اشارة الى ان جهنم مخلوقة موجودة الآن لا كما زعمت المعتزلة ثم ان مما يدلك ويفيد حدسا لك على ابدية جهنم انك اذا تفكرت فى العالم بنظر الحكمة ترى النار مخلوقة عظيمة مستولية غالبة كأنها عنصر اساس فى العلويات والسفليات وتفهمت وجود رأس عظيم وثمرة عجيبة تدلت الى الابد * ألا ترى ان من رأى عرقا ممتدا تفطن لوجود بطيخ مثلا فى رأسه وكذلك من رأى الحلقة النارية تفطن لانتهائها الى حنظلة جهنم وكذا من رأى النعم والمحاسن واللذائذ يحدس بان مصبها وملخصها وروضها الجنة ﴿فان قلت﴾ اذا كانت جهنم موجودة الآن فاين موضعها ﴿قيل لك﴾ نحن معاشر اهل السنة والجماعة نعتقد وجودها الآن لكن لا نعين موضعها ﴿فان قلت﴾ ان ظواهر الاحاديث تدل على انها تحت الارض وفى حديث ان ناره اشد واحر من نار الدنيا بمائتى دفعة وان الشمس ايضا تدخل فى جهنم ﴿قيل لك﴾ ان تحت الارض عبارة عن مركزها اذ تحت الكرة مركزها وقد ثبت فى نظريات

الحكمة ان فى مركزها ناراً بالغة فى الشدة الى مقدار مائتى الف درجة اذ كلما تحفر الارض ثلاثة وثلاثين ذراعا بذراع التجار تتزايد تقريبا درجة حرارة فالى المركز تصير تقريبا مائتى الف درجة * فهذا النظرى مطابق لمآل الحديث الذى يقول انها اشد من نار الدنيا بمائتى درجة وايضا فى الحديث ان قسما من تلك النار زمهرير تحرق ببرودتها * وهذا الحديث مطابق لهذا النظرى اذ النار المركزية مشتملة على المراتب النارية كلها الى السطح * وقد تقرر فى الحكمة الطبيعية ان للنار مرتبة تجذب دفعة حرارة مجاورها فتحرقه بالبروردة وتصير الماء جمداً ﴿فان قلت﴾ مافى جوف الارض ومظروفها صغير فكيف تسع جهنم التى تسع السموات والارض ﴿قيل لك﴾ نعم باعتبار الملك والمطوية وان كانت مظروفة للارض لكن بالنظر الى العالم الاخروى بالغة فى العظمة الى درجة تسع الوفا من امثال هذه الارض بل ان عالم الشهادة كحجاب مانع لارتباط تلك النار بسائر اغصانها فما فى جوف الارض الا مركزها وسرها اوقلب عفريتها * وايضا لاتستلزم التحتية اتصالها بالارض اذ شجرة الخلقة اثمرت اغصانها الشمس والقمر والنجوم وارضنا وارضين اخرى فما تحت الثمرة يشمل مابين الاغصان اين كان * فملك الله تعالى واسع وشجرة الخلقة منتشرة فاين سافرت جهنم لاترد * وفى حديث (ان جهنم مطوية) فيمكن ان تكون بيضة لارضنا الطيارة متى يتمزق حجاب الملك ينفلق تلك البيضة وتتظاهر هى كاشرة اسنانها لاهل العصيان * ويحتمل ان ماشبط اهل الاعتزال واوقعهم فى الغلط بعدم وجودها الآن انما هو هذه المطويية * ومانظم هيأت وقيود جملة جملة فاعلم ان جملة (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) الواو فيها بناء على المناسبة بين المتعاطفين تومى الى تقدير (كما علمكم القرآن) وايراد (ان) الترديدية فى موضع (اذا) التى هى للقطع مع ان ريبهم مجزوم به اشارة الى انه لاجل ظهور اسباب زوال الريب شأنه ان يكون مشكوك الوجود بل من المحال يفرض فرضا ثم ان الشك فى ان بالنظر الى الاسلوب لا بالقياس الى المتكلم تعالى * وايراد (كنتم فى ريب) بدل ارتبتم مع انه اقصر اشارة الى ان منشأ الريب طبعهم المريض وكونهم * وظرفية الريب لهم مع انه مظروف لقلبهم ايماء الى ان ظلمة الريب انتشرت من القلب فاستولى على القالب فاظلم عليه الطرق وتنكير ريب للتعميم اى أى نوع من انواع الريب ترتابونه فالجواب واحد وهو ان هذا معجز وحق فتخطئكم بالنظر السطحى خطأ فلا يلزم لكل ريب جواب خاص * ألا ترى ان من رأى رأس عين وذاقه عذبا فراتا لايحتاج الى ذوق كل جدول وفرع قد تشعب منه * ومن فى (مما نزلنا) ايماء الى تقدير لفظ فى شئ مما ولفظ (نزلنا) اشارة الى ان منشأ شبهتهم هو صفة النزول فالجواب القاطع اثبات النزول فقط * وايثار (نزلنا) الدال على النزول تدريجا على انزلنا الدال عليه دفعة اشارة الى ان ماتحتجون به قولهم (لولا نزل عليه دفعة) بل على مقتضى الواقعات تدريجا نوبة نوبة نجما نجما سورة سورة * وايثار العبد على النبى ومحمد اشارة الى تعظيم النبى وايماء الى علو وصف العبادة وتأكيد لامر اعبدوا ورمز الى

دفع اوهام بان للنبي عليه السلام اعبد الناس واكثرهم تلاوة للقرآن فتفكر وان جملة (فأتوا بسورة من مثله) الامر فى فأتوا للتعجيز وفيه * التحدى والتقريع والدعوة الى المعارضة والتجربة ليظهر عجزهم ولفظ (بسورة) اشارة * الى نهاية افحام وشدة تبكيت وغاية الزام اذ ﴿ اول﴾ طبقات التحدى هو ان يقال فأتوا بمثل تمام القرآن بحقائقه وعلومه واخباراته الغيبية مع نظمه العالى من شخص امى ﴿ وثانيها﴾ ان يقال ان لم تفعلوا كذا فأتوا بها مفتريات لكن بنظم بليغ مثله ﴿وثالثها﴾ ان يقال ان لم تفعلوا هكذا ايضا فأتوا بمقدار عشر سور ﴿ورابعها﴾ انه ان لم تقدروا عليه ايضا فلااقل من ان تأتوا بقدر سورة طويلة ﴿وخامسها﴾ انه ان لم يتيسر لكم هذا ايضا فأتوا بمقدار سورة مطلقا ولو اقصر كأنا اعطينا من شخص امى مثله ﴿وسادسها﴾ انه ان لم يمكنكم الاتيان من امى فأتوا من عالم ماهر وكاتب حاذق ﴿وسابعها﴾ انه ان تعسر عليكم هذا ايضا فليتعاون بعضكم بعضا على الاتيان ﴿وثامنها﴾ انه ان لم تفعلوا فاستعينوا بكافة الانس والجن واستمدوا من مجموع نتائج تلاحق افكارهم من آدم الى قيام الساعة ونتائج افكارهم هى مابين ايديكم من هؤلاء الكتب على الاسلوب العربى مع شوق التقليد وعناد المعارضة فضلا عن اهل التحقيق لو تصفحها من له ادنى مسكة ولو جاهلا لقال ليس فيها مثله فماهو تحت الكل وهو باطل بالاتفاق واما فوق الكل وهو المطلوب كما مر آنفا نعم لم يعارض فى ثلاثة عشر عصراً هكذا مر الزمان وهكذا يمر الى يوم القيامة ﴿ وتاسعها ﴾ ان يقال لا تحتجوا بان ليس لنا شهداء وانتم لا تشهدون لنا ألا فادعوا شهدائكم والمتعصبين لكم فليراجعوا وجدانهم هل يتجاسرون على تصديق دعواكم المعارضة واذا تفهمت هذه الطبقات فانظر الى القرآن كيف اعجز بان اوجز فاشار الى هذه المراتب فالقمهم الحجر وارخى لهم العنان * ثم اعلم ان عجز البشر عن معارضة اقصر سورة انيته بديهية * واما لميته فقيل هى ان الله تعالى صرف القوى عن المعارضة والمذهب الاصح فى اللمية ماعليه عبد القاهر الجرجانى والزمخشرى والسكاكى وهو ان قدرة البشر لا تصل الى درجة نظمه العالى * ثم ان السكاكى اختار ان الاعجاز ذوقى لا يعبر عنه ولا يشرح بل يذاق ذوقا * واما صاحب دلائل الاعجاز فاختار انه يمكن التعبير عنه ونحن على مذهبه فى هذا البيان وايثار (سورة) على نجم اوطائفة اونوبة اشارة الى الزامهم فى منشأ شبهتهم وهى لولا انزل عليه دفعة واحدة اى فهاتوا انتم ولو بنوبة فذة وايضا ايماء الى تضمن تسوير التنزيل سورة سورة لفوائد جمة بينها الزمخشرى والى تضمن هذا الاسلوب الغريب للطائف ولفظ (من مثله) فيه معنيان اى بمثل المنزل اومن مثل المنزل عليه * اعلم ان حق العبارة على الاول مثل سورة منه لكن عدل الى (من مثله) للايماء الى ملاحظة الاحتمال الثانى اى انما تكون معارضتكم مبطلة لدعواه لو جائت من مثله فى عدم التعلم * وكذا اشارة الى ان المعارضة انما تبطل الاعجاز لو كان المعارض به من مجموع مثل * وكذا رمز الى توجيه الاذهان الى امثال القرآن فى النزول من الكتب السماوية ليوازن ذهن السامع بينها فيتفطن لعلوه * وان جملة (وادعوا شهدائكم من دون الله) ايثار (ادعوا) فيها على استعينوا

اواستمدوا ايماء الى ان من يلبيهم ويذب عنهم لايفقدهم بل حاضر لايحتاجون الا الى ندائه ❊ ولفظ (شهداء) جامع لثلاثة معان اى كبرائكم فى الفصاحة ومن يشهدلكم و آلهتكم فنظراً الى الاول الزام لهم يقطع تحججهم بان عدم قدرتنا لايدل على عدم قدرة كبرائنا ونظراً الى الثانى افحام لهم يقطع تعللهم بان ليس لنا شهداء بانه لامسلك الاله ذابون وشهداء ونظراً الى الثالث تبكيت لهم وتهكم بهم بان الآلهة التى ترجون منها النفع ودفع الضر كيف لاتعينكم فى هذا الامر الذى يهمكم ❊ واضافة (شهداء) الى (كم) المفيدة للاختصاص تقوى عضد المعنى الاول بان الكبراء حاضرون معكم وبينكم اختصاص لواقتدروا لعاونوكم البتة ❊ وتصل جناح المعنى الثانى بانا نقبل شهادة من يلتزمكم ويتعصب لكم فانهم ايضا لايتجاسرون على الشهادة على بديهى البطلان ❊ وتأخذ بساعد المعنى الثالث مع التقريع بان الآلهة التى اتخذتموها معبودات كيف لاتمدكم ❊ ولفظ (من دون الله) نظراً الى الاول اشارة الى التعميم اى كل فصيح فى الدنيا ماخلا الله تعالى وكذا الى ان اعجازه ليس الا لانه من الله ونظر الى الثانى اشارة الى عجزهم ومبهوتيتهم بقولهم الله شاهد الله عليم انانقتدر لان ديدن العاجز المحجوج الحلف بالله والاستشهاد به على مالايقتدر على الاستدلال عليه ❊ ونظرا الى الثالث اشارة الى ان معارضتهم مع النبى عليه الصلاة والسلام ليست الا مقابلة الشرك بالتوحيد والجمادات بخالق الارض والسموات وان جملة (ان كنتم صادقين) اشارة الى قولهم لوشئنا لقلنا مثل هذا ❊ وكذا تعريض بانكم لستم من اهل الصدق الا ان يفرض فرضا بل من اهل السفسطة ماوقعتم فى الريب من طريق طلب الحق بل طلبتم فوقعتم فيه ❊ ثم ان جزاء هذا الشرط محصل ماقبله اى فافعلوا ❊اماجملة (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) الى آخره فاعلم ان (ان كنتم صادقين) احتجاج القرآن عليهم بقياس استثنائى استثنى نقيض التالى لانتاج نقيض المقدم تلخيصه ان كنتم صادقين تفعلوا المعاضة وتأتوا بسورة لكن ماتفعلون ولن تفعلوا فانتج فلم تكونوا صادقين فكان خصمكم وهو النبى عليه السلام صادقا فالقرآن معجز فوجب عليكم الايمان به لتتقوا من العذاب انظر كيف اوجز التنزيل فاعجز ❊ ثم انه ذكر موضع استثناء نقيض التالى وهو لكن ماتفعلون لفظ ان لم تفعلوا مشيراً بتشكيك ان الى مجاراة ظنهم وبالشرطية الى استلزام نقيض التالى لنقيض المقدم ❊ ثم ذكر موضع النتيجة وهى نقيض المقدم اعنى فلم تكونوا صادقين علة لازم لازمها وهى قوله (فاتقوا النار) لتهويل الترهيب والتهديد ❊ اما (ان لم تفعلوا) الماضى بالنظر الى لم والمستقبل بالقياس الى ان فلتوجيه الذهن الى ماضيهم كأنه يقول لهم انظروا الى خطبكم المزينة ومعلقاتكم المذهبة أتساويه اوتدانيه اوتقع قريبا منه ❊ وايثار (تفعلوا) على تأتوا لنكتتين ❊ احديهما الايماء الى ان منشأ الاعجاز عجزهم ومنشأ العجز الفعل لا الاثر ❊ والثانية الايجاز اذ (فعل) كما انه فى الصرف ميزان الافعال وجنسها كذلك فى الاساليب مصدر الاعمال وملخص القصص كأنه ضمير الجمل كناية عنها اما (ولن تفعلوا) فاعلم ان التأكيد والتأبيد فى لن ايماء الى القطعية وهى اشارة الى ان القائل مطمئن جدى

لاريب له فى الحكم وهذا من الى ان لاحيلة * اما (فاتقوا) بدل تجنبوا فللايماء الى ماناب عنه الجزاء من آمنوا واتقوا الشرك الذى هو سبب دخول النار * اما تعريف النار فللعهداى النار التى عهدت واستقرت فى اذهان البشر بالتسامع عن الانبياء من آدم الى الآن * واما توصيفها بالتى الموصولة مع ان من شأنها ان تكون معلومة اولا فلاجل نزول (ناراً وقودها الناس والحجارة) قبل هذه الآية فالمخاطبون قدسمعوا تلك فالموصولية فى موقعها * واما (وقودها الناس والحجارة) فالغرض كما مر آنفا الترهيب والترهيب يؤكد بالتهويل والتشديد فهول بلفظ الناس كما قرع به وشدد بالحجارة كما وبخ بها اى ماترجون منه النفع والنجاة وهو الاصنام يصير آلة لتعذيبكم * واما جملة (اعدت للكافرين) فاعلم ان الموضع موضع اعدت لكم لكن القرآن يذكر الفذلكة والقاعدة الكلية فى الاغلب فى آخر الآيات ليشير بالتعميم الى كبرى دليل الحكم اذا حاصل الكلام اعدت لكم ان كفرتم لانها اعدت للكافرين فلهذا اقيم المظهر مقام المضمر * واما ماضية (اعدت) فاشارة كما مر الى وجود جهنم الآن (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون) فاعلم ان نظم هذه الآية كأخواتها بثلاثة وجوه نظم المجموع بما قبله والجمل بعضها مع بعض والهيأت * اما الاول فاعلم ان لمآلها ارتباطات متفاوتة مع الآيات السابقة وخطوطا ممتدة بالاختلاف الى الجمل السالفة * ألا ترى ان القرآن لما اثنى فى رأس السورة على نفسه وعلى المؤمنين بالايمان والعمل الصالح كيف اشار بهذه الآية الى نتيجة الايمان وثمرة العمل الصالح وكذا لماذم الكفار وشنع على المنافقين وبين طريقهم المنجر الى الشقاوة الابدية لوح لهم بهذه الآية الى نور السعادة الابدية فاراهم ليزيدوا حسرة على حسرة بفوات هذه النعمة العظمى * ثم لما كلف (ياايها الناس اعبدوا) مع ان فى التكليف مشقة وكلفة وترك اللذائذ العاجلة فتح لهم ابواب الآجلة فاراهم بهذه الآية تطمينا لنفوسهم وتأمينا لهم * ثم لما اثبت التوحيد الذى هو اول اركان الايمان الذى هو اساس التكليف صرح فى هذه الآية بثمرة التوحيد وعنوان الرحمة وديباجة الرضاء باراءة الجنة والسعادة الابدية * ثم لما اثبت النبوة ثانية اركان الايمان بالاعجاز بقوله (وان كنتم فى ريب) الخ اشار بهذه مع المطوى قبلها الى وظيفة النبوة ومكلفية النبى وهى الانذار والتبشير بلسان القرآن * ثم لما اوعد ورهب وانذر فى سابقتها القريبة وعد ورغب وبشر بهذه الآية بسر ان التضاد مناسبة * وايضا ان الذى يطيع النفس ويديم الاطاعة ويصير الوجدان مطيعا لحكم العقل تهييج حس الخوف وحس الشوق معا بجمع الترغيب والترهيب اذ حكم العقل وامره موقت فلابد من وجود محرك آمر دائمى فى الوجدان * وكذا لما اشار بالسابقة الى احد شقى الآخرة كمل بهذه الآية الشق الآخر وهو منبع السعادة الابدية * وكذا لما لوح هناك بالنار الى جهنم صرح هنا بالجنة * ثم اعلم ان الجنة وجهنم ثمرتان تدليا الى الابد من شجرة الخلقة * ونتيجتان لسلسلة الكائنات ومخزنان لانصاب الكائنات

* وحوضان للكائنات الجارية الى الابد ثم تمخض الكائنات وتخلط بحركة عنيفة فتظاهر الجنة وجهنم فتمتلئان * وايضاحه هوان الله جل جلاله لما اراد ان يبدع عالما للابتلاء والامتحان لحكم كثيرة تدق عن العقول * واراد تغيير ذلك العالم وتحوله لحكم مزج الشر بالخير * وادرج الضر فى النفع * وادمج القبح فى الحسن فوصلها بجهنم وامدهابها وساق المحاسن والكمالات تجلى فى الجنة * وايضا لما اراد تجربة البشر ومسابقتهم واراد وجود اختلافات وتغيرات فيهم فى دار الابتلاء خلط الاشرار بالابرار * ثم لما انقضى وقت التجربة وتعلقت الارادة بابديتهم جعل الاشرار مظهر خطاب (وامتازوا اليوم ايها المجرمون) وصير الابرار مظهر تلطيف وتشريف (فادخلوها خالدين) ولما امتاز النوعان تصفت الكائنات فانسلت مادة الضر والشر عن عنصر النفع والخير والكمال فاختارت جانبا والحاصل انه لوامعن النظر فى الكائنات صودف فيها عنصران اساسان وعرقان ممتدان اذا تحصلا وتأبدا صارا جنة وجهنم ﴿ مقدمة ﴾ هذه الآية مع ماقبلها اشارة الى القيامة والحشر فمدار النظر فى هذه المسئلة اربع نقط * احديها امكان خراب العالم وموته والثانية وقوعه والثالثة التعمير والاحياء والرابعة وقوعه * اما امكان موت الكائنات فاعلم ان الشئ الداخل تحت (قانون التكامل) ففيه نشوونماء * فله عمر طبيعى فله اجل فطرى لايخلص من حكم الموت بدليل استقراء اكثر افراد الانواع فكما ان الانسان عالم صغير لاخلاص له من الخرابية * كذلك العالم انسان كبير لامناص له من الموت البتة وكما ان الشجر نسخة من الكائنات يعقبها التخريب والانحلال * كذلك سلسلة الكائنات من شجرة الخلقة لامناص لها من يد التخريب للتعمير ولان لم يعرض عاصفة اومرض خارجى بالارادة الازلية قبل العمر الفطرى * ولم يخربها صانعها قبله ليجئ بالضرورة وعلى كل حال حتى بالحساب الفنى يوم يتحقق فيه (اذا الشمس كورت) (واذا النجوم انكدرت) (واذا السماء انشقت) فيتظاهر فى الفضاء سكرات (الانسان الكبير) بخرخرة عجيبة وصوت هائل * اما وقوعه فباجماع كل الاديان السماوية وبشهادة كل فطرة سليمة وباشارة تغيروتبدل وتحول الكائنات وان شئت ان تتصور سكرات العالم وخرخرته فاعلم ان الكائنات قدارتبطت بنظام علوى دقيق * واستمسكت بروابط عجيبة فاذا صارجسم من الاجرام العلوية مظهر خطاب (كن) اواخرج عن محورك * ترى العالم يشرع فى السكرات وترى النجوم تتصادم * وتتلاطم الاجرام فترعد وتصيح فى الفضاء الغير المتناهى ويضرب بعض وجه بعض وترمى بشرر كارضنا هذه بل اكبر فكيف انت بخرخرة موت صوتها محصل ملايين مرامى مدافع رصاصها الصغرى اكبر من الارض فبهذا الموت تمخض الخلقة وتميز الكائنات فتمتاز جهنم بعشيرتها ومادتها وتجلى الجنة جامعة لطائفتها مستمدة من عناصرها ﴿ فان قلت ﴾ لم كانت الكائنات مغيرة موقتة تخرب ثم تصير يوم القيامة مؤبدة محكمة ثابتة ﴿ قيل لك ﴾ ان الحكمة والعناية الازليتين لما اقتضتا التجربة والابتلاء والنشو والنماء فى الاستعدادات وظهور القابليات * وظهور الحقائق النسبية التى تصير فى الآخرة حقائق

حقيقية * ووجود مراتب نسبية وحكم كثيرة لاندركها العقول جعل الصانع جل جلاله الطبائع مختلطة * والمضار ممزوجة بالمنافع والشرور متداخلة بين الخير والمقابح مجتمعة مع المحاسن فخمرت يد القدرة الاضداد تخميراً فصيرت الكائنات تابعة لقانون التبدل والتغير * والتحول والتكامل فلما انسد ميدان الامتحان وانقضى وقت الابتلاء وجاء وقت الحصاد اراد الصانع جل جلاله بعنايته * تصفية الاضداد المختلطة للتأبيد وتميز اسباب التغير وتفريق مواد الاختلاف * فتحصل جهنم بجسم محكم مظهرا لخطاب فامتازوا وتجلى الجنة بجسم مؤبد مشيد مع اساساتها بسر ان المناسبة شرط الانتظام والنظام سبب الدوام * ثم انه تعالى اعطى بقدرته الكاملة لساكنى هذين الدارين الابديتين وجودا مشيدا لاسبيل للانحلال والتغير اليه على ان التغير هنا المنجر الى الانقراض انما هو بتفاوت النسبة بين التركيب وما يحلل * واما هناك فلاستقرار النسبة يجوز التغير بلا انجرار الى الانحلال * واما النقطة الثالثة والرابعة اعنى امكان التعمير والحشر ووقوعه فاعلم ان التوحيد والنبوة لما لم يصح اثباتهما بالدليل النقلى فقط للزوم الدور اشار القرآن الى الدلائل العقلية عليهما * اما الحشر فيجوز اثباته بالعقل والنقل * اما العقلى فراجع الى مابينا بقدر الطاقة فى تفسير (وبالآخرة هم يوقنون) حاصله ان النظام والرحمة والنعمة انما تكون نظاما ورحمة ونعمة ان جاء الحشر * واما النقلى فقول كل الانبياء مع حكم القرآن المعجز بوقوعه * واما النقلى مع الرمز للعقلى فراجع هذا الموضع من تفسير فخر الدين الرازى فانه عدد الآيات المثبتة للحشر * والحاصل انه مامن متأمل فى نظائر واشباه وامثال الحشر فى كثير من الانواع الا ويحدس من تفاريق الامارات الى وجود الحشر الجسمانى والسعادة الابدية * امانظم جملها بعض مع بعض فاعلم ان السلك الذى نظم فيه جواهر جمل هذه الآية وسلسلتها هى ان السعادة الابدية قسمان * الاول الاولى رضاء الله تعالى وتلطيفه وتجليه وقربيته والثانى السعادة الجسمانية وهى بالمسكن والمأكل والمنكح ومتممها ومكملها جميعا هو الدوام والخلود * ثم ان اقسام الاول مستغنية عن التفصيل اوغير قابلة * واما اقسام الثانى فالمسكن الطفه مايجرى الماء بين نباتاته ألا ترى ان ملهم الشعر ومفيض العشق فى القلوب انما هو خشخشة الماء وخريره ككشكشة الانهار وصفيرها تحت القصور وبين البساتين * والمأكل الرزق ولانه قوت يكون كمال لذته فيما حصل به الالفة والانسية * ولانه تفكه يكون كمال لذته فى التجدد من جهة اذبحكم المألوفية يعرف درجة علو النعمة وتفوقها على نظيرها وكذا من مكملات اللذة ان يعرف انه جزاء عمله * ومنها ان يكون منبعه ومخزنه حاضراً نصب العين لتحصل لذة الاطمئنان * واما المنكح فاعلم ان من اشد حاجات الانسان وجود قلب مقابلا لقلبه * لمداولة المحبة ومبادلة العشق والمؤانسة والتشارك فى اللذة بل التعاون فى امثال الحيرة والتفكر ألا ترى ان من رأى ما يتحير فيه اويتفكر فى امر عجيب يدعو ولوذهنـا من يعينه فى تحمل الحيرة * ثم ان الطف القلوب واشفقها واحرها قلب القسم الثانى * ثم ان متمم الامتزاج الروحى ومكمل الاستيناس

القلبي * ومصفى الاختلاط الصورى كون القسم الثانى مبرأة ومطهرة من الاخلاق السيئة والعوارض المنفرة ﴿ فان قلت ﴾ ان الاكل لبقاء الشخص اذبه يحصل تعمير مايتحلل وان النكاح لبقاء النوع مع ان الاشخاص فى الآخرة مؤبدون لايقع فيهم التحويل والانحلال وكذا لاتناسل فى الآخرة ﴿ قيل لك ﴾ ان فوائد الاكل والنكاح ليست منحصرة فى البقاء والتناسل بل فيهما لذة عظيمة فى هذا العالم الالمى وكيف لايكون فيهما فى عالم السعادة واللذة لذات عالية منزهة ﴿ فان قلت ﴾ ان اللذة هنا دفع الالم ﴿ قيل لك ﴾ ان دفع الالم سبب من اسباب اللذة * وايضا قياس العالم الابدى على هذا العالم قياس مع الفارق بل ان النسبة بين حديقة «خورخور» هذه وتلك الجنة العالية هى النسبة بين لذائذ الآخرة ونظائرها فى هذا العالم فكما تفوق تلك الجنة على الحديقة بدرجات غير محصورة كذلك هذه * والى هذا التفاوت العظيم اشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بقوله ليس فى الجنة الا اسماؤها اى ثمرات الدنيا * اما الخلود ودوام اللذة فاعلم ان اللذة انما تكون لذة حقيقية ان لم ينغصها الزوال اذ كما ان دفع الالم لذة او سبب لها * كذلك زوال اللذة الم * بل تصور زوال اللذة الم ايضا حتى ان مجموع اشعار العشاق المجازين انما هى انين ونياح ومن هذا الالم * وان ديوان كل عاشق غير حقيقى انما هو بكاء وعويل من هذا الالم الناشى من تصور زوال المحبوب * نعم ان كثيراً من اللذائذ الموقتة اذا زالت اثمرت آلاما مستمرة كلما تذكرها يفور من فيه ايواه واسفا المترجمين عن هذا الالم الروحانى * وان كثيرا من الآلام اذا انقضت اولدت لذات مستمرة كلما تذكرها الشخص وهو قد نجا يتكلم بالحمد لله الملوح لنعمة معنوية * اجل ان الانسان مخلوق للابد فانما تحصل له اللذة الحقيقية فى الامور الابدية * كالمعرفة الآلهية والمحبة والكمال والعلم وامثالها والحاصل ان اللذة والنعمة انما تكونان لذة ونعمة ان كانتا خالدتين واذا رأيت هذا السلك فانظم فيه جمل الآية * اما جملة ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فاعلم انه تعالى لما كلف الناس واثبت النبوة وكلف النبي بالتبليغ امره بالتبشير تأمينا لامتثال التكليف الذى فيه مشقة وترك للذائذ الدنيوية فكما انه مأمور بالانذار كذلك مأمور بالتبشير برضاء الله تعالى وتلطيفه وقربيته وبالسعادة الابدية * واما جملة ﴿ان لهم جنات تجرى﴾ فاعلم كما مر ان اول حاجات الانسان الضرورية لانه جسم المكان والمسكن وان احسن المكان هو المشتمل على النباتات والاشجار وان الطفه هو الذى يتسلسل بين خضرواته الماء * وان اكمله هو الذى تجرى بين اشجارها وتحت قصورها الانهار بكثرة فلهذا قال تجرى من تحتها الانهار * ثم ان اشد الحاجات كما سمعت آنفا بعد المكان واكمل اللذائذ الجسمانية هو الاكل والشرب اللذين يشير اليهما الجنة والنهر * ثم ان اكمل الرزق هو ان يكون مألوفا ومأنوسا ليعرف درجة تفوقه على نظيره وألذ الفاكهة ان تكون متجددة * وان اصفى اللذة هو ان يكون المقطف معلوما وقريبا وان الذها ان يعرف انها ثمرة عمله فلهذا قال ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ اى فى الدنيا او قبل هذا الآن * واما ﴿وأتوا به متشابها﴾ فاعلم ان فى الحديث ان صورتها واحدة والطعم مختلف فتشير الآية الى لذة التجدد فى الفاكهة *

وان كمال اللذة ان يكون الشخص مخدوما يؤتى اليه * واما جملة (ولهم فيها ازواج مطهرة) فاعلم كما رأيت فى السلك ان الانسان محتاج لرفيقة وقرينة * يسكن اليها وينظر بعينها وتنظر بعينه ويستفيد من المحبة التى هى الطف لمعات الرحمة ألا ترى ان الانسية التامة هنا بهن * واما جملة (وهم فيها خالدون) فاعلم ان الانسان اذا صادف نعمة اواصاب لذة فاول مايتبادر لذهنه أتدوم ام تنغص بزوال * فلهذا اشار الى تكميل النعمة بخلود الجنة ودوامهم وازواجهم فيها ودوام اللذائذ واستمرار الاستفادة بقوله (وهم فيها خالدون) اما نظم هيأت جملة جملة فجملة (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الواو فيها بسر المناسبة بين المتعاطفين اشارة الى (انذر) الذى يتقطر من انف السابقة * واما (بشر) فرمز الى ان الجنة بفضله تعالى لاواجب عليه * وكذا الى ان لابد ان لايكون العمل لاجل الجنة واما صورة الامر فى بشر فايماء الى بلغ مبشرا فانه مكلف بالتبليغ * واما (الذين آمنوا) بدل المؤمنين الاقصر فتلويح الى (الذين) الذى مر فى رأس السورة ليكون تفصيله هناك مبينا لما اجمل هنا * واما ايراد (آمنوا وعملوا) على صيغة الماضى هنا مع ايراد يؤمنون وينفقون هناك بصيغة المضارع فللاشارة الى ان مقام المدح والتشويق على الخدمة شأنه المضارع * واما مقام المكافات والجزاء فالمناسب الماضى اذ الاجرة بعد الخدمة * واما واو (وعملوا) فاشارة بسر المغايرة الى ان العمل ليس داخلا فى الايمان كما قالت المعتزلة * والى ان الايمان بغير عمل لايكفى ولفظ العمل رمز الى ان مايبشر به كالاجرة * اما (الصالحات) فمبهمة ومجملة قال شيخ محمد عبده المصرى الاطلاق هنا حوالة على الاشتهار وتعارف الصالحات بين الناس اقول وكذا اطلقت اعتماداً على رأس السورة * واما جملة (ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار) فاعلم ان هيأتها من تحقيق ان وتخصيص (اللام) وتقديم لهم وجمع الجنة وتنكيرها وذكر الجريان وذكر من مع تحت وتخصيص نهر وتعريفه تتعاون وتتجاوب على امداد الغرض الاساسى الذى هو السرور ولذة المكافات كالارض النشفة الرطبة ترشح بجوانبها الحوض المركزى لان ان اشارة الى ان البشارة بما هو فى هذه الدرجة من العظمة يتردد فيها العقل فتحتاج الى التأكيد وايضا من شأن مقام السرور طرد الاوهام اذ طريان ادنى وهم يكسر الخيال ويطير السرور * وكذا ايماء الى ان هذا ليس وعداً صرفا بل حقيقة من الحقائق * ولام لهم اشارة الى الاختصاص والتملك والاستحقاق الفضلى لتكميل اللذة وزيادة السرور والا فكثيرا ما يضيف ملك مسكينا * وتقديم (لهم) اشارة الى اختصاصهم بين الناس بالجنة اذ ملاحظة حال اهل النار سبب لظهور قيمة لذة الجنة وجمع جنات اشارة الى تعدد الجنان وتنوع مراتبها على نسبة تنوع مراتب الاعمال وكذا رمز الى ان كل جزء من الجنة جنة وكذا ايماء الى ان مايصيب حصة كل لوسعته كأنه كالجنة بتمامها لا كأنه يساق بجماعتهم الى موضع وتنكير (جنات) يتلو على ذهن السامع فيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكذا يحيل على اذهان السامعين حتى يتصورها كل على الطرز الذى يستحسنه وكذا كأن التنوين بدل

(فيها ماتشتهيه الانفس) * واما (تجرى) فاعلم ان احسن الرياض مافيها ماء ثم احسنها مايسيل ماؤها ثم احسنها مااستمر السيلان فبلفظ تجرى اشار الى تصوير دوام الجريان * واما (من تحتها) فاعلم ان احسن الماء الجارى فى الخضروات ان ينبع صافيا من تلك الروضة ويمر متخرخراً تحت قصورها * ويسيل منتشراً بين اشجارها فاشار بمن تحتها الى هذه الثلاثة * واما (الانهار) فاعلم ان احسن الماء الجارى فى الجنان ان يكون كثيراً * ثم احسنه ان تتلاحق الامثال من جداوله فان بتناظر الامثال يتزايد الحسن على قيمة الاجزاء * ثم احسنه ان يكون الماء عذبا فراتا لذيذاً كما قال (لبن غير آسن) فبلفظ نهر وجمعه وتعريفه اشار الى هذه * اما جملة (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فاعلم ان هيأتها تتضمن كثيرة من الجمل الضمنية فاستينافها جواب لسؤال مقدر وذلك السؤال ممزوج من ثمانية اسئلة متسلسلة * اذ لما بشروا بمسكن هكذا عال يتبادر لذهن السامع * أفيه رزق ام لا * واذا كان فيه رزق فمن اين يجيئ ويحصل * واذا حصل من تلك الجنة فمن أى شئ منها * واذا كان من ثمرتها فهل هى تشبه ثمار الدنيا * واذا شابهتها فهل يشبه بعضها بعضا * واذا تشابهت فهل تختلف طعومها * واذا اختلفت وقد قطعت فهل تنقص ام يمتلأ موضعها * واذا تبدلت باخرى فهل يدوم الاكل منها * واذا دام فما حال الآكلين أفلا يستبشرون * واذا استبشروا فماذا يقولون * واذ تفطنت لهذه الاسئلة فانظر كيف اجاب القرآن عن هذه الاسئلة المتسلسلة بهيأت هذه الجملة * اما لفظ (كلما) فاشارة الى الدوام والتحقيق وماضوية (رزقوا) اشارة الى تحقق الوقوع وكذا ايماء الى اخطار نظيره من رزق الدنيا الى ذهنهم * وايراده على بناء المفعول اشارة الى عدم المشقة وانهم مخدومون يؤتى اليهم * وايثار (منها من ثمرة) على (من ثمراتها) للتنصيص على جوابين عن سؤالين من الاسئلة المذكورة * وتنكير (ثمرة) المفيد للتعميم اشارة الى انه أية ثمرة كانت فهى رزق * وتنكير (رزقا) اشارة الى انه ليس من الرزق الذى تعلمونه لدفع الجوع * ولفظ (قالوا) اى يتقاولون بعضهم لبعض ايماء الى الاستبشار والاستغراب اللازمين للحكم * اما جملة (هذا الذى رزقنا من قبل) فاعلم ان هذا الاطلاق يتضمن اربعة معان ﴿احدها﴾ ان هذا مارزقنا من العمل الصالح فى الدنيا فبشدة الارتباط بين العمل والجزاء كأن العمل تجسم فى الآخرة ثوابا (ومن هنا الاستبشار) ﴿والثانى﴾ ان هذا مارزقنا من الاطعمة فى الدنيا مع هذا التفاوت العظيم بين طعميهما (ومن هنا الاستغراب) ﴿والثالث﴾ ان هذا مثل ماكنا قبل هذا الآن مع اتحاد الصورة واختلاف المعنى لجمع لذتى الالفة والتجدد (ومن هنا الابتهاج) ﴿والرابع﴾ ان هذه التى على اغصان الشجرة هى التى اكلناها اذ نبت بدلها دفعة فكأنها اياها (ومن هنا يعرف انها لاتنقص) * واما جملة (واتوا به متشابها) فاعلم انها فذلكة وتزييل واعتراضية لتصديق الحكم السابق وتعليله * وبناء المفعول فى (اتوا) اشارة الى ان لهم خدمة * وفى (متشابها) ما عرفت من الاشارة الى جمع اللذتين * واما جملة (ولهم فيها ازواج مطهرة) فاعلم ان الواو بسر المناسبة العطفية اشارة الى انهم

كما يحتاجون الى المسكن لاجسامهم يفتقرون الى السكن لارواحهم * و(لهم) اشارة الى الاختصاص والتملك * ورمز الى التخصيص والحصر * وايماء الى ان لهم غير النساء الدنيوية حوراً عيناً خلقن لاجلهم * و (فيها) اشارة الى ان تلك الازواج لائقة بتلك الجنة فعلى نسبة علو درجاتها يفوق حسنهن * وكذا فيها ايماء خفى الى ان الجنة تزينت وتبرجت بهن و(مطهرة) اشارة الى ان مطهرا طهرهن فما ظنك بمن طهرهن ونزههن يدالقدرة * وكذا ايماء بالتعدية الى ان نساء الدنيا يطهرن ويصفين فيصرن حسانا كالحور العين المتطهرات فى انفسهن * واما جملة (وهم فيها خالدون) فاشارة الى انهم . وكذا ازواجهم . وكذا لذائذ الجنة . وكذا الجنة كافة ابدية (ان الله لايستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فمافوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ومايضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ماامر الله به ان يوصل ويفسدون فى الارض اولئك هم الخاسرون) * اعلم ان فى هذه الآية ايضا الوجوه الثلاثة النظمية وان مآل المجموع ينظر الى سوابقه والى لواحقه والى مجموع القرآن * اما نظمها بالنظر الى لواحقها فاعلم ان القرآن لما مثل بالذباب والعنكبوت وبحث عن النمل والنحل انتهز الفرصة للاعتراض اليهود واهل النفاق والشرك فتحمقوا وقالوا أيتنزل الله تعالى مع عظمته الى البحث عن هذه الامور الخسيسة التى يستحيي من بحثها اهل الكمال فضرب القرآن بهذه الآية ضرباً على افواههم * واما نظمها بالقياس الى سوابقها فاعلم ان القرآن لما أثبت النبوة بالاعجاز والاعجاز بالتحدى والتحدى بسكوتهم وكذلك أثبت فى رأس السورة ان القرآن مشتمل على صفات عالية ومزايا كاملة لاتجتمع فى كلام سكتوا فى نقطة التحدى حتى لم ينبض لهم عرق عصبية لكن اعترضوا وغالطوا فى نقطة كماله وقالوا ان التمثيل فى امثال (كمثل الذى استوقد ناراً) و (كصيب من السماء) من الامور العادية سبب لنزالة درجة الكلام فيشبه المحاورة العادية بين الناس فالقرآن القمهم حجراً وافحمهم بهذه الآية * وايضاحه ان لهم شبهات واهية منشأها اوهام متسلسلة مبناها مغالطات * احديها * القياس مع الفارق ومنشأه انهم ينظرون الى كل شئ بمرآة مألوفهم * فحينما يرون الانسان ذهنه جزئى وفكره جزئى ولسانه جزئى وسمعه جزئى لايتعلق كل بامرين معا بالذات ويعرفون ان مقياس الهمة موضوع المشغلة والاهتمام ويرون ان القيمة والعظمة بنسبة الهمة حتى انهم لايسندون امراً حقيراً نزيلا الى شخص عال جليل ظناً منهم انه لايتنزل للاشتغال بمثله ولايسع ذلك الامر الحقير همته العظيمة ينظرون بهذا النظر المشبط الى الواجب تعالى ويقولون كيف يتنزل بعظمته وجلاله للتكلم مع البشر بمثل محاورة الانسان وللبحث عن هذه الامور الجزئية لاسيما هذه الاشياء المحقرة * أفلا يعقل هؤلاء السفهاء ان ارادة الله تعالى وعلمه وقدرته كلية عمومية شاملة محيطة وليس مقياس عظمته تعالى الامجموع آثاره ومامیزان تجليه الا كافة كماته التى لوكان البحر مداداً مانفدت * مثلا (ولله المثل الاعلى) اذا القت الشمس بعد فرض كونها مختارة عاقلة ضياها على ذرة ملونة أيقال لها كيف تنزلت بعظمتها للاشتغال

والاهتمام بمثل هذه الذرة * نعم ان الله تعالى كما خلق العالم واتقنه صنعا واهتم به كذلك خلق الجوهر الفرد واتقن صنعه ففي نظر القدرة الجواهر الفردة كالنجوم السيارة لان قدرته تعالى وعلمه وارادته وكلامه لازمة للذات وذاتية فليست متجددة ولا قابلة للزيادة والنقصان ولامتغيرة حتى يتداخل فيها المراتب اذالعجز ضدلها لايمكن تداخله بينها فلا فرق بين الذرة والشمس اذالممكن بتساوى طرفيه كالميزان ذى الكفتين لافرق فى صرف القوة التى ترفع كفة وتضع اخرى بين ان يكون فى الكفتين شمسان اوذرتان * وهكذا نسبة المقدورات بالنسبة الى القدرة الذاتية اللازمة * واما بالنسبة الى قوة الممكنات العارضة المتغيرة المتداخل بينها (العجز) فلاموازنة * والحاصل ان الذرات والامور الخسيسة لما كانت مخلوقة له تعالى كانت معلومة له بالضرورة فلامشاحة بالبداهة ان يبحث عنها * وعلى هذا السر قال (ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) فكيف لايبحث عنها ولايتكلم بها من علم وهو العزيز الحكيم ﴿وثانية المغالطات﴾ هى انهم يزعمون انهم يرون فى اسلوب القرآن خلف المتكلم تمثال انسان بدليل البحث عن هذه الاشياء الحقيرة والامور العادية كاسلوب محاورة البشر أفلا يتذكر هؤلاء المتجاهلون ان الكلام كماينظر الى متكلمه بجهة كذلك ينظر الى المخاطب به بجهات على ماتقتضيه البلاغة للتطبيق على مقتضى حال المخاطب فلما كان المخاطب بشرا وكان البحث عن احواله والمقصد تفهيمه لبس القرآن اسلوب البشر الممزوج بحسياته المسمى (بالتنزلات الالهية الى عقول البشر) للتأنيس * ألاتراك اذاحاورت مع صبى تتصبى له ﴿فان قلت﴾ ان حقارة الاشياء وخساستها تنافى عظمة القدرة ونزاهة الكلام ﴿قيل لك﴾ ان الحقارة والخساسة والقبح وامثالها انما هى بالنظر الى ملك الاشياء وجهتها الناظرة الينا وبالنظر الى نظرنا السطحى وقد وضعت الاسباب الظاهرية للتوسط فى هذه الجهة لتنزيه العظمة * واما بالنظر الى ملكوتية الاشياء فكلها شفافة عالية وهذه الجهة هى محل تعلق القدرة لايخرج من التعلق شئ فكما اقتضى العظمة وضع الاسباب فى الظاهر كذلك تستلزم الوحدة والعزة شمول القدرة لكل واحاطة الكلام به * على ان القرآن المكتوب على ذرة بالجواهر الفردة ليس باقل جزالة من القرآن المكتوب على صحيفة السماء بمداد النجوم وان خلقة الذباب ليست بادنى صنعا من خلقة الفيل فالكلام كالقدرة ﴿فان قلت﴾ الى أى شئ تعود الحقارة الظاهرية فى هذه التمثيلات ﴿قيل لك﴾ انما تعود الى الممثل له دون الممثل فكلما كانت مطابقته للممثل له احسن كانت درجة الكلام اعلى ونظام البلاغة ارفع * ألاترى ان السلطان اذا اعطى راعيه مايليقه من اللباس والقى الى الكلب مايشتهيه من العظم الخ لايقال انه فعل بدعة بل يقال انه احسن بوضع كل شئ فى موضعه فاذاً كلما كان الممثل له حقيراً كان مثاله حقيراً وان كان عظيما فعظيما * ولما كان الاصنام ادنى الامور سلط الله الذباب على رؤسها * ولما كانت عبادتها اهون الاشياء جعل الله تعالى نسج العنكبوت عنوانها ﴿وثالثة المغالطات﴾ انهم يقولون ماالحاجة الى امثال هذه التمثيلات المؤمية الى العجز عن اظهار الحقيقة * لكن لماكان المقصد من انزال

التنزيل ارشاد الجمهور والجمهور عوام والعوام لايرون الحقائق المحضة والمجردات الصرفة عريانا عن متخيلاتهم البس الله تعالى بلطفه واحسانه الحقائق لباس مألوفاتهم لتحسن الفهم كما عرفت فى سر المتشابهات ❊ اما نظم الجمل بعض مع بعض فاعلم ان (ان الله لايستحيي ان يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها) رد وطرد لاعتراضات متسلسلة ❊ كأنهم يقولون أية حكمة فى مكالمة الله تعالى مع البشر ❊ وعتابه عليهم ❊ والتشكى منهم فانها علامة ان للانسان ايضا تصرفا آخر فى العالم ❊ لاسيما كالمحاورة الجارية بين الناس فانها علامة انه كلام البشر ❊ ولاسيما يترأى من خلف الكلام تمثال انسان ❊ ولاسيما بتصويرات وتمثيلات فانها علامة العجز عن اظهار الحقيقة ❊ ولاسيما اذا كانت التمثيلات عادية فانها علامة انحصار ذهن المتكلم ❊ ولاسيما بامور حقيرة فانها علامة خفة المتكلم ❊ ولاسيما اذا كانت مما لااضطرار اليه وكانت تركه اولى ❊ ولاسيما اذا كان بعض تلك الامور ممايستحيي اهل العزة عن البحث عنه ❊ ولاسيما اذا كان الباحث ذا العظمة والجلال ❊ فاجاب القرآن هدما لهذه السلسلة من المبدأ الى المنتهى بضربة واحدة فقال (ان الله لايستحيي الخ) لان جهة الملكوتية لاتنافى العظمة والجلال فلايتركها ولايهملها (اذ الالوهية تقتضى كذلك) فاذاً يمثل بالامور المحقرة للمعان المحقرة (اذ حكمته مع سر البلاغة هكذا تقتضى) فاذاً يذكر التمثيلات العادية بناء على انها الموافقة للتربية والارشاد فاذاً يصور الحقائق بتمثيلات (بناء على ماتقتضيه العناية) مع التنزلات الالٓهية فاذاً يختار اسلوب محاورة البشر بعض مع بعض (بناء على ماتقتضيه الربوبية) مع التربية ❊ فاذاً يتكلم مع الناس (بناءً على ماتقتضيه الحكمة مع النظام) والحاصل ان الله تعالى لما اودع فى الانسان جزءً اختياريا وجعله مصدراً لعالم الافعال ارسل كلامه لينظم ذلك العالم ❊ وان نظم جملة (فاما الذى آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم) هو انه لما ذكر فى الاولى المدعى اشار بهذه الى طريق دليله وكذا رمز واومى الى وجه دفع الاوهام اى من نظر بنور الايمان ومن جانب الله تعالى ❊ ومن جهة قدرته جاعلا حكمته وعنايته وربوبيته نصب العين علم انه حق وبلاغة ❊ واما من نظر من جانب حضيض نفسه ❊ ومن جهة الممكنات فلاجرم يستهوى به الاوهام ❊ ومثالهما كمثل شخصين مصعدا منحدرا رأيا جداول ماء ❊ اما احدهما فيصعد ويرى رأس العين ويذوق فيعلم ان الماء كله عذب فكلما يصادف قطعة ماء من تفرعات الجداول يتفطن ولو بامارة ضعيفة انها عذب فلاتقدر الاوهام ولو قوية على تغليطه ❊ واما الآخر فيتسفل وينظر من جانب التفرعات ولايرى منبع العين فيحتاج لمعرفة عذوبة كل قطعة ماء الى دليل قطعى فادنا (وهم) يورطه فى الشبهة ❊ اوكمثال شخصين بينهما مرآة ينظر احدهما الى الوجه الشفاف والآخر الى الوجه الملون ❊ والحاصل انه لابد فى النظر الى صنعه تعالى ان ينظر اليه من جانبه تعالى مع ملاحظة عنايته وربوبيته وليس هذا النظر الا بنور الايمان ولاتكون الاوهام حينئذ ولو قوية الا اوهن من بيت العنكبوت ❊ ولو نظر اليه من جهة الممكنات بنظر المشترى وبفكره الجزئى لقويت فى عينه الاوهام الضعيفة فيتستر عنه الحقيقة كما يمنع

جناح بعوضة رؤية العين للجبل الجودى * وان نظم جملة (واما الذين كفروا الخ) هوانه لما ارى طريق فهم حكمة اسلوب التمثيلات وهى النظر بنور الايمان من جانب الواجب الوجود بين هنا الطريق المقابل الذى هو منشأ الاوهام والتعللات بان ينظر من طرف نفسه بظلمة الكفر التى تصور كل شئ مظلما مع مرض القلب الذى يثقل به اخف (وهم) ثم يضل طريق الحق ثم يتردد ثم يستفهم ثم ينكر فالقرآن بالايجاز والكناية اورد اشارةً الى استفهامهم الانكارى قوله ﴿ماذا اراد الله بهذا مثلا) بدل (لايعلمون) مع انه المطابق للسابق ظاهراً * وان نظم جملة (يضل به كثيرا ويهدى به كثيراً) هوانها جواب عن صورة استفهامهم فلغاية الايجاز نزل الغاية والعاقبة منزلة العلة الغائية كأنهم يسئلون ويقولون * لأى شئ كان هكذا * ولم لم يكن اعجازه بديهيا * ولم لم يكن كونه كلام الله ضروريا * ولم صار معرض الاوهام بسبب هذه الامثال فاجاب القرآن بقوله (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) لاجل ان من تفكر فيه بنور الايمان اذداد نوراً ومن تفكر بظلمة الكفر والتقيد اذداد ظلمة * وهذا لاجل انه نظرى ليس بديهيا * وهذا لاجل تفريق الارواح الصافية العلوية عن الارواح الكدرة السفلية * وهذا لاجل تميز الاستعدادات العالية بالنشو والنماء عن الاستعدادات الخبيثة * وهذا لاجل تميز الفطرة الصحيحة بالتكمل والمجاهدة والاجتهاد عن الفطرة المتفسخة الفاسدة * وهذا لاجل ان امتحان البشر يستلزمه * وهذا لاجل ان الابتلاء يقتضيه * وهذا لاجل ان سر التكليف لتكميل البشر وسعادته يستلزمه فاوجز التنزيل فى الجواب ﴿ان قلت﴾ قد قلت ان التكليف لتأمين سعادة البشر مع انه يكون سببا لوقوع الاكثر فى الشقاوة ولولاه لما صار التفاوت بهذه الدرجة ﴿قيل لك﴾ ان الله تعالى كما كلف الجزء الاختيارى بكسبه تشكيل عالم الافعال الاختيارية كذلك جعل التكليف سبب اسقاء وانبات البذور الغير المحصورة المودوعة فى روح البشر ولولاه لبقيت الحبوبات يابسة * واذا تأملت فى احوال النوع بنظر نافذ رأيت كل ترقيات الروح المعنوية * وكل تكملات الوجدان الالهية * وتكملات العقل * وترقيات الفكر المثمرة بدرجة تحير فيها العقول * انما وجدت كافة بالتكليف * وانما استيقظت ببعثة الانبياء * وانما تلقحت بالشرائع * وانما الهمت من الاديان ولولاها لبقى الانسان حيوانا ولانعدم هذه الكمالات الوجدانية وتلك المحاسن الاخلاقية * اما القسم القليل فقبلوا التكليف اختيارا ففازوا بالسعادة الشخصية وصاروا سببا للسعادة النوعية * واما القسم الكثير كمية فهم وان كفروا بقلوبهم وفيما هم فيه مختارون (لكن لما لم يكن كل حال كل كافر وكل صفته كافرة يابسة) كانوا بسبب ايقاظ البعثة للحسيات الوجدانية * وتنبيه النبوة للسجايا الاخلاقية * وبتسامع الشرائع * وتعارف آثارها * بحيث قد قبلوا انواعا من التكليف اضطراراً ﴿فان قلت﴾ سعادة القليل مع شقاوة الكثير كيف تكون مظهرا لسعادة النوع حتى تكون الشريعة رحمة مع ان سعادة النوع انما تكون بالكل اوالاكثر ﴿قيل لك﴾ اذا كان لك مائة بيضة ووضعتها تحت طير فافرخت عشرين وافسدت ثمانين أفلا تقول قد تكمل هذا النوع اذحيات عشرين تساوى الوف بيضة اوكان لك مائة نواة

ثمر فاسقيتها بالماء فصار عشرون منها نخلات باسقات وتفسخ ثمانون أفلاتقول (الماء) سعادة لهذا النوع اوكانلك معدن فسلطت عليها النار فاصفت خمسه ذهبا وصيرت الباقى فحما ورماداً أفلاتكون النار سبب كماله وسعادته وقس على هذا فاذاً نشو الحسيات العالية ونموالاخلاق انما هوبالمجاهدة وتكمل الاشياء انما هو بمقابلة الاضداد ومزاحمتها * ألا ترى ان حكومة اذا جاهدت ينموفيها الجسارة واذاتركت انطفت تأمل * وان نظم جملة ﴿ومايضل به الا الفاسقين﴾ هو انه لماابهم فى يضل به كثيرا انتبه ذهن السامع وخاف فاستفسر قائلا من هم الضالون وما السبب وكيف تجئ الظلمة من نورالقرآن فاجاب بأنهم الفاسقون وان الاضلال جزاء لفسقهم وبالفسق ينقلب النور فى حق الفاسق نارا والضياء ظلمة * ألاترى ان ضياء الشمس يعفن مااستقذرت مادته * وان وجه التوصيف بقوله ﴿الذين ينقضون عهدالله من بعدميثاقه ويقطعون ماامرالله به ان يوصل ويفسدون فى الارض﴾ هوانه شرح وكشف للفسق اذالفسق عدول عن الحق وتجاوز عن الحد * وخروج من القشر الحصين وان الفسق انماهو بالافراط اوالتفريط فى القوى الثلاث التى هى القوة العقلية والغضبية والشهوية * وان الافراط والتفريط سببان للعصيان فى مقابلة الدلائل التى كالعهود الالهية فى الفطرة * وكذا وسيلتان لمرض الحياة النفسية واشير الى هذا بالصفة الاولى * وكذلك محركان للعصيان فى مقابلة الحياة الاجتماعية وتمذيق الروابط والقوانين الاجتماعية واشير الى هذا بالصفة الثانية * وايضا هما سببان للفساد والاختلال المنجر الى فساد نظام الارض واشير الى هذا بالصفة الثالثة * نعم ان الفاسق بتجاوز القوة العقلية عن حد الاعتدال يكسر رابطة العقائد ويمزق القشر الحصين اى الحياة الابدية * وتجاوز القوة الغضبية يمزق قشر الحياة الاجتماعية وتجاوز القوة البهيمية واتباع الهوى يزيل عن قلبه الشفقة الجنسية فيفسد ويورط الناس فيما تورط فيه فيكون سببا لضرر النوع وفساد نظام الارض * وان نظم جملة ﴿اولئك هم الخاسرن﴾ هوانه لما ذكر جنايات الفاسق ورهبها اكد التهديد بنتيجتها وجزائها ليؤثر الترهيب فقال هم الذين خسروا بيع الآخرة بالدنيا واستبدال الهدى بالهوى * ولنشرع فى نظم هيأت جملة جملة فاعلم ان الآيات وجملها وهيأتها كاميال الساعة التى تعد الثوانى والدقائق والساعات فكلما يثبت هذا شيأ يؤيده ذاك بدرجته ويمده ذلك بنسبته وكذا اذا اراد هذا شيأ عاونه ذاك وساعده الآخر بحيث يخطر الحال ماقيل

عباراتنا شتى وحسنك واحد * وكل الى ذاك الجمال يشير

ولهذا السر قد بلغ سلاسة القرآن وعلو طبقته ودقة نقشه الى مرتبة الاعجاز * اماهيأت جملة ﴿ان الله لايستحيي ان يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها﴾ فاعلم ان (ان) للتحقيق ورد للتردد والانكار فهى اشارة الى الترددات المتسلسلة المذكورة وان لفظة (الله) لتنبيه الذهن على الخطأ فى القياس المذكور وان ايثار (لايستحيي) على لايترك معان الحياء وهو انقباض النفس محال فى حقه تعالى ونفى المحال لافائدة فيه اشارة الى ان الاسباب من الحكمة والبلاغة وغيرهما

تقتضى حسن التمثيل فلاعلة للترك الاالحياء والحياء عليه تعالى محال فلاسبب للترك اصلافالزمهم اشد الزام والطفه وكذا رمز بمشاكلة الصحبة الى كلمهم الحمقاء من قولهم (امايستحيي رب محمد من التمثيل بهذه المحقرات) وان ايثار (ان يضرب) على من المثل الحقير مع انه الانسب اشارة الى اسلوب لطيف وهو ان التمثيل كضرب الخاتم للتصديق والاثبات * او كضرب السكة للقيمة والاعتبار * وفى الاشارة رمز الى حسن التمثيل طردا للاوهام وكذا اشارة الى ان التمثيل منهاج مشهور مستحسن لان ضروب الامثال من القواعد المعروفة * وان ايثار (ان يضرب) على ضرب مع انه الاوجز للايماء الى ان منشأ الاعتراض ليس الاالخساسة لان (ان يضرب) لعدم استقلاله كأنه لطيف يمر القصد الى المفعول * واما ضرب فلاستقلاله كأنه كثيف يستوقف القصد وان (مثلا) ايماء الى خاصية التمثيل من تصوير المعقول بالمحسوس والموهوم بالمحقق والغائب بالشاهد * ومنه ايماء الى رد الوهم وتنكير (مثلا) رمز الى ان مدار النظر هو ذات التمثيل واما الصفات فمحمولة على طبيعة المقام وحال الممثل له وان التعميم فى (ما) اشارة الى تعميم القاعدة لئلا يختص الجواب بما اعترضوا به فالممثل له أية صورة اقتضى استحسنتها البلاغة * وان تخصيص (بعوضة) اشارة الى كثرة استعمال البلغاء للتمثيل بها كقولهم (اضعف من البعوضة)(واشد عنادا من البعوضة)(وكلفتنى مخ البعوضة)(واعز من مخ البعوضة) (وقالت البعوضة للنخلة لتستمسكي انا اطير)(والدنيا لاتوازن عند الله جناح بعوضة) وقس وفى الاشارة رمز الى ضعف وهمهم وان المعنى (بما فوقها) مادونها فى الصغر ومافوقها فى قيمة البلاغة اوفى الصغر ايضا فالتعبير بما فوقها اشارة الى ان الصغير اغرب بلاغة واعجب خلقة * واعلم ان هذه الهيأت كخيوط الحرير باجتماعها يظهر النقش الحسن * واما هيأت جملة (فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا) فاعلم ان الفاء للتفريع والتفريع اشارة الى دليل ضمنى ينتج هذه الجملة ذات الشقين اى لايترك التمثيل لان البلاغة تقتضيه * فمن انصف يعرف انه بليغ وحق وكلام الله تعالى ومن نظر بالعناد لايعلم الحكمة فيتردد فيسئل فينكر فيستحقر * فانتج ان المؤمن لانه منصف يصدق انه كلام الله والكافر لانه معاند يقول ماالفائدة فيه * وان (اما) فلانها شرطية لزومية فى الوضع اشارة الى ان الخبر لازم للمبتدأ وضرورى له يعنى من شأن المبتدأ هذا الخبر وان ايراد (الذين آمنوا) بدل المؤمنين اشارة الى التنصيص على ان الايمان هو سبب العلم بحقيته وان العلم بحقيته ايمان وان (انه الحق) بدل انه البليغ الانسب بالمقام اشارة الى آخر نتيجة اعتراضهم اذ غرضهم نفى كونه كلام الله * وان حصر (انه الحق) اشارة الى ان هذا هو المستحسن الذى لايستقبح بخلاف مايزعمون اذ السلامة من العيب لاتثبت الكمال وان (من ربهم) اشارة الى ان هدف غرضهم انكار النزول * وان (اما) فى (واما الذين كفروا) للتأكيد والتحقيق والتفصيل وان ايراد (الذين كفروا) بدل الكافرين الاوجز ايماء كامر الى ان انكارهم يجيء من الكفر ويذهب الى الكفر وان ايثار فيقولون على فلايعلمون مع انه الظاهر كامر فلاختيار طريق الكناية للايجاز اى من كفر

لايعرف الحقيقة فينجر الى التردد * فينجر الى الانكار فينجر الى الاستحقار بصورة الاستفهام * وايضا فى (يقولون) رمز الى انهم كما كانوا ضالين كذلك كانوا مضلين باقوالهم * واما هيأت جملة (يضل به كثيراً ويهدى به كثيرا) فاعلم ان الترتيب يقتضى تقديم الثانية لكن لماكان الغرض رد اعتراض المتردد المستفهم المستكر المستقبح كان يضل اهم اما العدول عن الضلالة والهداية المناسبتين للسؤال الى صورة الفعل المضارع فاشارة الى ان كفرهم يتكاثف ظلمة على ظلمة بنسبة تزايد النزول تجددا كما ان المؤمن يتزايد ايمانه بدرجات النزول نورا على نور * وكذا فى الفعل بناء على كونه جوابا رمز الى بيان حال الفريقين وبيان السبب واما (كثيراً) ففى الاولى كمية وعدداً وفى الثانية قيمة وكيفية نعم ان كرام الناس كثير وان قلوا * فالتعبير بالكثير فى الثانية رمز الى سر كون القرآن رحمة للبشر تأمل * واماجملة (وما يضل به الا الفاسقين) فاعلم انه لماذكر الكثير فى الاولى دفع الوسوسة والخوف والتردد وتهمة النقص فى القرآن ببيان * ان الضالين من هم * وان منشأ الضلالة فسقهم * وان سببها كسبهم * وان القصور منهم لامن القرآن * وان خلق الضلالة جزاء لفعلهم * ثم اعلم ان كل واحدة من هذه الجمل كما انها كشافة لسابقتها كذلك مفسرة بلاحقتها كأنها دليل للسابقة نتيجة للاحقة وايضاحه ان فيها سلسلتين ﴿احديها﴾ هكذا (انه لايستحيي) (لانه لايترك) (لانه بليغ) (لانه حق) (لانه كلام الله) (لان المؤمن يعلمه) ﴿ والثانية ﴾ هكذا (انه لايستحيي كما يقول المنكر) (لانهم يقولون يلزم تركه) (لانهم لايعلمون حكمته) (لانهم يقولون ماالفائدة فيه) (لانهم ينكرونه) (لانهم يستحقرونه) (لانهم يقعون فى الضلالة بسماعه) (لانهم يضلهم القرآن) (لانهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن قشرهم) (لانهم نقضوا عهدالله) (لانهم مزقوا مااتصل بامر التكوين والتشريع) (لانهم يفسدون النظام الآلهى فى الارض) فاذاً هم الخاسرون فى الدنيا باضطراب الوجدان وبقلق القلب وبتوحش الروح وفى الآخرة بالعذاب الابدى وبغضب الله فتأمل فى سلاسة السلسلتين * واماهيأت جملة ﴿الذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ماامرالله به ان يوصل ويفسدون فى الارض﴾ فاعلم ان توصيف الفاسقين المشككين فى اعجازه ونظمه بهذه الاوصاف فى هذا المقام انما هو لمناسبة لطيفة عالية كأن القرآن يقول ليس ببعيد من الفساق الذين لم يروا اعجاز القدرة فى نظام الكائنات التى هى القرآن الاكبر ان يترددوا ويجهلوا اعجاز نظم القرآن * اذ كما يرون نظام الكائنات تصادفيا والتحولات المثمرة عبثا اتفاقية فتستر عنهم لفساد روحهم حكمه كذلك بفطرتهم السقيمة وتهوسهم الفاسد رأوا النظم المعجز مشوشا ومقدماته عقيمة وثمراته مرة * اماجملة (ينقضون عهدالله) فلان النقض لغة تفريق خيوط الحبل وتمزيقها اشارة الى اسلوب عال كأن عهده تعالى حبل نورانى فتل بالحكمة والعناية والمشيئة فامتد من الازل الى ان اتصل بالابد فتجلى فى الكائنات بصورة النظام العمومى وارسلت تلك السلسلة سلاسلها الى الانواع وامتداعيها الى نوع البشر فاورثت واثمرت فى روح البشر بذور استعدادات وقابليات تسقى وتتزاهر بالجزء

الاختيارى المعدل بالامر التشريعى اى الدلائل النقلية فوفاء العهد صرف الاستعدادات فيما وضعت له ونقض العهد خلافه وتفرقه كالايمان ببعض الانبياء وتكذيب بعض وقبول بعض الاحكام ورد بعض واستحسان بعض الآيات واستنكار بعض فانه يخل بالنظام والنظم والانتظام ✻ واما جملة ﴿ ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ﴾ فاعلم ان هذا الامر عام للامر التشريعى والامر التكوينى المندمج فى القوانين الفطرية والعادات الالهية فالقطع لما امر بوصله (شرعا) كقطع صلة الرحم وقطع قلوب المؤمنين بعض عن بعض وعلى هذا القياس (وتكوينا) كقطع العمل عن العلم وقطع العلم عن الذكاء وقطع الذكاء عن الاستعداد وقطع معرفة الله عن العقل وقطع السعى عن القوة وقطع الجهاد عن الجسارة وهكذا اذ اعطاء القوة امر معنوى تكوينى بالسعى واعطاء الذكاء امر معنوى بالعلم الى آخره ✻ واما جملة ﴿ ويفسدون فى الارض ﴾ فاعلم ان من فسد وتورط فى الوحل يطلب ان يكون له رفقاء متورطين ليتخفف عنه دهشة الحال بسر اذا عمت البلية طابت وكذا اذا وقع فى قلب احد اختلال يخرب فى قلبه الكمالات وتتساقط الحسيات العالية فيتولد فيه ميل التخريب فينتج له لذة فى التخريب فيتحرى لذته فى الافساد والاختلال ﴿فان قلت﴾ كيف يؤثر فساد فاسق فى عموم الارض المشار اليه بلفظ فى الارض ﴿قيل لك﴾ الذى فيه نظام ففيه موازنة حتى ان النظام مبنى على الموازنة فتداخل شئ حقير بين دواليب ماكنة تتأثر به وان لم يحس والميزان الذى فى كفتيه جبلان يتأثر بوضع جوزة على كفة ✻ واما جملة (اولئك هم الخاسرون) فاعلم ان حق العبارة هم خاسرون فى الهداية به فلفظ اولئك ولفظ هم والتعريف والاطلاق لنكت (اما اولئك) فلان وضعه لاحضار محسوس فالاحضار المستفاد منه اشارة الى ان السامع اذا سمع حالهم الخبيثة من شأنه ان يحصل له حدة عليهم ونفرة منهم فلتطمين نفرته وتشفى حدته يطلب ان يستحضروا الى خياله ليشاهدهم وقت اتصافهم بالعاقبة الوخيمة ✻ والمحسوسية اشارة الى ان اوصافهم الرزيلة تكثرت بدرجة تجسمهم محسوسين نصب نظر النفرة فمن الاشارة ايماء الى علة الحكم بالخسارة ✻ والبعدية اشارة الى انهم قد بعدوا عن طريق الحق بدرجة لا يرجعون فيستحقون الذم والتشنيع بخلاف من كان فى معرض الندامة ومسافة الرجوع ✻ و(هم) اشارة الى ان الخسارة منحصرة عليهم حتى ان خسارات المؤمنين لبعض اللذائذ الدنيوية ليست خسارة وكذا خسارات اهل الدنيا فى تجاراتهم ليست خسارة بالنسبة الى خساراتهم ✻ والالف واللام اشارة الى تصوير الحقيقة اى من اراد ان يرى حقيقة الخاسرين فلينظر اليهم ✻ وكذا ايماء الى ان مسلكهم محض خسارة لا كالخسارة الاخر التى فيها وجوه من النفع لكن الضر اكثر فالتعريف اما للكمال اوللبداهة اولتصوير الحقيقة ✻ واطلاق الخسارة اشارة باعانة المقام الخطابى الى عموم انواع الخسارات اى خسروا فى وفاء العهد بالنقض وفى صلة الرحم بالقطيعة وفى الاصلاح بالافساد وفى الايمان بالكفر وبالشقاوة خسروا السعادة الابدية ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ اعلم ان لهذه الآية ايضا الوجوه الثلاثة النظمية ✻ اما نظم مآلها بسابقها

فاعلم ان الله تعالى لما دعى الناس الى عبادته و الاعتقاد به وذكر اصول العقائد والاحكام مشيرا الى دلائلها اجمالا عاد فى هذه الآية مع لواحقها الثلاث الى سرد الدلائل عليها بتعداد النعم المتضمنة للدلائل * ثم ان اعظم النعم (الحياة) المشار اليها بهذه الآية ثم (البقا) اى كمال الحياة بتنظيم السموات والارض المشار اليه بالآية الثانية ثم تفضيل البشر وتكريمه على الكائنات بالآية الثالثة * ثم تعليمه العلم بالرابعة * فهذه النعم نظراً الى صورة النعمة دليل العناية والغاية وكذا دليل العبادة اذشكر المنعم واجب وكفران النعم حرام فى العقول ونظراً الى الحقيقة دليل اختراعى على وجود المبدأ والمعاد وكذا ان هذه الآية كما تنظر الى سابقتها كذلك تنظر الى الاسبق من بحث الكافرين والمنافقين فاشار بهذا الاستفهام الانكارى التعجبي الى تقريعهم وتشنيعهم وتهديدهم وترهيبهم * واما نظم الجمل فاعلم ان هنا التفاتا من الغيبة الى الخطاب اذحكى عنهم اولا ثم خاطبهم لنكتة معلومة فى البلاغة وهى انه اذا ذكر مساوى شخص شيأ فشيأ تزيد الحدة عليه الى ان يلجئ المتكلم لوكان انساناً الى المشافهة والمخاطبة معه * وكذا اذا ذكرت محاسن احد درجة درجة يتقوى ميل المكالمة معه الى ان يلجئ المتكلم الى التوجه اليه والخطاب معه فلنزول القرآن على اسلوب العرب التفت فقال (كيف تكفرون) مخاطباً لهم * ثم اعلم انه لما كان المقصد هنا سرد البراهين على الاصول السابقة من الايمان والعبادة ورد الكفر ومنع كفران النعمة ثم ان اوضح الدلائل هو الدليل المستفاد من سلسلة احوال البشر وان اكمل النعم هى النعم المتدلية فى انابيب تلك السلسلة والمندمجة فى عقدها قال (وكنتم امواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) اشارة الى تلك السلسلة العجيبة المترتبة ذات العقد الخمس التى تدلت من انابيبها عناقيد النعم * فلنمهد خمس مسائل لحل تلك العقد ﴿المسئلة الاولى﴾ فى (وكنتم امواتا) اعلم ان الانسان باعتبار جسده بينما كان ذرات جامدة منتشرة فى العالم اذتراها دخلت بقانون مخصوص ونظام معين تحت انتظام * ثم بينما تراها متسترة ساكنة فى عالم العناصر اذ تراها انتقلت متسللة بدستور معين وانتظام يومى الى قصد وحكمة الى عالم المواليد * ثم بينما تراها متفرقة ساكنة فى ذلك العالم اذتراها تحزبت بطرز عجيب وصارت نطفة ثم بانقلابات متسلسلة علقة فمضغة فلحما وعظاما ولحم جرا فكل من هذه الاطوار وان كان مكملاً بالنسبة الى سابقه الا انه ميت وموات ﴿فان قلت﴾ الموت عدم الحياة وزوالها ولاحيات فيها حتى تزول ﴿قيل لك﴾ اختار المجاز لاعداد الذهن لقبول العقدة الثالثة والرابعة ﴿المسئلة الثانية﴾ فى (فاحياكم) اعلم ان اعجب معجزات القدرة وادقها الحياة وكذا هى اعظم كل النعم واظهر كل البراهين على المبدأ والمعاد اما وجه ادقيتها وغموضها فهو ان ادنى انواع الحيات حيات النبات وان اول درجاتها تنبه العقدة الحياتية فى الحبة وهذا التنبه مع شدة ظهوره وعمومه والالفة به من زمان آدم الى الآن قد بقى مستوراً عن نظر حكمة البشر * واما وجه كونها اعظم النعم فهو ان الجسم الذى لاحيات فيه ليس له مناسبة الا مع مكانه المشخص ومابه يختلط فيكون يتيما منفردا ولوكان جبلا لكن

اذا رأيت جسما ولو صغيراً كالنحل مثلا وقع فيه الحياة حصل له دفعة مناسبات مع عموم الكائنات وتجارة مع الانواع حتى يحق له ان يقول مكانى الكائنات وهى كملكى * اذ اذا انتقل الى الحياة الحيوانية تراه يجول بحواسه ويتصرف بها فى اطراف الكائنات فيحصل بينه وبين انواعها اختصاص ومبادلة ومحبة * ولاسيما اذا ترفع الى الطبقة الانسانية تراه بنور العقل يجول فى عوالم فكما يتصرف فى العالم الجسمانى يجول فى العالم الروحانى ويطوف فى العالم المثالى وكما يسافر هو الى تلك العوالم كذلك تسافر هى اليه بالتمثل فى مرآة روحه حتى يستحق ان يقول ان العالم مخلوق لاجلى بفضل الله تعالى * فتتنوع حياته وتنبسط الى الحياة المادية والمعنوية والجسمانية والروحانية التى يشتمل كل منها على طبقات فحق ان يقال كما ان الضياء سبب لظهور الالوان والاجسام كذا ان الحيات كشافة لكافة الموجودات وسبب لظهورها وان الحياة هى التى تصير ذرة كعالم وان الحياة هى الوسيلة لاحسان مجموع العالم لذى حيات برأسه مع عدم المزاحمة والانقسام الا فى اقل قليل بين البشر * واما وجه كونها اظهر الدلائل على الصانع وكذا على الحشر فاعلم ان انتقال بعض ذرات جامدة وانقلابها دفعة الى هيئة ووضعية تخالف الوضعية الاولى بلا توسط سبب معقول برهان أى برهان * حتى ان الحيات لكونها اشرف الحقائق وانزهها لاخسة فيها بوجه ولا درن عليها لا فى جهة الملك ولا فى جهة الملكوت فكلا وجهيها لطيفان حتى ان حيات اخس حيوان جزئى ايضا عالية ولهذا السر لم يتوسط بينها وبين يد القدرة سبب ظاهرى اذ مباشرتها لاتنافى عزة القدرة مع ان وضع الاسباب الظاهرية كان لمحافظة عزة القدرة فى مباشرة الامور الخسيسة فى ظاهر النظر * واما وجه كونها اظهر الدلائل على المبدأ والمعاد فقد سمعت آنفا فلنلخص لك وهو ان من نظر فى هذه الحيات وتدرج بنظره الى الاطوار المترتبة الى ابسط صور الجسم يرى اجزاء منتثرة فى عالم الذرات * ثم يبصرها قد تلبس فى عالم العناصر صوراً اخرى ثم يصادفها فى عالم المواليد فى وضعية اخرى * ثم يلاقيها فى نطفة ثم فى علقة ثم فى مضغة ثم يراها دفعة بانقلاب عجيب قد لبست صورة ويرى فى هذه الانقلابات حركات منتظمة على دساتير معينة يتراأى منها ان كل ذرة كانت معينة فى اول الاطوار كأنها موظفة للذهاب الى الموضع المناسب من جسد الحى فيتفطن الذهن انها بقصد تساق وبحكمة ترسل وكانت الحيات الثانية فى نظره اهون واسهل وامكن بدرجات فيقنع بها قلبه بالطريق الاولى * فهذه الجملة كالدليل للاحقتها والكل معا برهان على الانكار المستفاد من كيف ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ فى (ثم يميتكم) اعلم ان آية خلق الموت والحيات تدل على ان الموت ليس اعداما وعدما صرفا بل تصرف وتبديل موضع واطلاق للروح من المحبس * وكذا ان ما وجد فى نوع البشر الى الآن من امارات غير معدودة * ونجم من اشارات غير محدودة القت الى الاذهان قناعة وحدسا بان الانسان بعد الموت يبقى بجهة وان الباقى منه هو الروح فوجود هذه الخاصة الذاتية فى فرد يكون دليلا على وجودها فى تمام النوع للذاتية ومن هنا تكون الموجبة الشخصية

مستلزمة للموجبة الكلية فحينئذ تكون الموت معجزة القدرة كالحيات لانه (عدم) علته عدم شرائط الحياة ﴿فان قلت﴾ كيف يكون الموت نعمة حتى نظم فى سلك النعم ﴿قيل لك﴾ اما اولا فلانه مقدمة للسعادة الابدية ولمقدمة الشئ حكم الشئ حسنا وقبحا اذ ما يتوقف عليه الواجب واجب وما ينجر الى الحرام حرام * وثانيا فلان الموت عند اهل التحقيق من المتصوفين نجاة للشخص بخروجه عن نظير المحبس المشحون بالحيوانات المضرة الى صحراء واسعة * وثالثا فلانه باعتبار نوع البشر نعمة عظمى اذ لولاها لوقع النوع فى سفالات مدهشة * ورابعا فلانه باعتبار بعض اشخاص نعمة مطلوبة اذ بسبب العجز والضعف لا تحمل تكاليف الحياة وضغط البليات وعدم شفقة العناصر فالموت باب فوزه ﴿المسئلة الرابعة﴾ فى (ثم يحييكم) اعلم ان باشارة آية (امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين) وكذا برمز تعقيب هذه بثم اليه ترجعون مع النظر الى ايجاز القرآن ايماء الى حياة القبر كما تدل على حياة الحشر ﴿فان قلت﴾ اذا احرق انسان واعطى رماده للهواء كيف يتصور فيه الحياة القبرية ﴿قيل لك﴾ ان البنية ليست شرطا للحياة عند اهل السنة والجماعة فيمكن تعلق الروح ببعض الذرات ﴿فان قلت﴾ كيف يتصور عذاب القبر مع انه لو وضعت بيضة على صدر جنازة بايام لا يحس فيها ادنى حركة فكيف الحياة والعذاب ﴿قيل لك﴾ ان العالم المثالى قد برهن عليه فى موقعه حتى ان وجوده قطعى عند المحققين الالهيين وخاصة ذلك العالم تحويل المعانى اجساما والاعراض جواهر والمتغيرات ثابتة والعيون الناظرة من عالم الشهادة اليه * الرؤيا الصادقة والكشف الصادق والاجسام الشفافة فانها تلوح بوجوده ثم ان عالم البرزخ اثبت حقيقة من عالم المثال الذى هو تمثاله وظل هذا العالم عالم الرؤيا وظل هذا عالم الخيال ونظير هذا الاجسام الشفافة كالمرآة * فاذ تفهمت هذا فانظر فى عالم الرؤيا وتأمل فى شخص نام عندك وهو ساكن وساكت مع انه فى عالمه يقاتل ويضارب فيصير مجروحا او تلدغه الحية فيتألم ولو امكن لك ان تدخل فى رؤياه وتقول له ياهذا لا تعجز ولا تغضب فان هذا ليس حقيقة وحلفت له الف يمين لما يصدقك ويقول لك هذا ألمى يوجعنى وهذا جرحى اما ترى هذا وبيده السيف واما ترى الحية تهجم على اذ تجسم معنى وجع الكتف اونزلة الرأس فى صورة سيف جارح اذ النتيجة واحدة او تصور معنى الخيانة الموجعة لقلبه فى لباس الحية اذ الالم واحد * فياهذا اذا ترى ذاك فى ظل عالم المثال أفلا تصدقه فى عالم البرزخ الذى هو اثبت حقيقة بدرجات وابعد منا * اما يحييكم بالنظر الى الحياة الاخروية فاعلم ان تلك الحياة نتيجة لكل العالم ولولاها لم تكن الحقيقة ثابتة ولانقلبت الحقائق كالنعمة نقمة وقس ولقد لخصنا دلائلها فى تفسير (وبالآخرة هم يوقنون) ﴿المسئلة الخامسة﴾ فى (ثم اليه ترجعون) آخر العقد من تلك السلسلة اعلم ان الخالق جلت قدرته مزج الاضداد فى عالم الكون والفساد لحكم دقيقة ووضع اسبابا ظاهرية ووسائط اظهارا لعزته فترتبت سلسلة العلل والمعلولات * ثم لما تصفت الكائنات وتميزت وتحزبت فى الحشر ارتفعت الاسباب واسقطت الوسائط فارتفع الحجاب وكشف الغطاء فيرى كل صانعه ويعرف مالكه الحقيقى

﴿ تزييل ﴾ لخلاصة نظم الجمل اعلم انه تعالى لما انكر كفرهم الواقع بطريق الاستفهام الاستخبارى فى (كيف) ودعى الناس الى التعجب منه برهن عليه بمابعد الواو الحالية اى بارائة اربعة انقلابات عظيمة كلها وكل منها شاهد على وجوب الايمان * ثم ان كل انقلاب منها مشتمل على اطوار ومراتب ومقدمة ومعدة للانقلاب الذى يليه فمن الطور الاول من الانقلاب الاول الى الطور الآخر من الانقلاب الآخر تجدد اصل جسد الحى دائما فيلقى قشرا ويلبس الاكمل ثم يخلعه ويلبس صورة اعلى ثم يلقيها ايضا فيلبس صورة احسن وهلم جرا فهو دائما فى استبدال صورة باخرى كاملة الى ان يصل الى اعلى الاعالى فيستقر بتقرر السعادة الابدية وكلها بنظام معين وقانون منتظم * فاشار الى اول الانقلابات بقوله (وكنتم امواتا) وهذا مشتمل على اطوار آخر الاطوار ينتج مال (فاحياكم) الدال على الانقلاب الثانى الذى هو اعجب حقائق العالم المشتمل على اطوار آخرها تنتهى بانقلاب * ثم (يميتكم) المشتمل ايضا على اطواره البرزخى التى تتم بانقلاب * ثم (يحييكم) المشتمل على اطواره القبرية ثم الحشرية المختومة بقوله (ثم اليه ترجعون) فمن امعن فى هذه الانقلابات كيف يتجاسر على الانكار * ولنشرع فى نظم هيأت جملة جملة اما الجملة الاولى اعنى ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا﴾ فالاستفهام فيها لتوجيه ذهنهم الى قباحتهم ليروا بانفسهم فينصفوا فيقروا * و(كيف) اشارة الى الاستدلال على عدم الكفر بانكار الحال اللازم والخطاب فى تكفرون ايماء كامل الى شدة الغضب ولم يقل لاتؤمنون اشارة الى شدة تمردهم اذ يتركون الايمان الذى عليه الدلائل ويقبلون الكفر الذى على بطلانه البراهين * وواو الحالية فى (وكنتم) تشير الى مقدر اذ الجملتان ماضيتان والاخريان مستقبلتان كلاهما لايوافق قاعدة مقارنة الحال لعامل ذى الحال * فاذاً التقدير والحال انكم تعلمون ﴿فان قلت﴾ انهم وان علموا الموت والحياة الاولى لكنهم لايعلمون انهما من الله وكذلك لايقرون بالحياة الثانية ولايصدقون بالرجوع اليه تعالى ﴿ قيل لك ﴾ من البلاغة تنزيل الجاهل منزلة العالم عند ظهور دلائل ازالة الجهل فلما كان التفكر فى اطوار الموت الاول والحياة الاولى ملجأ الى الاقرار بالصانع وكان العلم بها مقنعا للذهن بوقوع الحيات الثانية كانوا كأنهم عالمون بهذه السلسلة * والخطاب فى كنتم اشارة الى ان لهم فى عالم الذرات ايضا وجود وتعين لا ان الذرات كيف مااتفقت صارت اجسادهم المعينة بالتصادف * وايثار امواتا على جماد اوذرات ايماء الى مآل (لم يكن شيأ مذكورا) * واما جملة (فاحياكم) ﴿فان قلت﴾ الفاء للتعقيب والاتصال مع تخلل تلك الاطوار وتوسط مسافة طويلة الى الحياة ﴿قيل لك﴾ الفاء للاشارة الى منشأ دليل الصانع وهو ان انقلابها من الجمادية الى الحيوانية دفعة من غير توسط سبب معقول يلجأ الذهن الى الاقرار بالصانع * وكذا ان الاطوار فى حالة الموات ناقصة غير ثابتة شأنها التعقيب * وايثار (احياكم) على (صرتم احياء) للتصريح اى صرتم احياء ولايمكن ذلك بغير قدرة الصانع فانتج ان الله تعالى هو الذى احيا * واما جملة (ثم يميتكم) بدل تموتون فاشارة كامل الى ان الموت تصرف عظيم للقدرة بمقياس القدر * الاترى

ان من استوفى عمره الطبيعى ثم انتهى الى الاجل اقل قليل فيتيقظ الذهن الى ان الموت ليس نتيجة طبيعية فالموت انحلال الجسد لافناء الروح بل اطلاقه * واما جملة (ثم يحييكم) فثم اشارة الى توسط عالم البرزخ ذى العجائب * واما جملة (ثم اليه ترجعون) فثم اشارة الى توسط الغطاء العظيم * و(ترجعون) اشارة الى كشف الغطاء وطرد الاسباب واسقاط الوسائط ﴿فان قلت﴾ الرجوع الى الله تعالى يقتضى ان يكون المجئ منه اولا ومن هنا توهم بعض الاتصال واشتبه بعض اهل التصوف ﴿قيل لك﴾ ان فى الدنيا وجودا وبقاء وكذا فى الآخرة وجود وبقاء * فالوجود فى الدنيا يصدر من يد القدرة بلاواسطة واما البقاء المحفوف بالتحليل والتركيب والتصرف والتحول فى عالم الكون والفساد فيتداخل بينه العلل وتتوسط الاسباب للحكمة المذكورة سابقا * واما فى الآخرة فالوجود وكذا البقاء بلوازمه وتركيباته يظهر بالذات من يد القدرة ويعرف كل شئ مالكه الحقيقى فاذا تأملت فى هذا علمت معنى الرجوع ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم﴾ * امانظم المجموع بالسابق فهو ان فى الآية الاولى انكار الكفر والكفران بالدلائل الانفسية وهى اطوار البشر وفى هذه الآية اشارة الى الدلائل الآفاقية * وكذا فى الاولى اشارة الى نعمة الوجود والحياة وفى هذه الآية الى نعمة البقاء * وكذا فى تلك دليل على الصانع ومقدمة للحشر وفى هذه اشارة الى تحقيق المعاد وازالة الشبه كأنهم يقولون اين للانسان هذه القيمة * وكيف له تلك الاهمية * وما موقعه عند الله حتى يقيم القيامة لاجله فقال القرآن باشارات هذه الآية ان للانسان قيمة عالية بدليل ان السموات والارض مسخرة لاستفادته وكذا ان له اهمية عظيمة بدليل ان الله لم يخلق الانسان للخلق بل خلق الخلق له وان له عند خالقه لموقعا بدليل ان الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل اوجده للبشر واوجد البشر لعبادته فانتج ان الانسان مستثنى وممتاز لا كالحيوانات فيليق ان يكون مظهرا لجوهرة (واليه ترجعون) واما نظم جملة جملة فاعلم ان لفظ (جميعا) فى الجملة الاولى ولفظ (ثم) فى الثانية ولفظ (سبع) فى الثالثة تقتضى تحقيقا فلنتكلم عليها فى ثلاث مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ﴿ان قلت﴾ ان هذه الآية تدل على ان جميع ما فى الارض لاستفادة البشر فكيف يتصور استفادة زيد مثلا من كل جزء من اجزاء الارض و (حبيب وعلى) كيف يستفيدان من حجر فى قعر جبل فى وسط جزيرة فى البحر المحيط الكبير وكيف يكون مال زيد لاستفادة عمرو مع ان الآية باشارات اخواتها تشير ان لكل فرد الجميع لا التوزيع وكذا كيف تكون الشمس والقمر وغيرهما مع تلك العظمة لزيد وعمرو والعلة الغائية فيها الفائدة الجزئية لهما وكيف تكون المضرات لاستفادة البشر مع انه لامجازفة فى القرآن ولاتليق المبالغة ببلاغته الحقيقية ﴿قيل لك﴾ تأمل فى ست نقاط يتطاير عنك الاوهام ﴿الاولى﴾ ان خاصة الحياة كما مر تصيير الجزء كلا والجزئى كليا والمنفرد جماعة والمقيد مطلقا والفرد عالما فيصير الانواع كقوم ذى الحياة والدنيا بيته ويكون له مناسبة مع كل شئ ﴿والثانية﴾ ان فى العالم كما علمت نظاما ثابتا واتساقا محكما ودساتير عالية

وقوانين اساسية مستمرة فيكون العالم كساعة اوماكينة منتظمة فكما ان كل دولاب منها بل كل سن من كل دولاب بل كل جزء من كل سن له دخل ولوجزئيا فى نظام الماكينة وكذا له تأثير فى فائدة الماكينة ونتيجتها بواسطة نظامها كذلك لوجوده دخل فى فائدة اهل الحياة الذين سيدهم ورئيسهم البشر ﴿والثالثة﴾ انه كاقرع سمعك فيما مضى لامزاحمة فى وجوه الاستفادة فكما ان الشمس بتمامها لزيد وان ضياءها روضة وميدان لنظره كذلك بتمامها ملك لعمرو وجنةله * فزيد مثلا لوكان فى العالم وحده كيف تكون استفادته كذلك اذا كان مع كل الناس لاينقص منها شئ الافيما يعود (الى الغارين) ﴿والرابعة﴾ ان الكائنات ليس لها وجه رقيق فقط بل فيها وجوه عمومية مختلفة طبقا على طبق ولفوائدها جهات كثيرة عمومية متداخلة وطرق الاستفادة متعددة متنوعة * مثلا اذا كان لك روضة تستفيد منها بجهة ويستفيد الناس بجهة اخرى كالاستلذاذ بالقوة الباصرة ولاجرم ان استفادة الانسان تحصل بحواسه الخمس الظاهرة وبحواسه الباطنة وبجسمه وبروحه وكذا بعقله وقلبه وكذا فى دنياه وفى آخرته وكذا من جهة العبرة وقس عليها فلامانع من استفادته بوجه من هذه الوجوه من كل مافى الارض بل العالم ﴿ والخامسة ﴾ انه ﴿ ان قلت ﴾ هذه الآيات مع آيات اخر تشير الى ان هذه الدنيا العظيمة مخلوقة لاجل البشر وجعل استفادته علة غائية لها والحال ان زحل الاكبر من الارض ليست فائدتها بالنسبة الى البشر الانوع زينة وضياء ضعيف فكيف يكون علة غائية ﴿قيل لك﴾ ان المستفيد يفنى فى جهة استفادته ويحصر ذهنه فى طريقها وينسى ماعداها وينظر الى كل شئ لنفسه ويحصر العلة الغائية على مايتعلق به * فاذاً لامجازفة فى الكلام الموجه الى ذلك الشخص فى مقام الامتنان بان يقال ان زحل الذى ابدعه خالقه لالوف حكم وفى كل حكمة الوف جهات وفى كل جهة الوف مستفيد العلة الغائية فى ابداعه جهة استفادة ذلك الشخص ﴿والسادسة﴾ وقد نبهت عليها ان الانسان وان كان صغيرا فهو كبير فنفعه الجزئى كلى فلاعبثية ﴿المسئلة الثانية﴾ فى (ثم) اعلم ان هذه الآية تدل على ان خلق الارض قبل السماء وان آية (والارض بعد ذلك دحيها) تدل على ان خلق السماء قبل الارض وان آية (وكانتا رتقا ففتقناهما) تدل على انهما خلقتا معا وانشقتا من مادة * واعلم ثانيا ان نقليات الشرع تدل على ان الله تعالى خلق اولا جوهرة اى مادة ثم تجلى عليها فجعل قسما منها بخاراً وقسما مائعا ثم تكاثف المائع بتجليه فازبد ثم خلق الارض اوسع كرات من الارضين من ذلك الزبد فحصل لكل ارض منها سماء من الهواء النسيمى ثم بسط المادة البخارية فسوى منها سموات زرع فيها النجوم فانعقدت السموات مشتملة على نوات النجوم * وان فرضيات الحكمة الجديدة ونظرياتها تحكم بان المنظومة الشمسية اى مع سمائها التى تسبح فيها كانت جوهرا بسيطا ثم انقلب الى نوع بخار ثم تحصل من البخار مائع نارى ثم تصلب بالتبرد منه قسم ثم ترامى ذلك المائع النارى بالتحرك شرارات وقطعات انفصلت فتكاثفت فصارت سيارات منها ارضنا هذه فاذسمعت هذا يجوزلك التطبيق بين هذين المسلكين لانه يمكن ان يكون آية (كانتا رتقا

ففتقناهما) اشارة الى ان الارض مع المنظومة الشمسية كانت كعجين عجنته يد القدرة من جوهر بسيط اعنى مادة الاثير التى هى كالماء السيال بالنسبة الى الموجودات فتنفذ جارية بينها ❊ وآية (وكان عرشه على الماء) اشارة الى هذه المادة التى هى كالماء ❊ والاثير بعد خلقه هو المركز لاول تجلى الصانع بالايجاد اى فخلق الاثير ثم صيره جواهر فردة ثم جعل البعض كثيفا ثم خلق من الكثيف سبع كرات مسكونة منها ارضنا ❊ ثم ان الارض بالنظر الى كثافتها وتصلبها قبل الكل وتعجيلها فى لبس القشر وصيرورتها من زمان مديد منشأ الحيات مع بقاء كثير من الاجرام السماوية الى الآن مائعة نارية تكون خلقتها وتشكلها من هذه الجهة قبل خلق السموات ❊ ولماكان تكمل منافعها ودحوها اى بسطها وتمهيدها لتعيش نوع البشر بعد تسوية السموات وتنظيمها تكون السموات اسبق من هذه الجهة مع الاجتماع فى المبدأ ❊ فالآيات الثلاث تنظر الى النقاط الثلاث ❊ الجواب الثانى ان المقصد من القرآن ليس درس تاريخ الخلقة بل نزل لتدريس معرفة الصانع ففيه مقامان ففى مقام بيان النعمة واللطف والمرحمة وظهور الدليل تكون الارض اقدم ❊ وفى مقام دلائل العظمة والعزة والقدرة تكون السموات اسبق ثم ان (ثم) كما تكون للتراخى الذاتى تجئ للتراخى الرتبى (فثم استوى) اى ثم اعلموا وتكفروا انه استوى ﴿المسئلة الثالثة﴾ فى سبع اعلم ان الحكمة العتيقة قائلة بان السموات تسعة وتصورها اهلها بصورة عجيبة واستولى فكرهم على نوع البشر فى اعصار حتى اضطر كثير من المفسرين الى امالة ظواهر الآيات الى مذهبهم ❊ واما الحكمة الجديدة فقائلة بان النجوم معلقة فى الفضاء والخلو كأنها منكرة لوجود السماء فكما افرط احديهما فرط الاخرى ❊ واما الشريعة فحاكمة بان الصانع جل جلاله خلق سبع سموات وجعل النجوم فيها كالسماك تسبح والحديث يدل على ان السماء موج مكفوف ❊ وتحقيق هذا المذهب الحق فى ست مقدمات ﴿الاولى﴾ انه قد ثبت فنا وحكمة ان الفضاء الوسيع مملو من الاثير ﴿والثانية﴾ ان رابطة قوانين الاجرام العلوية وناشر قوى امثال الضياء والحرارة وناقلها مادة موجودة فى الفضاء مالئة له ﴿والثالثة﴾ ان مادة الاثير مع بقائها اثيراً لها كسائر المواد تشكلات مختلفة وتنوعات متغايرة كتشكل البخار والماء والجمد ﴿والرابعة﴾ انه لو امعن النظر فى الاجرام العلوية يرى فى طبقاتها تخالف ❊ ألا ترى ان نهر السماء المسمى بكهكشان المرئى فى صورة لطاخة سحابية انما هو ملايين نجوم اخذت فى الانعقاد ❊ فصورة الاثير التى تنعقد تلك النجوم فيها تخالف طبقة الثوابت البتة وهى ايضا تخالف طبقات المنظومة الشمسية بالحدس الصادق وهكذا الى سبع منظومات ﴿والخامسة﴾ انه قد ثبت حدسا واستقراء انه اذا وقع التشكيل والتنظيم والتسوية فى مادة تتولد منها طبقات مختلفة كالمعدن يتولد منه الرماد والفحم والالماس وكالنار تتميز جمراً ولهبا ودخانا وكمزج مولد الماء مع مولد الحموضة يتشكل منه ماء وجمد وبخار ﴿والسادسة﴾ ان هذه الامارات تدل على تعدد السموات والشارع الصادق

قال هى سبعة فهى سبعة على ان السبع والسبعين والسبع مائة فى اساليب العرب لمعنى الكثرة والحاصل ان الصانع جل جلاله خلق من مادة الاثير سبع سموات فسواها ونظمها بنظام عجيب دقيق وزرع فيها النجوم وخالف بين طبقاتها * اعلم انك اذا تفكرت فى وسعة خطابات القرآن ومعانيه ومراعاته لافهام عامة الطبقات من ادنا العوام الى اخص الخواص ترى امراً عجيبا مثلا من الناس من يفهم من سبع السموات * طبقات الهواء النسيمية * ومنهم من يفهم منه الكرات النسيمية المحيطة بارضنا هذه واخواتها ذوات ذوى الحيات ومنهم من يفهم منه سبع السيارات المرئية للجمهور * ومنهم من يفهم منه طبقات سبعة اثيرية فى المنظومة الشمسية * ومنهم من يفهم منه سبع منظومات شموسية اولها منظومة شمسنا هذه * ومنهم من يفهم منه انقسام الاثير فى التشكل الى طبقات سبعة كما مر آنفاً * ومنهم من يرى جميع مايرى مما زين بمصابيح الشموس والنجوم الثوابت سماء واحدة هى السماء الدنيا وفوقها ست سموات اخر لاترى * ومنهم من لا يرى انحصار سبع سموات فى عالم الشهادة فقط بل يتصورها فى طبقات الخلقة فى العوالم الدنيوية والاخروية والغيبية فكل يستفيض بقدر استعداده من فيض القرآن ويأخذ حصته من مائدته فيشتمل على كل هذه المفاهيم * واعلم ان الجملة الاولى اعنى (هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا) نظمها بخمسة اوجه ﴿الاول﴾ ان الآية الاولى اشارة الى نعمة الحيات والوجود وهذه تشير الى نعمة البقاء واسبابه ﴿والثانى﴾ انه لما اثبتت الاولى للبشر اعلى المراتب اعنى الرجوع اليه تعالى تنبه ذهن السامع للسؤال بان لهذا الانسان الذليل استعداد لهذه المرتبة العالية الا ان يكون بفضله تعالى وجذبه فكأن هذه الجملة تقول مجيبة عن ذلك السؤال ان للانسان عند خالقه الذى سخر له جميع الدنيا لموقعا عظيما ﴿والثالث﴾ انه لما اشارت الاولى الى وجود الحشر والقيامة للبشر ذهب السامع الى سؤال ماهمية البشر حتى تقوم القيامة لاجله ويخرب العالم لسعادته فكأن هذه الجملة تجيبه بان من هى جميع مافى الارض لاستفادته وسخر له الانواع له اهمية عظيمة تشير الى انه هو النتيجة للخلقة ﴿والرابع﴾ ان الاولى اشارت باليه ترجعون الى رفع الوسائط وانحصار المرجعية فيه تعالى والحال ان للبشر فى الدنيا مراجع كثيرة فهذه الجملة تقول ايضا ان الاسباب والوسائط تشف عن يد القدرة وان المرجع الحقيق فى الدنيا انما هو الله تعالى وانما توسطت الاسباب لحكم فانه تعالى هو الذى خلق للانسان كل مايحتاج اليه ﴿والخامس﴾ ان الاولى لما اشارت الى السعادة الابدية اشارت هذه الى سابقة فضل يستلزم تلك السعادة ذلك الفضل اى من احسن اليه جميع مافى الارض لحقيق بان يعطى له السعادة الابدية * وجملة (ثم استوى الى السماء) نظمها باربعة اوجه ﴿الاول﴾ ان السماء رفيقة للارض لايتصور الارض احد الا ويخطر فى ذهنه السماء ﴿والثانى﴾ ان تنظيم السماء هو المكمل لوجه استفادة البشر مما فى الارض ﴿والثالث﴾ ان الجملة الاولى اشارت الى دلائل الاحسان والفضل وهذه تشير الى دلائل العظمة والقدرة ﴿والرابع﴾ ان هذه الجملة تشير الى ان فائدة البشر لاتحصر على الارض بل السماء ايضا مسخرة لاستفادته ونظم جملة (فسويهن سبع سموات) بثلاثة اوجه ﴿الاول﴾ ان

ربطها بالاولى كربط (فيكون) مع (كن) ❊ والثانى انه كربط تعلق القدرة بتعلق الارادة ❊ والثالث انه كربط النتيجة بالمقدمة ❊ ونظم جملة (وهو بكل شئ عليم) بوجهين ❊ احدهما انها دليل لمى على التنظيم السابق كما ان التنظيم السابق دليل انى عليها اذ الاتساق والانتظام يدلان على وجود العلم الكامل كما ان العلم يفيد الانتظام ❊ والآخر ان الجملة الاولى تدل على القدرة الكاملة وهذه على العلم الشامل ❊ اما نظم هيأت جملة جملة ففى الجملة الاولى الاستيناف وتعريف الجزئين وتعريف الخبر ولام (لكم) وتقديم لكم ولفظ (فى) ولفظ جميعا ❊ اما الاستيناف فاشارة الى اسئلة مقدرة واجوبة قد نبهت عليها فى الاوجه الخمسة لنظم الجملة الاولى ❊ واما تعريف الجزئين فاشارة الى التوحيد والحصر الذى هو دليل على الحصر فى تقديم اليه فى (ثم اليه ترجعون) ❊ واما تعريف الخبر فاشارة الى ظهور الحكم ❊ واما لام النفع فى (لكم) فاشارة الى ان الاصل فى الاشياء الاباحة ❊ وانما تعرض الحرمة (للعصمة) كمال الغير او (الحرمة) كلحم الآدمى او (الضرر) كالسم او (الاستقذار) كبلغم الغير او (النجاسة) كالميتة وكذا رمز الى وجود النفع فى كل شئ وان للبشر ولو بجهة من الجهات استفادة ولو بنوع من الانواع ولو فى احقر الاشياء ولا اقل من نظر العبرة ❊ وكذا ايماء الى انه كم من خزائن للرحمة مكنوزة فى جوف الارض تنتظر ابناء الاستقبال واما تقديم (لكم) فاشارة الى ان جهة استفادة البشر اقدم الغايات واولاها واولها ❊ واما (ما) المفيدة للعموم فللحث على تحرى النفع فى كل شئ ❊ واما (فى الارض) بدل على الارض مثلا فاشارة الى وجود اكثر المنافع فى بطن الارض وكذا تشجيع على تحرى مافى جوفها ❊ ويدل تدرج البشر فى الاستفادة من معادن الارض وموادها على انه يمكن ان يكون فى ضمنها مواد وعناصر تخفف عن كاهل ابناء الاستقبال ضغط تكاليف الحيات من الغداء وغيره واما (جميعا) فلرد الاوهام فى عبثية بعض الاشياء ❊ واما (ثم) فى الجملة الثانية فاشارة الى سلسلة من افعاله تعالى وشئونه بعد خلق الارض الى تنظيم السماء ❊ وكذا رمز الى تراخى رتبة التنظيم فى نفع البشر عن خلقة الارض وكذا ايماء الى تأخره عنها ❊ واما استوى ففيه ايجاز اى اراد ان يسوى وكذا فيه مجاز اى كمن يسدد قصده الى شئ لا ينثنى يمنةً ويسرةً ❊ و (الى السماء) اى الى مادتها وجهتها واما فاء (فسويهن) فبالنظر الى جهة التفريع نظير ترتب فيكون على كن وتعلق القدرة على تعلق الارادة والقضاء على القدر ❊ واما بالقياس الى جهة التعقيب فايماء الى تقدير ونوعها ونظمها ودبر الامر بينها فسويهن الخ ❊ واما (سوى) اى خلقها منتظمة مستوية متساوية فى ان اعطى كلاً ما يناسب استعداده ويساوى قابليته ❊ واما (هن) فايماء الى تنوع مواد السماوات واما (سبع) فيتضمن الكثرة والمناسبة مع صفات السبع ومع الادوار السبعة فى تشكلات الارض ❊ و (سموات) اى اللاتى هن رياض لازاهير الدرارى وبحار لسماك السيارات ومزرعة لحبات النجوم اما جملة (وهو بكل شئ عليم) فواو العطف المقتضية للمناسبة اشارة الى (وهو على كل شئ قدير) فهو الخالق لهذه الاجرام العظيمة ❊ وهو بكل شئ عليم فهو النظام المتقن للصنعة فيها ❊ وباء الالصاق اشارة الى عدم انفكاك العلم عن المعلوم واما (كل) فهو العام الذى

لم يخص منه البعض وقد خص قاعدة (ومامن عام الا وقد خص منه البعض) والا لكانت هذه القاعدة بحيث اذا صدقت كذبت نفسها نظير الجزر الاصم الكلامى ولفظ (شئ) يعم الشائى والمشئ ومالبس بهذا ولا بذاك كالممتنع ✻ و (عليم) اى ذات ثبت له ولازما منه العلم ﴿واذقال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال انى اعلم مالاتعلمون﴾ مقدمة اعلان التصديق بوجود الملائكة احدا ركان الايمان ولناهنامقامات ﴿المقامة الاولى﴾ ان من نظر الى الارض وقد امتلئت بذوى الارواح مع حقارتها وتأمل فى انتظام العالم واتقانه تحدس بوجودسكان فى هذه البروج العالية ✻ فمثل من لم يصدق بوجود الملائكة كمثل رجل ذهب الى بلدة عظيمة وصادف دارا صغيرة عتيقة ملوثة بالمزخرفات مشحونة بالناس ورأى عرصاتها مملوءة من ذوى الارواح ولحياتهم شرائط مخصوصة كالنباتات والسماك ثم رأى الوفا من القصور العالية الجديدة قد تخللت بينها ميادين النزهة فيعتقد خلوها عن السكان لعدم جريان شرائط حيات هذه الدار فى تلك القصور ✻ ومثل المعتقد بوجودهم كمثل من اذا رأى هذا البيت الصغير وقد امتلأ من ذوى الارواح ورأى انتظام البلدة جزم بان لتلك القصور المزينة ايضا سكانا يناسبونها وتوافقهم ولهم شرائط حيات مخصوصة فعدم مشاهدتهم لبعدهم وترفعهم لايدل على عدمهم فامتلاء الارض من ذوى الحيات ينتج بالطريق الاولى وبالقياس الاولوى المؤسس على القياس الخفى المبنى على الانتظام المطرد امتلاء هذه الفضاء الوسيعة ببروجها ونجومها وسماواتها من ذوى الارواح الذين يدعوهم الشرع بالملائكة المنطوية على اجناس مختلفة فتأمل ﴿المقام الثانى﴾ اعلم كما مر ان الحيات هى الكشافة للموجودات بل هى النتيجة لها ✻ فاذاً كيف تخلو هذه الفضاء الوسيعة من ساكنها وتلك السموات من عامريها ✻ ولقد اجمع العقلاء اجماعا معنويا وان اختلفوا فى طرق التعبير على وجود معنى الملائكة وحقيقتهم حتى ان المشائين عبروا عنهم بالماهيات المجردة الروحانية للانواع والاشراقيين عبروا عنها بالعقول وارباب الانواع واهل الاديان بملك الجبال وملك البحار وملك الامطار مثلا حتى ان الماديين الذين عقولهم فى عيونهم لم يتيسر لهم انكار معنى الملائكة بل نظروا اليهم فى القوات السارية فى نواميس الفطرة ﴿فان قلت﴾ أفلا يكفى لارتباط الكائنات وحيويتها هذه النواميس وتلك القوانين الجارية فى الخلقة ﴿قيل لك﴾ ماتلك النواميس الجارية والقوانين السارية الا امور اعتبارية بل وهمية لايتعين لها وجود ولايتشخص لها هوية الا بممثلاتها ومماكسها ومن هو آخذ برأس خيوطها وان هى الا الملائكة ✻ وايضا قد اتفق الحكماء والعقل والنقل على عدم انحصار الوجود فى عالم الشهادة الظاهر الجامد الغير الموافق لتشكل الارواح ✻ فعالم الغيب المشتمل على عوالم الموافق للارواح كالماء للسماك مشحون بها مظهر لحيات عالم الشهادة ✻ فاذشهدت لك هذه الامور الاربعة على وجود معنى الملائكة فاحسن صور وجودهم التى ترضى بها العقول السليمة ماهو الاماشرحه الشرع من انهم عباد مكرمون لايخالفون مايؤمرون وكذا انهم اجسام لطيفة نورانية ينقسمون الى انواع مختلفة ﴿المقام

الثالث ﴿ اعلم ان مسئلة الملائكة من المسائل التى يتحقق الكل بثبوت جزء واحد ويعلم النوع برؤية احد الاشخاص اذ من انكر انكر الكل * ثم كما انه محال عندك ايقظك الله ان يجمع اهل كل الاديان فى كل الاعصار من آدم الى الآن على وجود الملائكة وثبوت المحاورة معهم وثبوت مشاهدتهم والرواية عنهم كمباحثة الناس طائفة عن طائفة بدون رؤية فرد بل افراد منهم وبدون ضرورة وجود شخص بل اشخاص منهم وبدون الاحساس بالضرورة بوجودهم كذلك محال ان يقوم (وهم) كذلك فى عقائد البشر ويستمر هكذا ويبقى فى الانقلابات بدون حقيقة يتسنبل عليها وبدون مباد ضرورية مولدة لذلك الاعتقاد العمومى * فاذاً ليس سند هذا الاجماع الاحدس تولد من تفاريق امارات حصلت من واقعات مشاهدات نشأت من مباد ضرورية * وليس سبب هذا الاعتقاد العمومى الامباد ضرورية من رؤيتهم ومشاهدتهم فى كرات تفيد قوة التواتر المعنوى والارفع الامن من يقينيات معلومات البشر * فاذا تحقق وجود واحد من الروحانية فى زمان ماتحقق وجود هذا النوع واذا تحقق هذا النوع كان كما ذكره الشرع وبينه القرآن * ثم ان نظم مآل هذه الآية بسابقها من اربعة وجوه * الاول انه لما كانت هذه الآيات فى تعداد النعم العظام واشارت الاولى الى اعظمها من كون البشر نتيجة للخلقة وكون جميع ما فى الارض مسخراً له يتصرف فيها على مايشاء اشارت هذه الى ان البشر خليفة الارض وحاكمها * والثانى ان هذه الآية بيان وتفصيل وايضاح وتحقيق وبرهان وتأكيد لما فى الآية الاولى من ان ازمة سلاسل ما فى الارض فى يد البشر * والثالث ان تلك لما بينت بناء المسكنين من الارض والسماء اشارت هذه الى ساكنيهما من البشر والملك * وانها رمزت الى سلسلة الخلقة واومت هذه الى سلسلة ذوى الارواح * والرابع انها لما صرحت بان البشر هو المقصود من الخلقة وان له عند خالقه لموقعا عظيما اختلج فى ذهن السامع انه كيف يكون للبشر هذه القيمة مع كثرة شروره وفساده وهل تستلزم الحكمة وجوده للعبادة والتقديس له تعالى فاشارت هذه الى ان تلك الشرور والمفاسد تغتفر فى جنب السر المودع فيه وان الله غنى عن عبادته اذ له تعالى من الملائكة المسبحين والمقدسين مالايحصر بل لحكمة فى علم علام الغيوب * واما نظم الجمل بعضها مع بعض فهو ان الآية تنصب بناء على اقتضاء (اذ) رديفا لها وعطفه على ﴿ وهو بكل شئ عليم ﴾ الى تقدير اذ خلق ماخلق منتظما متقنا هكذا ﴿واذ قال ربك للملائكة الخ﴾ وانه تعالى لما خاطب مع الملائكة ليستفسروا سر الحكمة ولتعليم طريق المشاورة قائلا ﴿انى جاعل فى الارض خليفة﴾ توجه ذهن السامع بسر المقاولة الى ما (قالوا) وبسر الاستفسار عن حكمته مع التعجب الى (أتجعل فيها) وبسر استخلافهم عن الجن المفسدين مع توديع القوة الغضبية والشهوية فيهم ايضا الى (من يفسد فيها) تجاوز القوة الثانية (ويسفك الدماء) تجاوز القوة الاولى ثم بعد تمام السؤال والاستفسار والتعجب ينتظر ذهن السامع لجوابه تعالى فقال (قال انى اعلم مالا تعلمون) اى فالاشياء ليست منحصرة فى معلوماتكم فعدم علمكم ليس امارة على العدم وانى حكيم لى فيهم حكمة تغتفر فى جنبها فسادهم

وسفكهم * اما نظم هيأت جملة جملة فاعلم ان الواو فى (واذقال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة) وكذا فى ﴿ واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشراً من صلصال ﴾ فى آية اخرى بسر المناسبة العطفية اشارة الى (اذواذ) كامر وكذا بسر ان الوحى يتضمن (ذكرهم بذلك) اشارة الى (واذكرلهم اذ) الخ * وان (اذ) المفيد للزمان الماضى لتسيير الاذهان فى الازمنة المتسلسلة الماضوية ورفع وجلب واحضارلها الى ذلك الزمان لتنظره فتجتنى ماوقع فيه وان (ربك) اشارة الى الحجة على الملائكة اى رباك وكملك وجعلك مرشدا للبشر لازالة فسادهم اى انت الحسنة الكبرى التى ترجحت وغطت على تلك المفاسد * وان (للملائكة) اشارة فى هذه المقاولة الكائنة على صورة المشاورة الى ان لسكان السموات اعنى الملائكة مزيد ارتباط وعلاقة وزيادة مناسبة مع سكان الارض اعنى البشر فان من اولئك موكلين وحفظة وكتبة على هؤلاء فحقهم الاهتمام بشأنهم * وان (ان) بناء على كونها لردالتردد المستفاد من (أتجعل) اشارة الى عظمة المسئلة واهميتها وان ياءالمتكلم وحده هنا مع (نا) للمتكلم مع الغير فى قلنا فى الآيات الآتية اشارة الى ان لاواسطة فى ايجاده وخلقه كماتوجد فى خطابه وكلامه ومما يدل على هذه النكتة آية (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله) فقال انزلنا بنون العظمة لوجوه الواسطة فى الوحى وقال اراك الله مفرداً لعدم الواسطة فى الهام المعنى وان ايثار (جاعل) على خالق اشارة الى ان مدار الشبهة والاستفسار الجعل والتخصيص لعمارة الارض لاالخلق والايجاد لان الوجود خير محض والخلق فعله الذاتى لايسئل عنه * وان ايثار (فى) فى (فى الارض) على على مع ان البشر على الارض * لايخلو من الايماء الى ان البشر كالروح المنفوخ فى جسد الارض فمتى خرج البشر خربت الارض وماتت * وان (خليفة) اشارة الى انه قدوجد قبل تهيء الارض لشرائط حيات الانسان مخلوق مدرك ساعدت شرائط حياته الادوار الاولية للارض وهذا هو الاوفق لقضية الحكمة والمشهور ان ذلك المخلوق المدرك كان نوعا من الجن فافسدوا فاستخلفوا بالانسان * اماهيأت جملة ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فاعلم ان استيناف قالوا اشارة الى ان توجيه خطابه تعالى الى الملائكة يلجيء السامع الى السؤال بكيف يتلقون جيرانهم بيت بيت وأيرضون بهم قرناء ومارأيهم فيهم فقال (قالوا) وان وجه كونه جزاء (لاذ) هو ان حكم الله تعالى بجعل البشر خليفة فى الارض التى وكل عليها الملائكة مع انه لامشيرله تعالى ولاوزير يستلزم اظهار كيفية تلقيهم لهم * وان صورة القول اشارة الى اسلوب المقاولة على صورة المشاورة لتعليم الناس مع تنزهه تعالى عنها * وان استفهام (أتجعل) فلتحقق الجعل باخباره تعالى تمتنع حقيقته فيتولد منه التعجب الناشى عن خفاء السبب فيتولد منه الاستفسار اى ماحكمة الجعل فاستفهم عن المسبب بدلا عن السبب وليس للانكار لعصمتهم * وان الجعل رمز الى ان شئون البشر ونسبه الاعتبارية ووضعياته ليست من لوازم الطبيعة ولامن ضروريات الفطرة بل كل منها بجعل الجاعل * وان (فيها) مع (فيها) مع قصر المسافة فللتنصيص والايماء الى معنى ماحكمة

جعل البشر روحا منفوخا فى جسد الارض لحياتها مع وجود الفساد والاماتة من حيث الاحياء وان التعبير (بمن) اشارة الى انه لايعنيهم شخصية البشر وانما يثقل عليهم عصيان مخلوق * لله تعالى وان ايراد (يفسد) بدل يعصى اشارة الى ان العصيان ينجر الى فساد نظام العالم * وان صورة المضارع اشارة الى ان المستنكر تجدد العصيان واستمراره وقدعلموا ذلك اما باعلامه تعالى او بمطالعة اللوح او بمعرفة فطرتهم من عدم تحديد القوى المودعة فيهم فبتجاوز الشهوية يحصل الفساد وبتعدى الغضبية ينشأ السفك والظلم * و(فيها) اى مع انها كانت مسجداً اسس على التقوى * وان موقع الواو الجمع بين الرزيلتين بمناسبة انجرار الفساد الى سفك الدم وان ايثار (يسفكون) على يقتلون لان السفك هو القتل بظلم ومن القتل ماهو جهاد فى سبيل الله وكذا قتل الفرد لسلامة الجماعة كقتل الذئب لسلامة الغنم * واما (الدماء) فتأكيد لما فى السفك من الدم لتشديد شناعة القتل * واما هيأت (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) * فواو الحال اشارة الى استشعارهم الاعتراض عليهم باما يكفيكم حكمة عبادة البشر وتقديسه له تعالى (ونحن) اى معاشر الملائكة المعصومين من المعاصى * واسمية الجملة اشارة الى ان التسبيح كالسجية لهم واللازم لفطرتهم وهم له * اما نسبح بحمدك فكلمة جامعة اى نعلنك فى الكائنات بانواع العبادات * ونعتقد تنزهك عما لايليق بجنابك بتوصيفك باوصاف الجلال * وماهو الامن نعمك المحمود عليها * ونقول سبحان الله وبحمده * ونحمدك ونصفك باوصاف الجلال والجمال * و(نقدس لك) اى نقدسك اونطهر انفسنا وافعالنا من الذنوب وقلوبنا من الالتفات الى غيرك فالواو للجمع بين الفضيلتين اى امتثال الاوامر واجتناب النواهى فيكون حذاء الواو الاول * واما هيأت ﴿قال انى اعلم ما لاتعلمون﴾ فاستينافها اشارة الى السؤال بماذا قال الله تعالى مجيبا لاستفسارهم وكيف بين السبب مزيلا لتعجبهم وما الحكمة فى ترجيح البشر عليهم فقال (قال) مشيرا الى جواب اجمالى ثم فصل بعض التفصيل بالآية التالية * و(ان) فى (انى اعلم) للتحقيق ورد التردد والشبهة وهو انما يكون فى حكم نظرى ليس بمسلم مع بداهة ومسلمية علم الله تعالى بما لايعلم الخلق وحاشاهم عن التردد فى هذا فحينئذ يكون (ان) مناراً على سلسلة جمل لخصها القرآن واجملها واوجزها بطريق بيانى مسلوك * اى ان فى البشر مصالح وخيراً كثيرا تغمر فى جنبها معاصيه التى هى شر قليل فالحكمة تنافى ترك ذلك لهذا * وان فى البشر لسراً اهله للخلافة غفلت عنه الملائكة وقدعلمه خالقه * وان فيه حكمة رجحته عليهم لايعلمونها ويعلمها من خلق * وايضا قد يتوجه معنى ان الى الحكم الضمنى المستفاد من واحد من قيود مدخولها اى لاتعلمون بالتحقيق * وايضا (اعلم ما لاتعلمون) من قبيل ذكر اللازم وارادة الملزوم اى يوجد مالاتعلمون اذ علمه تعالى لازم لكل شئ فنفى العلم دليل على عدم المعلوم كما قال تعالى (بما لايعلم) اى لايمكن ولايوجد ووجود العلم دليل على وجود المعلوم * ثم انه قد ذكر فى تحقيق هذا الجواب الاجمالى (ان الله

عليم حكيم) لاتخلو افعاله تعالى عن حكم و مصالح فالموجودات ليست محصورة فى معلومات الخلق فعدم العلم لايدل على العدم * وان الله تعالى لماخلق الخير المحض اعنى الملائكة والشر المحض اعنى الشياطين وما لاخير عليه ولا شر اعنى البهائم اقتضت حكمة الفياض المطلق وجود القسم الرابع الجامع بين الخير والشر ان انقادت القوة الشهوية والغضبية للقوة العقلية فاق البشر على الملائكة بسبب المجاهدة وان انعكست القضية صار انزل من البهائم لعدم العذر ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا الاما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال ياآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال ألم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ﴾

مقدمه — اعلم ان هذه معجزة آدم تحديت بها الملائكة بل معجزة نوع البشر فى دعوى الخلافة ان فى القصص لعبراً * ثم انى نظراً الى (ان لارطب ولايابس الا فى كتاب مبين) ومستنداً الى ان التنزيل كما يفيدك بدلالاته ونصوصه كذلك يعلمك باشارته ورموزه * لافهم من اشارات [١] استاذية اعجاز القرآن فى قصص الانبياء ومعجزاتهم التشويق و التشجيع للبشر على التوسل للوصول الى اشباهها كأن القرآن بتلك القصص يضع اصبعه على الخطوط الاساسية ونظائر نتايج نهايات مساعى البشر للترقى فى الاستقبال الذى يبنى على مؤسسات الماضى الذى هو مرآة المستقبل وكأن القرآن يمسح ظهر البشر بيدا لتشويق والتشجيع قائلاله اسع واجتهد فى الوسائل التى توصلك الى بعض تلك الخوارق أفلاترى ان الساعة والسفينة اول ماا هديهما للبشر يد المعجزة * وان شئت فانظر الى (وعلم آدم الاسماء كلها) والى (ولقد آتينا داود منافضلا ياجبال اوبى معه والطير وألناله الحديد) والى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلناله عين القطر) اى النحاس والى (فاضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتى عشرة عينا) والى (وتبرأ الاكمه والابرص باذنى) ثم تأمل فيما تمخضه تلاحق افكار البشر واستنبطه من الوف فنون ناطق كل منها بخواص وصفات واسماء نوع من انواع الكائنات حتى صار البشر مظهر (وعلم آدم الاسماء كلها) * ثم فيما استخرجه فكر البشر من عجائب الصنعة من السكة الحديدية والآلة البرقية وغيرهما بواسطة تليين الحديد واذابة النحاس حتى صار مظهر (والناله الحديد) الذى هو ام صنائعه * وفيماافرخه اذهان البشر من الطيارات التى تسير فى يوم شهرا حتى كادان يصير مظهر (غدوها شهر ورواحها شهر) وفيما ترقى اليه سعى البشر من اختراع الآلات والعصى التى تضرب فى الارض الرملة اليابسة فتفور منها عين نضاخة وتصير الرملة روضة حتى اوشك ان يصير مظهر (فاضرب بعصاك الحجر) وفيما اتجه تجارب البشر من خوارق الطب التى طفق ان تبرء الاكمه والابرص والمزمن باذن الله * ترى [٢] مناسبة تامة تصحح لك ان تقول تلك مقائسها وذكرها يشير اليها * ويشجع عليها وكذا انظر الى قوله تعالى (يانار

---

[١] فان كنت فى ريب فيما استخرجه من لطائف نظم التنزيل فاقول قد استشرنا بابن الفارض تفألاً فاجاب بـ (كأن الكرام الكاتبين تنزلوا على قلبه وحيا بما فى صحيفة) « حبيب »

[٢] جواب فانظر

كونى برداً وسلاما) والى (ولولا ان رأى برهان ربه) اى صورة يعقوب عاضا على اصبعه فى رواية و الى (انى لاجد ريح يوسف)والى (ياجبال اوبى معه) والى (وعلمناه منطق الطير) والى (انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) وامثالها * ثم تأمل فيما كشفه البشر من مرتبة النار التى لاتحرق ومن الوسائط التى تمنع الاحراق وفيما اخترعه من الوسائل التى تجلب الصور والاصوات من مسافات بعيدة وتحضرها اليك قبل ان يرتد اليك طرفك وفيما ابدعه فكر البشر من الآلات الناطقة بما تتكلم وفى استخدامه لانواع الطيور والحمامات وقس عليها لترى بين هذين القسمين ملائمة يحق بها ان يقال فى هذه رموز الى تلك وكذا تأمل فى خاصية المعجزة الكبرى التى هى خاصية الناطقية التى هى خاصية الانسانية وهى الادب والبلاغة ثم تدبر فى ان اعلى مايربى روح البشر والطف مايصفى وجدانه واحسن مايزين فكره وابسط مايوسع قلبه انما هو نوع من الادبيات ولامر ما ترى هذا النوع ابسط الفنون واوسعها مجالا وانفذها واشدها تأثيراً والصقها بقلوب البشر حتى كأنه سلطانها فتأمل * ثم ان لهذه الآية ايضا الوجوه الثلاثة النظمية * اما نظم مآلها بسابقتها فمن وجوه اربعة * الاول ان التنزيل لما ذكر فى الآية الاولى فى بيان حكمة خلقة الانسان ماهو اول الاوجوبة واولاها واعمها للكل وايسرها واسهلها اقناعا واجلها اجمالا واوجزها بين بهذه الآية جوابا تفصيليا يطمئن به العوام والخواص * والثانى انه لما صرح فى تلك بمسئلة الخلافة للبشر برهن بهذه على تلك الدعوى بمعجزة ذلك النوع فى مقابلة الملائكة * والثالث انه لما اشار بتلك الى ترجح البشر على الملك رمز بهذه الى لمية الرجحان * والرابع انه لما لوح بها الى مظهرية هذا النوع للخلافة الكبرى فى الارض لمح بهذه احتجاجا عليها الى ان الانسان هو النسخة الجامعة والمظهر الاتم لكل التجليات لتنوع استعداداته وتكثر طرف استفاداته وعلمه فيحيط بالكائنات بحواسه الخمس الظاهرة والباطنة لاسيما بوجدانه الذى لاقعر له أفلا تراه يعلم امثال حلاوة العسل بوجهين بل بوجوه خلاف الملك فتأمل * اما نظم الجمل بعضها مع بعض ففطرى فى غاية السلاسة فالاولى تحقيق لمضمون (انى اعلم مالاتعلمون) وتفصيل لما اجمل فيها وتفسير لما ابهم وكذا ان خلافة الله تعالى فى ارضه لاجراء احكامه وتطبيق قوانينه تتوقف على علم تام وكذا ان انصباب الكلام فى الآية الاولى يجر الى فخلقه وسواه ونفخ فيه من روحه ورباه ثم علم الاسماء واعده للخلافة * ثم لما اصطفاه على الملائكة وميزه بعلم الاسماء فى مسئلة الرجحان واستحقاق الخلافة اقتضى مقام التحدى عرض الاشياء عليهم وطلب المعارضة منهم ثم لما احسوا بالعجز من انفسهم اقروا بحكمته تعالى واطمأنوا ولهذا قال (ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) (قالوا) اى متبرئين مما دسه فى استفسارهم انانية ابليس (سبحانك لاعلم لنا الاماعلمتنا انك انت العليم الحكيم) ثم لما ظهر عجزهم لعدم جامعية استعدادهم اقتضى المقام بيان اقتدار آدم حتى يتم التحدى فـ (قال ياآدم انبئهم باسمائهم) ثم لما امتثل وظهر سر الحكمة فيه اقتضى المقام استحضار الجواب الاجمالى السابق وجعله كالنتيجة لهذا التفصيل فـ (قال ألم أقل لكم

انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون﴾ واعلم انه قدتشف وتحس صورة المقاولة عن تولدانانية ابليس فيما بين الملائكة وتشعر بتداخل اعتراض طائفة بين استفسارهم * امانظم هيأت جملة جملة فجملة (وعلم آدم الاسماء كلها) اى صوره بفطرة تضمنت مبادى انواع الكمالات * وخلقه باستعداد زرع فيه بذور انواع المعالى * وجهزه بالحواس العشر وبوجدان تتمثل فيه الموجودات * واعده بهذه الثلاث لتعلم حقائق الاشياء بانواعها * ثم علمه الاسماء كلها الواوفيها اشارة الى الجمل المطوية تحت ايجازه كامر * و(علم) فيه اشارة الى تنويه العلم ورفعة درجته وانه هوالمحور للخلافة * وكذا رمز الى ان الاسماء توقيفية ويؤيده وجود المناسبة المرجحة للوضع فى الاغلب بين الاسماء والمسميات * وكذا ايماء الى ان المعجزة فعل الله بلاواسطة خلافا للفلاسفة الذين يقولون ان الخوارق افعال للارواح الخارقة * و(آدم) اى الشخص الارضى الذى اراد الله تعالى خلافته وسماه آدم فالتصريح بالعلم لتنويهه وتشهيره واحضاره بصورته * و(الاسماء) سمات الاشياء من الصفات والخواص والاسماء اواللغات التى اقتسمها بنو آدم * وفيه ايماء بدليل (عرضهم) الى ان الاسم عين المسمى كما عليه اهل السنة و(كلها) تنصيص على منشأ التميز ومدار الاعجاز * وجملة (ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) فثم اشارة بسر التراخى واقتضاء المقام الى (وقال هواكرم منكم واحق بالخلافة) واما (عرضهم) اى اظهر انواع الاشياء مبسوطة للبيع لانظارهم كعرض المتاع على المشترى وعرض الصفوف على الامير ففيه اشارة الى ان الموجودات مال للمدرك يشتريها بالعلم *ويأخذها بالاسم * ويتملكها بتمثل الصورة * واما (هم) الدال على الذكور العقلاء فسر مافيه من التغليبين والمجاز مايرمز اليه لفظ العرض اذتخيل من ارساله صور طوائف الموجودات مارة صفا صفا على الانظار كونها قبائل من العقلاء يجيؤن اليهم * واما (على) فايماء الى ان مايعرض عليهم هى الصور المرتسمة فى اللوح الاعلى

﴿ تم الجزء الاول ويليه انشاءالله الجزء الثانى ﴾